مملكة سنغاي

في عهد الأسيقيين

1493 - 1591

تأليف

عبد القادر زبادية



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

عبد القادر زبادية

مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

مقدمة

تعود بداية اهتمامي بالبحث في تاريخ إفريقيا إلى وقت تخرّجي من جامعة بغداد سنة ١٩٦١ . أمّا الحوافز فمصدرها عدّة اعتبارات ، يتمثّل الاعتبار الأوّل منها في أنّ هناك حركة دائبة حالياً في مختلف الجامعات العالمية ، لتقصي التاريخ الإفريقي واستجلائه ، ولعلّ في هذا ما يجعل مساهمة الأوساط الجامعيّة لدينا على درجة كبيرة من الأهمية ، خاصّة وأن جامعة الجزائر توجد على أرض إفريقية لا يبخل شعبها بشيء في سبيل خدمة شعوب القارة الإفريقية والمساهمة في نهضتها . ومن هنا فإن إنشاء كرسي للدّراسات الإفريقية في جامعتنا أمر تتطلّبه المعطيات التاريخيّة وحاجة التعاون الجزائري – الإفريقي في الظّروف الرّاهنة والمستقبل .

ويتمثّل الاعتبار الآخر في اعتقادي بأن من واجب الجامعة الجزائرية أن تساهم في فرع مهمّ من النّشاط الذي يتوالى الاهتمام به حالياً في جامعات العالم ، وذلك ممّا يجعل منها عنصراً إيجابياً بين تلك الجامعات ، ويساعدها على التّبادل والحركة .

وإذا اجتزنا اعتبارات الحاضر ، فإن الحوافز الأخرى لاهتمامي بأبحاث التاريخ الإفريقي ، يتجسّم قسم منها في أنّ العرب في إبان ازدهار حضارتهم كانوا هم الذين جابوا القارة الإفريقية وكتبوا عنها ، وساهموا ما أمكنهم في نهضة عدد كبير من الشعوب الإفريقية وتحضّرها ، والباحثون اليوم لا يجدون من الوثائق الهامّة عن التاريخ الإفريقي في تلك الفترة غير الكتابات العربية . أمّا القسم الآخر من تلك الاعتبارات فيتمثّل قبل كلّ شيء في أنّ سكّان المغرب العربي هم الذين أوصلوا الإسلام إلى غرب إفريقيا ، وكان لهم النّصيب الأوفر في التّبادل التّجاري والتّعامل الثّقافي مع سكّانه .[1]

ولا أزعم أن بحثي في موضوع سنغاي على عهد الأسيقيّين ، يؤدي أكثر من مجرّد المساهمة في الدّخول بأبحاث التاريخ الإفريقي إلى مرحلة الشروع في محاولات التعمق الكفيل بإخصاب ميدانها ، فإن جاء عملي يتناسب وهذا الحدّ ، فذاك هو هدفي منذ البداية .

ولعلّه من الواجب عليّ أن أقرّ هنا ، بأن كثيراً من الصّعاب اعترضت سبيلي ، ويتمثل قسم منها في التّعارض بين بعض الحقائق التي تزخر بها المصادر الأساسيّة ، وبين عدد من الآراء احتوتها المراجع الحديثة ، التي يبدو أن مؤلّفيها غالباً يستوحون مبادىء ونظريات يظهر أنهم كانوا قد اعتنقوها مسبّقاً ، وتأثروا فيها ببعض الفلسفات السياسية المعاصرة لهم ، سواء في إفريقيا أو من خارج إفريقيا ، وهذا ممّا يجعل مهمّة الباحث النّزيه عويصة في التأكّد من الصّحيح ونبذ غيره .

---

(1) Cf. BRIGGS, L.C., **Tribes of the Sahara**, Oxford Press, London 1960, P.P. 44-47.

وقسم من تلك الصّعاب يتمثل في أن الموضوع لم يكن قد طرق في السّابق من طرف المختصين إلاّ بشكل عارض ، حيث أنّ أوسع الحالات التي عولج فيها كان كسرد سياسي لتاريخ سنغاي العامّ من حدود القرن السّابع قبل الميلاد حتّى القرن السّابع عشر الميلادي ، وفي الغالب حصل ذلك من طرف أشخاص هواة للتاريخ وليسوا مؤرّخين[1] ،وهذا كلّه ممّا يجعل تجسم كلّ ما يتعلق به في شكل مستقلّ وقائم بذاته، يتطلّب المضاعف من الجهود والكثير من الاحتراز والتّحري والاستقصاء .

والثابت أن الجانب السياسي الذي يعنى بحياة العترة الملكيّة في سنغاي ، سواء في عهد الأسيقيين أو قبلهم ، قد طرق معظمه ، إمّا من طرف المؤرخين القدماء أو المحدثين . أما الجوانب الاجتماعية والثّقافية والاقتصادية ، التي تبيّن وضعيّة سكان المملكة ككلّ ، فلم تطرق من طرف المؤرخين المحدثين الاّ لماما[2] ، ولكنّ الإشارات إليها ، لا تعوز الباحث إن هو دقّق النظر في مختلف المؤلّفات القديمة وأحاط بها ، وهذه الجوانب المغفلة هي التي اعتنى بها هذا البحث ، وسعى إلى استجلائها وتجسيمها بقدر الإمكان . وإن كنت لا أعد هذا الإجراء من مهمة كل الباحثين ، فإني لا أريد أن أغفل ذكر الصعوبة التي واجهتني في استنطاق النصوص ، والإشارات ومقارنتها وتحليلها .

والواقع أن الأبحاث في موضوع التاريخ الإفريقي قد تكاثرت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، ولكنها في معظمها لم تفتأ تعنى بـ (العموميات) إن

---

(1) Cf. Boulnois (J.) et Boubou (H.), **Empire de GAO**, Adrien Maison neuve (éditeur), Paris 1954.

(2) تستحسن الإشارة هنا إلى الدراسة المتأنية في خصوص الاقتصاد التي احتوتها بعض فصول كتاب BOVILL (W.), **the Golden trade and the Moors**, London 1958.

صح هذا التعبير ، ولم تكد تتجاوزها إلى الأبحاث الجزئية المتخصصة إلا في النادر اليسير ، وفي معظم الحالات التي ظهرت فيها بعض الأبحاث من هذا النوع الأخير ، إنما غلبت عليها النزعة إلى سد الحاجة التي اقتضاها ظهور الدول المستقلة في إفريقيا خلال السنوات الأخيرة ، ومن ثم فقد جاءت المؤلفات في هذه الناحية ذات صبغة وطنية وعملية أكثر منها أكاديمية صرفة ، واعتمدت على الحكايات الشعبية والمصادر غير المؤكدة أكثر من اعتمادها على الحقائق لذاتها .[1]

وهناك قسم آخر منها كتبه أشخاص ربما كان همهم البحث لذاته ، ولكنهم في الواقع كثيراً ما تمكّنت في توجيههم مآرب أو مبادىء سياسية معينة ، فجاءت أبحاثهم في حالات عديدة ، لا تقنع الباحث النزيه ، ولا يستطيع أن يتغافل عما يلاحظه عليها من المآخذ .

إن البحث في صبغته الحالية ربما يكون الأول في موضوعه ، وقد انطلقت فيه من اعتبار أن الأبحاث العامة في التاريخ الإفريقي ، قد توافرت بشكل أصبح في الإمكان معه القيام بالأبحاث الجزئية المتخصصة في عدة نواحٍ منه ، وموضوع أيام الأسقيين في سنغاي هي محاولة من هذا النوع ، وإن كنت لا أستطيع تقييم مدى الأهمية التي تمثلها هذه المحاولة فإني أريد أن أؤكد اقتناعي بأن الأبحاث الجزئية المفصلة هي وحدها الكفيلة بإغناء موضوع التاريخ الإفريقي وتوسيع ميدانه .

أما النتيجة العامة التي انتهيت إليها فيمكن إيجازها في أن سكان السودان

---

(1) Cornevin (R.), **Histoire de l'Afrique,** T. 1, Payot, Paris 1962, T. 1, P. 406.
المؤلف من المختصين في أبحاث التاريخ الإفريقي ، ومع ذلك فهو يجيز لنفسه اعتماد الحكايات الشعبية والدعوة إلى أهميتها .

الغربي قد أخذوا بالحضارة الإسلامية في الوقت الذي أصبحت تسير فيه إلى الضعف في مواطنها الأولى الأصلية ، ويعتبر عهد الأسقيين في سنغاي أزهى عصور انتشار الثقافة العربية ــ الإسلامية ، في السودان الغربي كله ، كما يمثل الفترة التي بلغ فيها ازدهار التبادل بين سكان السودان الغربي والعالم الخارجي أوجه . وقد كانت مملكة سنغاي في القرن السادس عشر أقوى الممالك الإسلامية في المنطقة ، وبمِثلِ ما يمكن اعتبار القرن العاشر هو عصر مملكة غانا في السودان الغربي ، والقرن الرابع عشر هو عصر مملكة مالي ، فإنه يمكن اعتبار القرن السادس عشر هو عصر سنغاي .

وقد كان المنهج الذي سرت عليه في الكتابة هو عرض الحقائق لذاتها بعد تمحيصها بقدر الإمكان . وكان مما أداني هذا إليه هو أن أهمل جميع المعلومات التي لا تؤيدها النصوص الأصلية أو الأبحاث المستندة إلى الحفريات أو الآثار المادية الملموسة ، وذلك دون أن أهمل الدلالة الاجتماعية كما كانت تقتضيها روح العصور .

وعلى هذا الأساس انتبهت مثلا إلى أن الوظيفة الإدارية كانت امتيازا طبقيا في سنغاي الأسقية ، كما أن مناصب القضاء والإمامة التي كانت في ظاهرها عملا دينيا وإصلاحيا ، إنما كانت تمثل امتيازا طبقيا أيضا ، وأن الوظيفة الدينية في البلاد بالرغم مما كانت تظهر فيه من ثوب إصلاحي ، إلا أنها لم تسلم من الوقوع في خدمة الطبقية وامتيازاتها في البلاد ، وتتجسّم أمامنا حقيقة ذلك في أن الملوك كانوا شديدي الحرص على انتظام الوظائف الدينية وقبول نصائح أو استنكارات الأئمة والقضاة حتى أمام العامة ، ولكنهم في نفس الوقت الذي كانوا فيه يسعون جاهدين لنيل رضى رجال الدين والعلماء ، فإنهم كانوا يأتون في سلوكهم الفردي من الأعمال ما لا يتناسب أحياناً ومفاهيم الدين .

وفي هذا المضمار وجدت أن وصول الدين الإسلامي والعرب قد أديا للمنطقة التي حكمها الأسيقيون فوائد حضارية لا يمكن إنكارها . وإذا كان بعض المؤرخين المحدثين يذهبون إلى إنكار الدور الحضاري للعرب في السودان الغربي ، وتفسير كل فعالياتهم في المنطقة على أساس استغلالي (1) فقد تأكد لي أن هذا الزعم لا يمثل الحقيقة بكل جوانبها .

ومن ناحية أخرى فقد حاولت توسيع مضمون البحث حتى يعطي صورة شبه متكاملة عن المملكة في عهد الأسيقيين من جوانب عديدة ، وعلى هذا الأساس أدرجت فيه موضوعات يمكن أن تعتبر مبدئياً من مشمولات الجغرافيا البشرية مثل الزراعة والصناعة والحيوانات الموجودة آنذاك ، وطريقة الاستفادة منها وأثر الاستفادة في حياة السكان . ولكني بحثت هذه الجوانب من ناحية اتصالها بحياة السكان ونشاطهم ، فلم تعد نابية عن مشمولات التاريخ في البحث ، وإنما أصبحت جزءاً هاماً منهـا .

وقد أعطيت للجوانب الحضارية والاقتصادية في البحث الأهمية التي أوليتها للجوانب السياسية ، وتطلب مني هذا أن أسلك في الكتابة أسلوبا تحليليا حاولت فيه أن لا أقتصر على مجرد الوقوف عند حدود سرد الوقائع التاريخية ، وإنما سعيت إلى العمل على تحليلها وتعليل دوافعها ونتائجها بقدر الإمكان .

وقد حاولت أن أكتب عن شرائح السكان ، كما كتبت عن الرؤساء والأمراء، وما ذلك إلا لاعتقادي بأن الطريقة القديمة في التاريخ ، قد أهمل أصحابها الجوانب الأكثر أهمية في التاريخ ، وما أهملوه هو ما يبين وضعية السكان على كـل مستوياتهم . وعلى هذا الأساس تضمن البحث صورا عن تقاليد الحياة الاجتماعية

Cf. Delafosse (M.), **Les Noirs de l'Afrique**, Payot, Paris 1922, PP. 157-158. (1)

ومعيشة السكان ككل ، فيما يخص الملبس ومستوى المعيشة والسكن ، كمـا جسم صورا عن حياتهم اليومية وطرق التعامل فيما بينهم . وقد صادفتني في سبيل تضمين هذه الأفكار في البحث صعوبات عديدة ، لأن المصادر الأساسية كانت تعنى بحياة الرؤساء وسيرهم ، دون أن تأبه لغيرهم إلا في اليسير النادر ، ولكن الباحث رغم ذلك يستطيع أن يصل إلى بعض النتائج الهامة إذا جمع إلى استكناه إشارات المؤرخين القدماء توسيع مجال المقارنة وتتبع مدلول الوثائق الفقهية وغيرها. وقد أفادتني هذه الطريقة في الاهتداء إلى بعض مـا أغفل المؤرخون الاستفادة منه كما يجب ، مثل الأسئلة التي كان قد وجهها الأسقيا محمـد الكبير إلى الإمام عبد الكريم المغيلي ، وإجابات هذا الأخير عليها ، وموضوعها الحياة الاجتماعية ، كما كانت عليه في أيام الأسقيا الكبير ، ثم جاءت أجوبة المغيلي عليها لتزيدها توضيحا وشرحا . (1)

ولم أقتصر فيما كتبته عن تتبع الوضعية الداخلية وحدها ، وإنما أفردت للعلاقات الخارجية والتجارة الخارجية فصلين ، حاولت فيهما أن أبرز صورة عن التأثر والتأثير كما حصلت عن طريق التجارة والاتصالات الخارجية على أيام الأسيقيين في سنغاي . وقد وجدت أن كثيراً من التجاوز قد ارتكب من قبل بعض المؤرخين ، فيما يتعلق بالاتصال الخارجي وأثره في المملكة ، إذ من المعلوم أن ذلك الاتصال كان يحصل بالدرجة الأولى مع بلدان المغرب ومصر ، والمؤرخون الأوروبيون إلا أقلهم وبعض السودانيين المحدثين أيضا كتبوا عن هذا الاتصال بين سكان السودان الغربي والشمالي الإفريقي متأثرين بدوافع خاصة على ما يبدو ، فأهملوا الأسلوب

(1) انظر أسئلة الأسقيا محمد وأجوبة المغيلي عليها (مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم ح (37 جـ) . ومخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5295 . وقد حققنا تلك الأجوبة كملحق بالبحث ، ثم تقرر فصلها عند الطبع ، على أن تطبع على حدة ، فيما بعد .

الرزين في بعض ما ذهبوا إليه .

وقد كانت الحملة المغربية على سنغاي سنة 1591 تمثل كارثة حلت بالبلاد ، كان لهذه الكارثة دوافعها لدى المنصور الذهبي ، كما كان في الأوضاع الداخلية بالبلاد آنذاك ما سهل أمام تلك الحملة ظروف النجاح ، فلم أغفل هذين الجانبين معا فيما كتبته عن حملة المنصور وظروفها .

وقد كان عهــد الأسيقيين في سنغاي ، تتمثل فيه المرحلة التي بلــغ فيها انتشار الإسلام واستقراره بالمنطقة عصره الذهبي كما يقولون، فحاولت أن تتجسم في البحث الصورة الحقيقية لأوضاع السودان الغربي في هذه الناحية ، وهذا ما بينته فيما كتبته عن الثقافة والتعليم ومراكز الثقافة آنذاك .

وقد وجدت أن السكان بعد انتشار مبادىء الإسلام بينهم وأخذهم بها بقوا محافظين على جانب هام من تقاليدهم القديمة ، وأبرز ما يتمثل لنا ذلك في موضوع الفنون ، وكذلك تقاليد الجيش ، فبالرغم من أن جيش سنغاي كان أكبر جيش في المنطقة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، إلا أن أساليبه في التعبئة والتسلح ظلت عتيقة حتى القضاء على المملكة ، في سنة 1591 .

ولقد كانت ظروف الحياة التي ربما حتمتها طبيعــة الإقليم في أغلب نواحي البلاد ، قد جعلت مناطق الاستقرار الكبرى حول النيجر وروافده ، أو عند ملتقى القوافل التجارية ، هي التي قام سكانها بنصيب أوفر في المبادرات الحضارية ، وهذا ما حاولت أن أبرز صورة عنه في الفصل الذي خصصته للحديث عن مراكز الحضارة الهامة بالبلاد .

وقد وجدت لدى بعض المؤرخين انحرافا عن الواقع أحيانا ، ولعل أبرز ما يظهر لنا ذلك الانحراف في ربط طراز الهندسة المعمارية في السودان الغربي

بأوروبا ، وفي هذا ما ينفي عن سكان المنطقة كل طابع للأصالة ، كما أن فيه ما يخالف الحقيقة المتمثلة في التأثر الأول في هذا الجانب ، قد كان مبعثه بلاد النوبة قبل غيرها ، ثم تلاه التأثير الذي انبعث من بلدان المغرب ومصر .(1)

وفي جميع فصول البحث حاولت أن أنتهي إلى استنتاجات تجسم اقتناعي بما وصلت إليه في موضوع كل منها .

ثم أنهيت البحث بخاتمة عامة أبرزت فيها الاتجاهات التي سار عليها بعض المؤرخين الذين اشتهروا بكتاباتهم في موضوع تاريخ إفريقيا الغربية ، والأفكار التي جاءوا بها في موضوع سنغاي بالذات ، ثم ضمنتها أخيرا النتائج التي توصلت إليها في موضوع البحث ككل .

وعلى العموم فقد حاولت الإحاطة بتطور المملكة ونظمها في الفترة بين 1493 و 1591 ، ما أمكنني ، وهذا بعد أن كنت خصصت فصلا في البداية أوجزت فيه أهم الوقائع عن تطور المنطقة قبل 1493 وذلك حتى يكون مضمون البحث واضحة معالمه السابقة للدارس ، ورغم هذا كله ، فإنه لا يمكن القول بأن كل شيء عن سنغاي في عهد الأسيقيين قد احتواه البحث حتى في خصوص المواضيع التي تطرقت إليها . وإنما يمكن القول بأن كل فصل فيه ، قد اشتمل على جانب هام من الحقائق المتعلقة به ، ومن ثم فإنه لا يزال أمام الباحثين بذل الكثير من الجهود الخلاقة في هذا المضمار . وإن الدافع على هذا القول ، هو اعتقادي بأن موضوعا

---

(1) Delafosse (M.), Op. Cit, P. 60 ممن ينفون مثلا أن يكون طراز البناء الذي أدخله الساحلي الغرناطي إلى غرب إفريقيا منذ أيام كنكان موسى ذا أصول مصرية ، ولا ينسبه للأندلس أو المغرب ، وإنما ينتحل له نوعية خاصة (قصور – قلاع (Châteaux-forts التي سادت أوروبا خلال العهد الإقطاعي، ولكنه يعترف بأن السكان حاولوا تقليده وتعميمه في كل جهات الغرب الإفريقي بعد ذلك .

حينما يطرق لأول مرة ، على أساس أكاديمي صرف لا يمكن أن يبلغ من التعمق المرحلة الكافية ، مهما كانت الجهود التي بذلت في تحضيره . ورغم ذلك فإني أريد أن أسجل اقتناعي بأنه من الآن فصاعدا ، لا يبدو أن مهمة الباحث في هذا الموضوع يمكن أن تقتصر على تحري الحقائق وجمع المعلومات من المراجع والمصادر المعروفة فقط ، إذا ما أريد لهذه المهمة أن تسفر عن جديد بمعنى الكلمة ، وإنما يمكن لها أن تأتي بجديد فعلا ، إذا انصرفت إلى ميدان البحث الأثري ، إذ الواقع أن كثيرا من المعالم الأثرية في المنطقة التي قامت فيها المملكة لا تزال تحتاج إلى جهود من المختصين ، ونعتقد أن عملا من هذا النوع ، إذا تصدى له باحثون مجدّون فإنهم سيصلون إلى نتائج يحمدون عليها بدون شك .

وأخيراً ، فإنه إذا كانت جهودي لم تمكني بأكثر مما احتوته فصول هذا السّفر ، فكل ما أرجوه هو أن تكون محاولتي الأولية هذه ، بمثابة لبنة صغيرة يمكن للباحثين أن يستندوا إليها لينطلقوا إلى مجالات أرحب وأعمق ، تفيد أبحاث التاريخ الإنساني في منطقة لا يزال تاريخها في حاجة ماسة حقا إلى جهود الباحثين النزهين .

مدخل

السّودان الغربي قبل الأسيقيّين

1 — بلاد السودان

كان العرب أول من أطلق كلمة « السودان » على الأقوام التي تسكن جنوب الصحراء الكبرى ، وسموا بلادهم (بلاد السودان) . أما أصل هذه التسمية لديهم ، فقد استوحوا فيه لون البشرة عند سكان تلك المنطقة .

وتقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام ، هي :

(1) السودان الغربي ، وهو يشمل حوض السنغال الآن وغمبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط .

(2) السودان الأوسط ، وهو يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد .

(3) السودان الشرقي ، وهو يشمل مناطق النيل وروافده ، جنوب بلاد النوبة .

وكان هذا القسم الأخير قد غلب عليه عند العرب بين القرن التاسع والثاني عشر اسم بلاد الزنج [1] إلا أن كلمة السودان ، كانت تشمله أيضا .

وإذا بحثنا حدود هذا المفهوم الاصطلاحي لكلمة السودان ، من الناحية

---

(1) مارسيل دوفيك – بلاد الزنج – هاشيت (باريس 1883) ، ص 11 .

الجغرافية عند العرب ، أمكننا أن نعتبر حدوده الشمالية هي بدايات الصحراء الإفريقية الكبرى . ويحده جنوبا درجة 10° شمالي خط الاستواء [1] ، أما الحدود الغربية والشرقية فهي المحيط الأطلسي من الغرب والمحيط الهندي من الشرق [2] .

وبعد العرب جاء الأوروبيون ، فبقي بينهم تداول هذا الاصطلاح ،ولكن الكلمة استعملت استعمالات جزئية ، فبينما أطلقها الفرنسيون على ممتلكاتهم في غربي إفريقيا ، استعملها الإنكليز للدلالة على ما كان يعرف لديهم بـ (السودان المصري) ، وهو يشمل حاليا كل جمهورية السودان وجزءاً من أوغندا الشمالية .

وبما أن موضوع هـــذا الكتاب خاص بمنطقة غربي إفريقية الإسلامية فنقتصر فيما يلي بالحديث عن الممالك الهامة التي قامت هناك ، ثم اعتنقت الإسلام، وكانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بقيام مملكة سنغاي. وهي ممالك غانا ومالي وبورنو [3]

2 — غـــانـــا

غانا القديمة كانت تشمل جنوب موريطانيا وشرقي السنغال وجزءاً من مالي وربما غينيا أيضا، فهي غير غانا الحالية، على هذا الاعتبار [4] ، وهذه الحدود إنما بلغتها في أوج عزّها وقوتها ، أما قبل ذلك فيذهب كثير من المؤرخين إلى أنها كانت في المنطقة الممتدة شمالي منحنى النيجر الأعلى ومنابع نهر السنغال ، أما في

(1) موريس دولفوس – في دائرة المعارف الإسلامية – ج 5 س – ز ، ليد 1934 – ص 518) .
(2) نفس المصدر ، ص 519 .
(3) مملكة الكانم – بورنو ، لا تزال الأبحاث لم تنته في نشأتها وأصل سكانها إلى نتائج نهائية ، ويعتبر القرنان الثالث عشر والرابع عشر أزهى عصورها ، وكانت لها علاقات واسعة بطرابلس ومصر حتى القرن السابع عشر ، وفي القرن السادس عشر ، وطدت علاقاتها مع المغرب الأقصى ، ولا يعرف لها تأثير يذكر على مملكة سنغاي (موضوع هذه الدراسة) سوى أنها عاصرتها ، وكانت هي أضعف من سنغاي ، ولذا فاننا سنستغني عن الحديث عنها هنا .
(4) أديكو وكليريسي – تاريخ الشعوب السوداء . (أبيجان) 1963 (نقلا عن الزهري 1150) .

أيام ضعفها في الأخير ، فقد بقيت حدودها هي الحدود القديمة أيضا ، ولكن الولايات أصبحت أكثر استقلالا ، بحيث أن التبعية أصبحت إسمية أكثر منها عملية .

ويرجّح ان مملكة غانا قامت خلال القرن الثالث الميلادي ، وامتد عمرها حتى القرن الثالث عشر الميلادي [1] .

واسم غانا في الأصل لقب ملوكها، ثم أطلق على كل المملكة،فعرفت به[2] وقد فرضت غانا سلطانها وامتدت سلطتها على الأقاليم المجاورة ، بفضل تمكّن شعبها من استعمال الحديد كسلاح ، قبل غيره من شعوب إفريقيا الغربية [3] أما ازدهارها الاقتصادي ، فقد قام على التجارة وعلى موقعها الإستراتيجي بين مناجم الذهب في (بامبوك) و (بوري) إلى الجنوب ومناجم الملح في الشمال [4] ، فقد استطاع ملوك غانا أن يفتحوا البلاد في وجه التجارة بين شمالي الصحراء وجنوبها ، منذ وقت مبكر ، ونظموا استخلاص الضرائب للخزينة ، فكانوا يجبون على كل حمل من الملح يدخل البلاد دينارا ذهبا ، وعلى الحمل الذي يخرج منها دينارين . وكان حمل النحاس عليه ثمن أوقية واحدة ، وبقية السلع ضعف ذلك وهكذا نمت مواردهم باستمرار . ويذكر البكري أن مناجم الذهب الموجودة في غانا كانت كلها بيد الحكومة،وهي لا تسمح لأحد أن يستخرج منها شيئا،سوى بعض الذرّات الصغيرة التي يعثر عليها الناس في بعض الفلزات حول المناجم . وقد علل هذا الإجراء بأنه لو سمح الملوك لمواطنيهم باستخراج الذهب من مناجمه لأصبح هذا المعدن الثمين قليل القيمة في الأسواق ، ولاختل بذلك نظام التعامل [5] .

1) دافيدسون ، إفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة م . احمد) ص 183 بيروت 1963 .
(2) البكري ، المسالك (تحقيق دي سلان) مطبعة المثنى (بغداد) 1857 ص 23 .
(3) أديكرو كليريسي ص 20 .
(4) نفس المصدر ص 31 .
(5) زار الفزاري غانا حوالي سنة 800 للميلاد ، ورسم خريطة للعالم على غرار خريطة بطليموس ، فوضع عليها غانا (بلاد الذهب) انظر دافيدسن إفريقيا ص 142 و ص 147 .

وبواسطة التجارة واستغلال مناجم الذهب بلغت مملكة غانا حدا ذا قيمة هامة من حيث الازدهار ، فكان لها جيش دائم يبلغ تعداد أفراده أربعة آلاف ، وفي أوقات الشدة ، كان ملكها يستطيع أن يجند مائتي ألف محارب دون صعوبة . وفي إمكانه أن يسلح أربعين ألفاً من بينهم بالقسي والرماح [1] .

أما عاصمتها (كمبي صالح) فقد كانت (مدينة واسعة الأرجاء — على حد تعبير البكري — ذات أسواق عديدة ، تزينها أشجار النخيل الغزيرة ، وأشجار الحناء تكاد تبلغ الزيتون في الطول ، مليئة بالمنازل الجميلة والأبنية القوية الراسخة). [2]

وبعد أبحاث أثرية استمرت طيلة نصف قرن تقريبا ، استطاع العالمان توماسي وموني سنة 1949 أن يحددا موقع كمبي صالح على بعد حوالي 205 كم إلى الشمال من مدينة باماكو الحالية ، وقد قدرا عدد سكانها بثلاثين ألف نسمة ، أما قصر الملك فكان يقع في قلعة تحيط بها غابة كثيفة خارج المدينة ، ويعيش معه فيها كبار رجال الدولة ويقصد تلك القلعة في كل صباح الموظفون ، والفنيون الذين كان جلهم من المسلمين ، وكان لهم مسجد خاص قرب القصر الملكي ، واثنا عشر مسجدا بالمدينة ، وكانوا يتولون أعمال المحاسبة وتسيير الدواوين ، كما ذكر ذلك البكري . [3]

وقد وجد المنقبون في كمبي صالح رماحا وسكاكين ، وعددا كبيرا من الحراب والمسامير ، وأدوات زراعية متنوعة ، ومقصا بديع الصنع [4] وأعدادا من الأوزان

---

(1) البكري (أبو عبد الله) ص 24 .

(2) البكري ، ص 24 .

(3) دافدسن (إفريقيا) ص 149 .

(4) ويقول الشريف الإدريسي في وصف قصر ملك غانا (1154 م) ، (وله قصر على ضفة النيل قد أولق بنيانه ، وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج . له في قصره لبنة من ذهب وزنها 30 رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غيره أن تسبك في نار أو تطرق بآلة ، وقد نقر فيها ثقب ، وهي مربطة لفرس الملك ، وهي من الأشيا المغربة التي ليست عند غيره ... وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان) .

الزجاجية ، يرجح أنها كانت تستعمل لوزن الذهب ، كما عثروا على بقايا من الفخار وعلى سبع وسبعين قطعة من الحجر المزين بالألوان ، كان على ثلاث وخمسين منها آيات من القرآن كتبت بالحروف العربية [1] . وهذا ما دفعوني إلى القول : (إن حضارة غانا كانت قد بلغت مستوى رفيعا في الناحيتين الزراعية والصناعية) .

ولكن الازدهار المادي غير كاف وحده للدلالة على الرقي الذي يجب أن نلاحظه أيضا في بقية الجوانب الحضارية والخلقية ، لكي نقتنع بعلو كعب أمة ما وسلامة بنيانها ، ولدى مملكة غانا قد يجد الباحث علامات أخرى في هذا المجال إلى جانب الازدهار المادي ، فمن ذلك ما ذكره الشريف الإدريسي مثلا من أن ملك غانا كان من (أعدل الناس فيما يحكى عنه ، ومن سيرته أن له جملة قواد يركبون الى قصره في كل صباح .. فإذا اجتمع إليه قواده ، ركب وسار يمشي في أزقة المدينة وسائر البلد ، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له ، فلا يزال حاضرا بين يديه ، حتى يقضي مظلمته ، ثم يرجع إلى قصره [2] وهو يفعل ذلك مرتين ، المرة الأولى قبل الظهيرة والمرة الثانية بعد الظهيرة أما القواد فيسيرون إلى أعمالهم بالقصر الملكي في الصباح والطبول تضرب من حولهم ، والملك لا يسير أمام الملأ إلا في موكب حافل تمشي أمامه فيه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش ، كما أنه لا يظهر أمام الرعية أو كبار الموظفين إلا في زيه الرسمي ، حيث يوجد له (حلية حسنة وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده) [3] .

ومن هذا يتبين أن ملوك غانا إنما توصلوا لإقامة دعائم دولتهم والتمكين لاستمرارها بعدة أمور ، يمكن إجمالها فيما يلي :

أ — تنظيمهم لمداخيل الخزينة .

---

(1) دافدسن – إفريقيا : ص 141 .

(2) الشريف الإدريسي وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق) صححه ونشره هنري بيريس طبعة الجزائر 1957 ص 8 .

(3) نفس المصدر .

ب – اعتمادهم على جيش دائم وآخر احتياطي .

جـ – سهرهم على اقتصاد البلاد .

د – عدلهم بين الرعية .

هـ – حرصهم على النظام الأبية لما لها من أثر في إشاعة أسباب الهيبة والاحترام بين مواطنيهم .

ولا تزال أبحاث المؤرخين لم تصل بعد إلى معرفة الأسباب الحقيقية لضعف مملكة غانا في آخر أيامها ، سوى هجوم المرابطين الذين هاجموا المملكة سنة 1054 واستولوا على مدينة « أودغست » سنة 1055 م ، ثاني مدينة هامة في مملكة غانا . أما العاصمة (كومبي صالح) فلم يستولوا عليها إلا في سنة 1067 [1] . وقد نتج عن الفتح المرابطي انتشار الإسلام في غانا ، وبعد هذه النتيجة انسحب المرابطون تاركين الحكم بيد الملوك القدماء ، غير أن عظمة غانا وسيطرتها على الأقاليم المجاورة ، لم تدم مدة طويلة بعد ذلك بل استقلت عنها تلك الأقاليم شيئاً فشيئاً ، ثم سقطت العاصمة (كومبي صالح) في أيدي حكام قبائل (السوسو) من مملكة مالي المجاورة ، وكان ذلك في سنة 1240 للميلاد .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مملكة مالي هي المسيطرة في المنطقة ، وأصبحت غانا مجرد اسم لامع لأول إمبراطورية سوداء نمت في ظلها حضارة مشرقة ، ثم أطلق الوطنيون اسمها على (ساحل الذهب) المستعمرة البريطانية ، حينما استقلت عن بريطانيا سنة 1957 وذلك بالرغم من أن مملكة غانا القديمة لم يكن نفوذها يشمل أبداً أراضي ساحل الذهب التي تدعى حاليا (جمهورية غانا) ، وهذا يدل على أن هذه التسمية لم تكن سوى تخليد لاسم مملكة إفريقية عظيمة ، كان لها في تاريخ إفريقيا الغربية مكانتها اللائقة بها ، ولا تزال إنجازاتها في ميدان الحضارة الإفريقية تستدعي من الإفريقيين التقدير والاحترام .

---

(1) انظر هوبير دي شب ، إفريقيا الغربية قبل عهد الاستعمار (الأوروبي) ص 8 .

3 – إمبراطورية مالي

امتد حكم الإمبراطورية التي شكلها شعب الماندينغو المعروف بهذا الاسم على جمهورية مالي الحالية وعلى السنغال الشرقي وشمالي غينيا وشمال كل من فولتا العليا والداهومي والجنوب الأقصى من جمهورية موريطانيا [1] بعضا ما جعل بعض المؤرخين العرب [2] ، يقدرون طولها بمسير أربعة أشهر (من الغرب إلى الشرق) ، وعرضها بمسير ثلاثة أشهر (من الشمال إلى الجنوب) .

ويتفق الباحثون حاليا ، على أن جمهورية مالي ، كانت في أيام عزها من أكبر الإمبراطوريات اتساعا في إفريقيا الغربية .

وقد كان شعب الماندينغو من بين أوائل الشعوب في غربي إفريقيا ، التي اعتنقت الإسلام ، وكان في البداية يدين بالولاء لمملكة غانا ، وعندما انهارت غانا أمام هجمات السوسو الوثنيين ، تصدى شعب الماندينغو بقيادة زعمائه للوقوف في وجوههم ، فتمكن من الانتصار عليهم بقيادة الزعيم سوندياتا كيتا في معركة كيرينا حوالي عام 1235 م [3] ، ولا يعتبر هذا التاريخ بداية مملكة مالي ، ولكنه يعتبر بداية انتشار سلطانها على كل إفريقيا الغربية وبداية نشوء الإمبراطورية المالية .

وقد مرت إمبراطورية مالي بثلاثة أدوار بارزة هي :

(1) دور التأسيس : يمتد بين 1225 و 1455 ، وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانا القديمة التي ألحقت بمالي نهائيا سنة 1240 م ، كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي الفوتاجالون .

وفي هذا العهد اتخذ أمراء الماندينغو لقب منسا (أي السلطان) لأول مرة وبدأوا

---

(1) تيم (مدخل لتاريخ إفريقيا الغربية) لندن 1956 ص 30 .
(2) العمري (1342 – 46) ، أبو الفداء (1231 – 1273) وغيرهما .
(3) فلاح ، نعيم (إفريقيا الغربية) مطبعة الوحدة (دمشق) 1962 ص 56 .

في تنظيم إمبراطوريتهم . ففي البداية بنيت عاصمة « قارة » للإمبراطورية هي مدينة نياني على شاطيء نهر السانكاراني (في شمال شرقي غينيا الحالية)، وهو أحد الروافد الهامة للنيجر .[1]

ثم قسمت الإمبراطورية إلى مقاطعات ولي عليها أفراد من العائلة الملكية وجعل حكمها وراثيا فيهم .

وقد اتبع ملوك مالي سياسة الصداقة والمصاهرة مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم فانقادت لهم[2] .

أما في ميدان التنظيم الاقتصادي ، فقد عمل حكام مالي على تشجيع زراعة القطن[3] ونظموا جباية الضرائب على الواردات والصادرات على غرار ما كان في مملكة غانا ولكن أسلوبهم كان أكثر إحكاما .

(2) دور الازدهار والقوة : وقد استمر طيلة القرن الرابع عشر تقريبا ، فعم الأمن كل جهات الإمبراطورية وازدهر اقتصادها ، وتعود عوامل ذلك الازدهار الذي رأته إمبراطورية مالي في تلك الفترة إلى :

أ – انتظام المؤسسات الإدارية، حيث أن الطريقة التي اتبعها حكام مالي منذ البداية كانت تعتمد على رؤساء القبائل بالدرجة الأولى ، فما فتح جيش مالي منطقة إلا وعهد بإدارتها إلى العائلات المتنفذة فيها من قبل ، وكان الملوك يأخذون أبناءهم كرهائن ، يبقون في قصورهم طيلة الفترة التي يكون فيها آباؤهم في الحكم، وبهذه الطريقة كانت القبائل لا تكاد تشعر ، بحكم أجنبي مباشر عليها ، فانعدمت الثورات والقلاقل في هذه الحقبة تقريبا .

ب – اجتهاد حكام مالي في إقامة الأمن ، فجاب التجار أقاصي المملكة ،

---

(1) كورنو فان (تاريخ إفريقيا) ج 1 ، بايو (باريس) 1962 ص 248 .
(2) المصدر نفسه ص 250 .
(3) المصدر نفسه ص 251 .

وتوافد عليها الرأسمال الأجنبي ، وخاصة من المغرب ومصر ، وكانت الحكومة تجبي ضرائب منتظمة ومحددة على الواردات والصادرات ، فكثر المال بيد الحكومة وامتلأت خزائنها ، مما ساعدها على تكوين جيش قوي ، على الإنفاق على مختلف المشاريع بسخاء ، فعمت شهرتها الآفاق[1] .

أما جيش مالي فقد أصبح في هذه الفترة أقوى جيش في إفريقيا الغربية كلها وبعد أن فتح مناطق واسعة في الغرب حتى الأطلسي ،توسع باتجاه الشرق،وفي أثناء غياب كانكان موسى وصلت حدود مملكته في الناحية الشرقية إلى مشارف بحيرة تشاد ، وقبل وصوله إلى العاصمة نياني وهو عائد من الحج ، قدم له أمير جيشه (سقمان دير) سنة 1325 بلاد سنغاي كهدية ، واستقبله أمراؤها فقدموا له فروض الطاعة ، وكان ممن أخذه من أبنائهم كرهينة (علي بير) الذي سيثور على مالي فيما بعد ، ويعتق سنغاي من حكمها .

وبعد أن توقفت الفتوحات ، انصب اهتمام خلفاء كانكان موسى وأشهرهم بكاري الثاني على اختراق المحيط الأطلسي ، ويقول العمري إن هذه المحاولة التي جرت مرتين بأمر من بكاري وتحت إشرافه كلفت الخزينة كثيراً من الأموال وأكثر من ثلاثمائة سفينة .

وفي هذه الفترة أيضاً ، ربطت مالي علاقات دبلوماسية نشيطة مع بلدان

---

(1) في هذه الفترة (1324) حج كانكان موسى من أعظم ملوك مالي المعروفين ، ومر في طريقه إلى الحج بالقاهرة ، فانخفضت قيمة الذهب بأسواقها 6 ٪ وذلك لكثرة ما أنفق في شراء الكتب والهدايا والجواري ، أما في مكة فقد أنفق عشرين ألف قطعة من الذهب ، وبلغت أحمال القوافل التى تجهز إلى مالي سنويا من منطقة ورجلان (ورفلة) وحدها اثني عشر ألفا . وعند عودة كانكان موسي من حجه اصطحب معه الشاعر المهندس أبا إسحاق إبراهيم الساحلي، الذي يقال إنه أدخل الطراز الأندلسي إلى مالي ببنائه المساجد في تمبكتو ونياني فدفع له اثني عشر ألف مثقال من الذهب . انظر مونتاي ، إمبراطوريات مالي ص 20 .

المغرب [1] ومصر ، كما اتصلت لأول مرة بالبرتغاليين ، [2] ، أما جمهوريات إيطاليا فإنها ما انفكت تطمح إلى الاتصال بمالي الغنية عن طريق المغرب ولكنها لم تتوفق في الوصول إلى أهدافها بشكل مباشر على ما يبدو [3] .

(3) دور الضعف : دخلت مملكة مالي في طور الضعف منذ بداية القرن الخامس عشر ، واستمرت تعاني من الاضطرابات التي ما فتىء المتنافسون على العرش من بين أفراد الأسرة الحاكمة يثيرونها ، مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الإمبراطورية قبل ذلك ، ومع بداية القرن السادس عشر ، اقتطعت منها مناطق شاسعة في الشرق والشمال والجنوب فأصبحت عبارة عن مملكة صغيرة بين ممالك جديدة ناشئة في عدة جهات من أراضي الإمبراطورية قبل ذلك [4] . وفي النصف الثاني من

---

(1) أرسل كانكان موسى وفداً ليهنىء سلطان المغرب (أبو الحسن 1331 – 1351) حينما انتصر على مملكة تلمسان ، وسجل لنا ابن خلدون عدة سفارات مالية قدمت على مراكش ، فاستقبلت بحفاوة بالغة ، وكانت تحمل معها هدايا من الزراف (ابن خلدون التاريخ ج 5 ص 144) بيروت 67.

(2) دولافوس (أعالي السنغال) ج 1 ، ص 80 .

(3) في هذه الحقبة قدم التاجر والرحالة الإيطالي (مالفانت) بقصد الوصول إلى مالي عن طريق توات ، ولكنه لم يوفق ، فسجل لنا في مذكراته تلهف الجمهوريات الإيطالية للاتصال بمالي والتعاون معها ، وذلك لما اشتهرت به من غنى وذهب كثير .

(4) يرجع شارل مونتيل (إمبراطوريات مالي – ميزو ناف (باريس) (68 م ص 143) أسباب ضعف مالي وسقوطها إلى العوامل التالية ، 1 – استيلاء الطوارق على تمبكتو وجني (وهما من أهم مراكز التجارة في البلاد) . 2 – خروج بعض المناجم الهامة من يد الحكومة مثل مناجم النحاس في تكدة ، 3 – التنازع على العرش الذي كلف البلاد كثيراً من المشاق ، 4 – هجوم قبائل الموسي الوثنية من الجنوب وقبائل الأولوف من الغرب وقبائل سنغاي من الشرق والطوارق من الشمال . وهذه تعليلات وجيهة لاعتمادها على الواقع بدون شك ، إلا أن ما ذكره ابن بطوطة (الرحلة – ص 260) من تفشي سوء الأخلاق بين الموظفين الكبار وخاصة القضاة ، يمكن أن يعتبر من بين الأسباب الوجيهة في الموضوع . أما انغماس الحكام في الملذات من جراء الازدهار الذي رأته الإمبراطورية وتوافر الأموال بأيديهم كنتيجة لذلك ، فهو سبب رئيسي أيضا ، لأنه أقعدهم عن الاهتمام اللازم بتسيير إمبراطوريتهم كما كان يفعل أسلافهم ، وهذا ما جعل حكام الأقاليم يستقلون بنواحيهم ، حين ضعفت السلطة المركزية ، وبذلك تقلصت حدود الإمبراطورية ، وتوالت عليها عوامل الضعف حتى سقطت .

القرن السادس عشر ، تمكنت إحدى تلك الممالك الناشئة وهي مملكة سنغاي أن تبسط نفوذها نهائيا على أراضي الإمبراطورية الحالية جميعها ، وتقيم على أنقاضها إمبراطورية جديدة ، أخذت في البداية عن مالي كثيرا من أنظمتها الإداريـــة والاجتماعية ، ولكنها كانت أكثر منها تفتحا على الخارج ، وكان ملوكها في البداية أكثر نشاطا وجرأة على استهداف التطور ، فنالت من أسباب القوة والازدهار أكثر مما وصلت إليه مالي ، كما سنرى في الفصول القادمة .

4 ـ نظرة على دولة سنغاي قبل الأسقيين

تأسست دولة سنغاي[1] في القرن السابع الميلادي ، واستمرت تقوى باستمرار وتتوسع ، حتى القرن السادس عشر ، حيث دخلت في طور الضعف نتيجة لانهماك الأمراء المتأخرين في المنازعات العائلية التي أعاقتهم عن الاهتمام بشؤون الدولة وخدمة البلاد ، كما كلفت الخزينة مصاريف باهظة ، أضعفتها ، وقد رافق ذلك انقسام في الاراء والاتجاهات بين السنغائيين ، نتجت مباشرة عن ذلك النزاع المستمر على الحكم بين الأساقي ، فكان لكل واحد منهم أنصار وأتباع بين أهل سنغاي ، فنشأت عوامل التصدع في الرأي ، وكان ذلك من أبرز مظاهر الضعف الذي استمر ينخر في جسم المملكة ويسير بها نحو الهاوية ، حتى نهاية القرن السادس عشر ، حيث انتهى وجودها بحملة المغاربة على البلاد سنة 1591 .

وقد أصبحت مدينة غاو هي العاصمة منذ القرن الحادي عشر فقط (1009 للميلاد) أما قبل ذلك فقد كانت العاصمة هي مدينة كوكيا على نهر النيجر

---

(1) نسبة إلى قبيلة سنغاي ، وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد ، ثم أخذت تنتقل إلى الشمال مع النيجر ، وفي القرن السابع الميلادي كانت تمتد مساكنها حول النيجر بحوالي 150 كلم . وتمتهن صيد الأسماك وزراعة الدخن ، وفي هذا الوقت بدأ انتظام شعبها تحت سلطة واحدة . أما الآن فإن السنغائيين يبلغ تعدادهم حوالي 650000 نسمة ، ويتوزعون بين جمهورية النيجر ومالي ، في المناطق المحيطة بغاو ، وتوجد أقليات منهم في أغدس وتمبكتو وجني وهناك أقلية ضئيلة منهم في شمال الداهومي أيضا .





الأدنى بين غاو الحالية وتيلا بيري ، وهي لا تبعد عن غاو سوى بحوالي مائة وخمسين كيلومتراً الى جهة الجنوب . وقد حكمت سنغاي في البداية عائلة ضياء ، وهي عائلة يظن أنها قدمت من منطقة طرابلس الحالية وفيها كانت تتزعم قبائل لمته وهوارة ، ثم انتقلت هذه القبائل وسكنت جهات النيجر في زمن قديم ، ومنها انحدرت عائلة ضياء هذه وهي التي حكمت سنغاي حتى عام 1335 (1)

ثم انتقل الحكم بعدها إلى عائلة سني التي حكمت بين 1335 و 1493 . وعائلة سني هي فرع من عائلة ضياء الأمازيغية الطرابلسية ، السابقة الذكر ، وقد تولت الحكم عندما استقل بسنغاي علي كلن في عام 1335 وفصلها عن مالي ، إذ أن إمبراطورية مالي في أيام توسعها كان سلطانها قد شمل بلاد سنغاي منذ سنة 1325 ، فلما كانت سنة 1335 استقل علي كلن هذا بسنغاي عن مالي تحت اسم سني علي (2) وكان قبل ذلك يعيش في قصر إمبراطور مالي، حيث أنه كان قد أخذ كرهينة ، فكان ذلك دليلا ماديا على خضوع أسرة ضياء لسلطان مالي على عاداتهم في ذلك الوقت.

وسني علي هذا الذي جاء بآل سني إلى الحكم هو ابن ضياء أسيباي آخر أمراء سنغاي قبل آل سني .

وقد حكم من أسرة سني ثمانية عشر أميراً ، منهم ، 1 – علي كلن ، 2 – سليمان نار ، 3 – إبراهيم كاباي ، 4 – عثمان كانافا ، 5 – باري كينا ، 6 – محمد دع ، 7 – محمد كونيجيا ، 8 – محمد فاري ، 9 – كاربيفو ، 10 – مارفي كول ، 11 – ماري هاي ، 12 – ماردانو ، 13 – سليمان دام ، 14 – علي بير ، 15 – باري دع .

ومنذ عهد علي بير (الكبير) الذي حكم البلاد بين 1465 و 1492 دخلت

(1) كورنوفان ص 204 .

(2) تدعى هذه العائلة بلسان سنغاي (أيون) أما لفظة سني فقد أطلقها عدد من المؤرخين الذين كانوا قد كتبوا بالعربية تاريخ البلاد ، ثم شاع استعمالها لدى غيرهم ، ولا ندري كيف جاءت هذه التسمية ، إذ أن هناك فروقا بين لفظة أيون وسني ، رغم إمكانيات التقارب بينهما في النطق .

سنغاي في طور الإمبراطورية ، حيث وسع هذا الملك حدود دولته على حساب القبائل المجاورة .

ثم اتسعت إمبراطورية سنغاي أكثر خلال عهد الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي أنهى حكم آل سني بثورة قام بها عقب وفاة سني علي مباشرة سنة 1493 .

ويعتبر تسنم الأسقيا محمد عرش سنغاي بداية عهد انتظام المملكة وبداية حكم التكروريين [1] في البلاد ، ولذا فقد اقترن ذلك الحادث بفرح عم غالبية سكان بلاد سنغاي ، كما سنرى في الفصل التالي .

(1) كلمة التكرور ، أصل إطلاقها كان على منطقة السنغال الشرقية حاليا ، وربما من أيام المرابطين ثم عم إطلاقها – خارج بلاد السودان – على السودان الغربي كله .

وأصل الأساقي من السراكوليين الذين كانوا قد هربوا أمام الغزو المرابطي في القرن الحادي عشر من جنوب موريطانيا الحالية (منطقة الحوض) . ثم تفرقوا في جهات عديدة من السودان الغربي على أن جلهم تركز حول نهر النيجر واختلط بقبائله .

الباب الأول

الحياة السياسية والإدارية

الفصل الأول

التطوّر السّياسي لمملكة سنغاي على أيام الأسيقيّين

بالرغم من أن عائلة الأسقيا السونكيين ، لم تحكم سنغاي أكثر من قرن واحد (1493 – 1591) ، لكنهم وصلوا بالمملكة من حيث القوة والتوسع إلى الحد الذي لم تصله لا من قبلهم ولا من بعدهم أيضا. وقد توالى على كرسي الإمبراطورية في هذه الفترة تسعة ملوك سنتابع فيما يلي الحديث عن الإنجازات والأعمال التي رأتها مملكة سنغاي في عهد كل واحد منهم .

1 – عهد محمد الأول (الكبير)

أ – التنظيمات الإدارية :

صعد محمد الأول الكبير (الحاج فيما بعد) إلى الحكم وعمره خمسون سنة وحكم سنغاي بين 1493 و 1528 ، وقد كان قبل ذلك ضابطا بارزا من ضباط جيش سنغاي على أيام سني علي ، ثم ثار بمجرد موت سني علي وتولي ابنه سني بارو الحكم . وقد حصلت المعركة الفاصلة بين أنصاره وأنصار سني بارو قرب العاصمة (غاو) في مكان يدعى « أنكو»ولما انكسر جيش الملك لاذ بالفرار من وجه

أنصار الأسقيا محمد والتجأ الى الجنوب الشرقي من البلاد [1] .

دخل محمد توري العاصمة منتصرا وسط جيشه الكبير ، فعكف منذ توليه الحكم على إعطاء البلاد مؤسسات قارة ، فأدخل على الحكومة كثيرا من الإصلاحات .

ويظهر أن مجيئه للحكم لقي صدى طيبا في البلاد لأنه كان سراكوليا سودانيا في حين أن سني علي لوبي الأصل كما أسلفنا ، وكان شديد البطش ، همه المعارك والفتح وكان قليل الاهتمام بما سوى ذلك . حيث أن محمداً الأول الكبير ، ظهر بمجرد تسنمه كرسي الرئاسة كثير الاهتمام بترضية الفقهاء والعامة المتصلة بهم .

وقد رأى الملك الجديد بنظرة فاحصة لواقع المملكة أن العاصمة تتطرف في الشرق في حين أن مناطق الغرب الواسعة والآهلة بالسكان تكاد تكون مهملة وبعيدة عن أثر الحكومة .

وهذا ما جعله يعمل بسرعة على تكوين نيابة للملك ، يكون مقرها وسط البلاد في تندرم ، وقد أسندها إلى أحد إخوته ، الذي كان قد عرف لديه بالإخلاص وحسن التبصر بالأمور وهو عمر كمزاغ [2] ولقد كان ذلك من أهم الانجازات التي قام بها الأسقيا الكبير في وقت قصير منذ توليه الحكم في سنغاي .

وبعد هذا رأى الحاج محمد الأول أن الجيش لا يزال في شكله القبلي الأول . رغم القوة الظاهرية التي كان يبدو فيها ، فعمد إلى جعل الخدمة في الجيش لا يقوم بها إلا الأفراد الذين يعملون به باستمرار ، وبهذا فصله عن المدنيين ، ولكنه

(1) هرب سني بارو إلى مكان يدعى (أيورو) في منطقة جرمه التي كانت ولا تزال منطقة قبيلة سنغاي الأصلية منذ القديم ، وقد اعتصم بذلك المكان حتى مات .

(2) في هذا المقام يرى بيرود (إمبراطورية غاو ، باريس 1942 ، ص 62) أن كلمة التكرور ظهرت في تلك المناسبة كاصطلاح يعني به البلاد الواقعة غربي غاو ، بعد أن صعد محمد الكبير إلى الحكم وأوجد نيابة ملكية في (إقليم التكرور) – وهذا لا يبين عن الدقة لأن الكلمة كانت قد استعملت منذ أيام مالي قبل سنغاي .

جعل الانخراط فيه ممكنا لكل الأشخاص في المملكة ، حينما يرغبون التطوع في صفوفه سواء كانوا من قبيلة سنغاي أو من غيرها ، وسواء كانوا عبيداً أو أحرارا .

وقد لاقى الأسقيا محمد الكبير معارضة شديدة من طرف وجهاء سنغاي لمشاريعه التحررية وإنجازاته ، ولما تفاقم الأمر بينه وبينهم احتكم إلى السلاح ، ولم يقبل أبدا التراجع فوقعت بين الطرفين معركة بركو (في شمال الداهومي حاليا) وكانت معركة فظيعة قتل فيها عدد كبير من السنغائيين وأنصار العهد السابق ، مما دفع أخاه ونائبه عمر كمزاغ إلى التأسف وإبداء التذمر لكثرة ما فقد من قبيلة سنغاي ، إذ ربما أدى ذلك حسب رأيه إلى إضعافها وهي أساس قيام المملكة من البداية ، ولكن الحاج الكبير طمأن أخاه ، بأن الأمور لن تصلح بغير هذا العمل ، وأن هذا العمل ليس إلا انتصار السنغاي على متناقضاتها وشدة استئثارها دون بقية الشعوب التي تتكون منها المملكة [1] .

وفي غير ذلك لقيت أعمال محمد الكبير في إشاعة العدالة بين مناطق البلاد وشعوبها صدى طيبا ، وخاصة في وسط الإمبراطورية وغربها . [2]

(1) عبد الرحمن السعدي (تاريخ السودان) تحقيق هوداس باريس 1913 ص 226 .

(2) يذهب الحسن الوزاني (ليون الإفريقي) في كتابه (وصف إفريقيا) باريس 1889 ج 3 ص 293 إلى أن محمداً الحاج كان العدو اللدود لليهود ، وقد منع التجار الأجانب من التعامل معهم ، وكانوا يسكنون غرب الإمبراطورية وشمالها ، مما يتناقض مع رأينا في الفرح الذي عم سكان الإمبراطورية جميعا من نزعته للعدل بينهم .

ولكن رأي الحسن الوزاني مبالغ فيه كما يبدو ، إذ أن الإمام المغيلي اتصل بالأسقيا محمد حوالي سنة 1502 لما قتل اليهود ابنه في توات وطلب منه التضييق على التواتيين لتعاملهم مع اليهود فلم يرفض الأسقيا الاستجابة لطلب المغيلي ، ولكنه تريث بعض الشيء ، فلما عزم على التنفيذ ، تدخل العلماء والأعيان في سنغاي ، ولم تنفذ المضايقة على التواتيين المقيمين بالبلاد .

ويظهر أن هذا كان لسبب اقتصادي ، إذ أن قسما كبيرا من قوافل التجار كان يمر بتوات ، ولا شك أن العداوة بين توات وغاو إن حصلت كان ينتج عنها تأثير سيء في تجارة سنغاي ، ولهذا تدخل أعيانها ، ولم يقدم الملك على إلقاء القبض على التواتيين إلا ظاهريا فقط ، أما اليهود فلم نسمع بأية إجراءات اتخذت ضدهم سوى ما ذكره الحسن الوزاني ويظهر أن كلامه استند فيه إلى=

وبعد هذا رأى الأسقيا الكبير أن البلاد رغم اتساعها ، لم يوجد بها بعد تنظيم إداري محكم يمكنها من الاستمرار ، فعمد إلى تنظيمها على المستوى الإقليمي ، وألغى بذلك الطريقة القديمة في توكيل رؤساء القبائل مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن ، فقسم الإمبراطورية إلى ولايات ، وعهد بكل ولاية منها إلى والٍ معتمد من العاصمة مباشرة ، وقد اختار الولاة في عهده ، من بين أقربائه وعبيده المخلصين له ، ثم بقي ذلك التقسيم كما بقيت تلك السنة هي السائدة في تعيين الولاة واختيارهم طيلة أيام خلفائه من الأساقي بعده ، وهذه الولايات هي :

(1) ولاية كورما ، وهي ولاية غربي النيجر ، وكان واليها في البداية يقيم في غاو ثم أصبح يقيم بعد ذلك في تنديرما . وكان حاكمها يعتبر ممثل الحكومة في الغرب كله ولذلك كانت له صفة الامتياز على كل الحكام في الغرب ، وربما كانوا يتلقون الأوامر عن طريقه .

(2) ولاية بالاما ، وهي تقع على حدود بلاد الموسي ، في الجنوب الغربي من الإمبراطورية .

(3) ولاية دندي ، وهي تقع إلى الجنوب من العاصمة ، وكانت قصبتها مدينة جوجيا

(4) ولاية بانجو ، (حول بحيرة ديبو) ، وبالنظر لأن هذا الإقليم تقع فيه مدن العلم والتجارة الهامة في سنغاي ، فقد كان حاكمه هو الوحيد الذي يدخل العاصمة بفرقته الخاصة من ضاربي الطنبور .

(5) ولاية هاريباندا ، وإقليم هذه الولاية يقع على ضفة نهر النيجر اليمنى المواجهة للعاصمة غاو .

= العلاقة الطيبة بين المغيلي ومحمد الكبير فقط ، ولذا لم يأت بعينات دقيقة ، كعادته دائما ، في هذا الموضوع .

وحتى في حالة استثناء محمد الكبير لليهود من العدل الذي حرص على توفيره أمام الجميع ، فإن هذا لا يتناقض أبدا مع كلامنا السابق ، لأن اليهود في المملكة لم يكونوا سوى أقلية ضئيلة في البلاد .

(6) رئاسة نهر النيجر ، وكان يشرف عليها قائد الأسطول وتسمى وظيفته الإدارية هي كوي .

وبعد أن أتم الأسقيا الكبير تنظيم الإمبراطورية على المستوى الإقليمي ، ركز مجهوداته على إيجاد وظائف للمراقبين والمفتشين ، حتى يمكن للمملكة أن تسير شؤونها الإدارية وفق قوانين ثابتة ، فأوجد المناصب القارة في سنغاي لأول مرة ، وعهد بها إلى أشخاص اختارهم من بين أقرب مساعديه ، كما حدد لكل منهم اختصاصات عمله بدقة وهذه المناصب كما يستطيع أن يتبينها الباحث هي :

(1) مفتشية الضرائب العامة [1] ، وكانت وظيفة صاحبها الإدارية تسمى (موندي)

(2) الإشراف على الشؤون القبلية [2] ، وتدعى وظيفة صاحبها الإدارية (كوري فاريما) [3]

(3) المشرف على الغابات ، وكانت سلطته تشمل قطع الأخشاب لبناء السفن كما تمتد إلى مراقبة الصيادين ، وتدعى وظيفة صاحبها الإدارية (ساوفاريما)

(4) وبعد هذا ، بعث محمد الكبير لكل مدينة كبيرة في المملكة بحاكم عام تشبه وظيفته وظيفة شيخ البلدية على أيامنا ، لأنه كان يتعامل مع الأهالي والقضاة على حل مشاكل المدينة ويراقب السوق ، وأهم المدن التي استطعنا أن نتبين وجود

---

(1) كان لمفتش الضرائب أعوان منتشرون في جميع أسواق البلاد وعلى الحدود ، حيث يستقبلون القوافل القادمة للبلاد والعائدة منها ، ويأخذون على كل بضاعة رسمها المقرر .

(2) لقد كان يوجد في سنغاي عديد من القبائل ، وكل منها لها تقاليدها الخاصة ، ويظهر أن حرص الحاج محمد الكبير الذي عرف به فيما يتعلق بالعمل على إشاعة عوامل الوئام والوحدة بين سكان مملكة سنغاي كلهم ، هي التي دفعته إلى إحداث هذه الوظيفة منذ بداية حكمه ، وقد حافظ على وجودها خلفاؤه من بعده .

(3) لقد وجدت هذه الوظيفة عند الأتراك في نفس الفترة تقريبا وقد اختلفت تسمياتها لديهم حسب البلدان التي حكموها . أنظر كتابنا (التاريخ الحديث). نشر المعهد التربوي الوطني بالجزائر سنة 1968 ص 209 .

حاكم عليها من هذا النوع هي ، تمبكتو – ديرما – بارا – جني .

وبالإضافة إلى كل هذا ، عين محمد الكبير لكل موظف سام في المملكة دوره ومكانه في حاشية الملك ، أثناء المناسبات والأعياد وخروج الملك من القصر لسبب من الأسباب .

ويظهر من كل ذلك أن محمدا الكبير ، كان قد رأى منذ تسلمه الحكم أنه لم يستحقه بوراثة ولا بحسب ، وإنما بالثورة ، ولذا فإن عليه أن يثبت جدارته بالأعمال لكي ينقاد الناس له ، وهذا ما نستطيع أن نفهمه من عبارة كعت محمود (إن الأسقيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس وكل دولة أخرى غيرها [1]) .

ولكن فوق هذا كان لهذه التنظيمات الأثر الأكبر في استمرار مملكة سنغاي بعد الأسقيا محمد رغم الأزمات المتتالية التي رأتها ورغم انهماك سلاطينها في الإخلاد إلى الملاذ ، وانشغالهم بذلك عن أمور تسيير مملكتهم والسهر على تقويتها .

أما الأسقيا محمد ، فلا يبدو أنه كان يستهدف سوى التمكين لحكمه وإحراز رضا سكان مملكته، ولذا فإنه ما أن اطمأن إلى أن جهوده في تنظيم المملكة قد بلغت غايتها حتى قرر السفر إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، والاطلاع على أحوال ممالك المشرق وطرق تسييرها ، وبذلك يضمن في أعين شعبه الأمور المعنوية من وراء الحج ، ثم يكتسب خبرات أخرى من مشاهداته للممالك في الشرق .

وقد عهد الأسقيا محمد الأول إلى أخيه عمر كمزاغ ليخلفه أثناء غيابه ، ويقوم مقامه بجميع صلاحياته ، بالإضافة إلى عمله الأساسي كنائب له على أقاليم الغرب ، ثم توجه إلى الديار المقدسة سنة 1495 .

وقد حرص على أن يأخذ معه إلى الحج جمعا كبيرا من العلماء والأعيان ليظهر بذلك أمام العامة في مظهر الملك الصالح القوي ، أما جملة من كان في موكبه من العبيد وجملة الدواب التي كانت تحمل الأمتعة والذهب ، فقد كانت على غاية من

(1) محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، تحقيق هوداس (ميزو ناف – باريس) 1964 ص 22 .

الضخامة التي وصل صداها لجميع بلاد سنغاي .

وفي كل بلد يمر به كان يستأذن في الدخول من أميرها ، ثم ينفق بسخاء لم تعرف تلك البلدان مثيله [1] .

فقد أنفق الأسقيا الكبير في حجه ثلاثمائة ألف [2] قطعة من الذهب الخالص ولكن كلها كان قد أخذها من خزينة سني علي بعد أن انتصر على ابنه سني بارو .

وقد أنفق منها مائة ألف لتكاليف سفره مع حاشيته ، وأنفق منها مائة ألف أخرى كصدقات لفقراء مكة والمدينة ، كما اشترى منها قطعة أرض ومبنى يأوي إليه حجيج بلاد السودان الغربي ، أما المائة الباقية فقد أنفقها في شراء حاجات وهدايا من أسواق مكة والقاهرة .

وقد بلغ الأسقيا من نفقاته هذه ومن الأبهة التي أراد أن يظهر بها في المشرق كل أهدافه ، فاستقبل في القاهرة استقبالا رسميا حافلا ، أما في مكة ، فقد قلده شريفها بردة وعمامة وسيفا ، ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم خلالها من آخر الأمراء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد السودان .

وهكذا فإنه لما رجع لسنغاي ، كانت جميع الاعتبارات الأدبية لاستمراره في الحكم عن جدارة واستحقاق قد اكتملت له في أعين رعاياه ، وأهم من ذلك أنه اطلع على سير الممالك وأنظمتها في المشرق ، ولعله لم يلاحظ ما يستحق الاهتمام . ولذلك فإنه انصرف إلى الفتح والتوسع بمجرد رجوعه ، ولم يدخل على مملكته شيئاً جديدا من التنظيم .

(1) للاطلاع على مدى الأثر الذي أحدثته كثرة النفقات التي كان ينفقها ملوك السودان الغربي في المشرق ، يراجع ابن أياس والمقريزي بشكل خاص .

(2) أنفق كنكان موسى ملك مالي قبل محمد الكبير ثلاثين ألف قطعة ذهب فقط أي أن نفقات الأسقيا زادت عن نفقات كنكان موسى بمقدار تسعين بالمائة ، ومع ذلك فيذكر المؤرخون من ذلك العهد أن سعر الذهب كان قد نزل بأسواق القاهرة لكثرة ما أنفق منه فيها كنكان موسى بمقدار ستة بالمائة . أنظر مونتاي – ص 39 .

ب ـ الفتوحات :

عاد الأسقيا الحاج محمد الأول من حجه سنة 1497 ، وما أن استقر به المقام حتى بدأ في الإعداد للغزو والفتح ، بعد أن أنس في جيشه القوة وفي مملكته الاستقرار . فبدأ منذ عودته من السفر عهد الفتوحات على أيامه .

وقد بدأ هذا العهد بتوجيه عدة حملات قوية على بلاد الموسي الوثنيين بين سنتي 1497 و 1498 فخرب الكثير من حقولهم ومساكنهم والعديد من ذراريهم فأدخلهم الإسلام ، ولكنه لم ينجح في فرض سلطانه عليهم .[1]

وفي السنة التالية 1498 / 1499 جرد محمد الأول حملة ضد قسم من بلاد مالي كان يحكمها الوالي عثمان [2] ، وقد انتصر جيش سنغاي وضم مقاطعة باجانو إلى المملكة ، فاتسعت ناحية الغرب .

وفي السنة التالية 1499 / 1500 اتجه محمد الأول بجيشه نحو الشرق الجنوبي إلى منطقة (أيورو) حيث كان لا يزال يعتصم بها سي بارو مع أنصاره الذين يدعون (زابرما) [3] فانتصر عليهم ، وثبت حكم الأسيقيين على تلك المنطقة التي كانت في أيام سي علي تابعة لمملكة سنغاي ، ولكن أيام اعتلاء الأسقيا محمد الأول عرش سنغاي، اعتصم بها سي بارو مع أنصاره، وانقطع حكم الأسيقيين عليها ، وقد كان الجيش الذي أرسله محمد الأول لهذه المنطقة صغيرا ، ولم يجد مقاومة تذكر ، مما يدل على أن أنصار سي بارو كانوا قليلين جدا .

---

(1) أرسل في البداية رسولا إلى ملكهم يدعوه للإسلام ، فأبى بعد أن استشار على مرأى ومسمع من رسول الأسقيا ، كاهن معبدهم الوثني ، فأشار الأخير على ملك الموسي بعدم التحول عن دين آبائه وأجداده ، والدفاع دونه حتى الموت ، وهذا يدل على أن الحاج محمد الأول كان قد اتبع الطريقة الإسلامية في حربه مع الموسي .

(2) جاء في أسئلة الأسقيا محمد للمغيلي أن هناك أمراء يدعون الإسلام ، ولكنهم يسيرون في حكمهم بما يخالف الإسلام ، فأفتاه بجواز محاربتهم . (انظر مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5292) ورقة 9 .

(3) وهو اسم قبيلة .

وفي هذه الأثناء كان معظم جيش سنغاي مشتبكا في الغرب مع بقايا مملكة مالي وقد تمكن بين سنتي 1506 و 1512 من ضم كل بلاد مالي القديمة إلى مملكة سنغاي ، فبلغت حدودها مشارف المحيط .

وما أن انتهى محمد الأول من ضم مالي حتى اتجه نحو الشرق يريد ضم بلاد الحوصا ، وقد وصل جيشه إلى حدودها سنة 1513 فضم عددا من مدنها الهامة [1] .

وفي سنة 1515 كان جيش سنغاي قد اتجه نحو الشمال الشرقي من بلاد الحوصا وتوغل في بلاد الأير [2] ، وفرض على أميرها ألفا وخمسمائة وقية (دوقة) من الذهب ، كجباية سنوية تدفع لخزينة مملكة سنغاي . [3]

وهكذا ، ففي حين كانت مملكة سنغاي لم تتجاوز في الحقبة السابقة المناطق المحيطة بالنيجر الأوسط ومنحناه الأعلى ، رغم حروب سني علي المتواصلة ، نجد مملكة سنغاي تبلغ على أيام الأسقيا محمد الأول حدودها القصوى ، فتصل إلى بلاد الموسي والحوصا [3] في الجنوب ، وتلامس الصحراء في الشمال ، وتنتهي عند حدود درجتي 10 شمالا ، في الشرق وفي الغرب [4] .

---

(1) كانت بلاد الحوصا (نيجريا الشمالية الآن) في تلك الفترة تتكون من عدد من دويلات المدن على النظام الأوليجاركي ، كما كان عند الفينيقيين، وتباشر التجارة بالمنسوجات والعبيد على نطاق واسع . وأهمها كانت كاتسينا – كانو – وكانتاليكي عاصمة (إمارة الكبي)، وقد انضم إلى جيش سنغاي إثر ذلك جيش كنتا ، أثناء الهجوم على أغدس ببلاد الأير مما يدل على اعتراف كنتا بسلطان سنغاي أثناء ذلك .

(2) وهم من الطوارق .

(3) دولا فوس – أعالي السنغال – ج 2 ص 173 .

(3) عند حدود الداهومي وفولتا العليا حاليا .

(4) انظر خريطة سنغاي على أيام الأساقي في كتاب نيان وكنال ، وكذا خريطة فج في كتابه (المدخل لتاريخ إفريقيا الغربية) ثم خريطة دولا فوس في كتابه (أعلى السنغال والنيجر) ج 2 .

ج – نهاية عهد الحاج محمد الأول :

بلغت سنغاي في أيام الأسقيا الحاج محمد الأول قوتها التي لم تزد عليها بعده وأصبحت أكبر إمبراطورية في غربي إفريقية على الإطلاق ، سواء في المساحة والسكان أو في التنظيم والحضارة .

ومنذ سنة 1517 كان الحاج محمد الأول قد بلغ من الكبر عتيا [1] فتوقفت فتوحاته ، ولكنه بقي يراقب مملكته الواسعة في صبر وتأن ، وصادف في هذه الأثناء أن مرض بعينيه منذ سنة 1518 وفي تلك الفترة كان مساعدوه الأولون ورفقاؤه منذ البداية قد شاخوا أيضا ، فتوقف الجميع عند ذلك الحد من الإنجازات .

وكان الجيل الجديد من الأساقي في هذا الوقت ، وأغلبيتهم من أبناء الحاج محمد نفسه ، قد بلغ معظمهم سن الرشد ، الواحد بعد الآخر ، وكانت تحدوهم جميعا روح الوصول إلى الحكم بكل الطرق ، وكانت تتكون حول كل منهم جماعة من الأنصار والطامحين لفرص المستقبل في الوظيف السامي والحكم .

وهكذا بدأ التنافس بين أولاد الأسقيا الأول وهو حي ، وربما كان لذلك محتارا في كيفية الوصول إلى التمكين للاستقرار بعده في سنغاي ، ولذا فقد ظل لا يعهد بالسلطة في أي منصب لأحد من أولاده إلا بعد أن يختبره ويأنس فيه الحنكة ، دون النظر للسن أو لأي اعتبار آخر .

وبهذا الشكل فإنه لما توفي أخوه ونائبه في غورما عمر كمزاغ في سنة 1519 عهد بتلك الولاية لأخيه الصغير يحيى وقد أثار ذلك حفيظة ابنه الأسقيا موسى الذي كان قد رافق أباه قبل ذلك إلى الحج ، وكان يطمح إلى الحكم بعده .

---

(1) في سنة 1493 كان عمره خمسين سنة وبذا تصبح سنه سنة 1517 الرابعة والسبعين ، أما في عام 1528 وهي سنة تنازله عن السلطة فيكون عمره اثنين وثمانين سنة . وقد توفي سنة 1538 في أيام الأسقيا محمد الثاني وبداية عهد الأسقيا إسماعيل عن عمر يناهز 96 سنة .

وقد بدأ موسى منذ ذلك الحين يسعى للوصول إلى الحكم ، ويعمل لاحتلال مكانة أبيه بالقوة ، ولما وجد من يتآمر معه ويساعده ، فقد توصل سنة 1527 إلى إجبار علي فلن المستشار الأول للأسقيا محمد والمخلص الأمين له منذ أيام الصبا ، على مغادرة القصر [1] أما في السنة التالية 1528 فقد دخل موسى القصر بالقوة مع جماعة من أنصاره وأجبر أباه على التنازل عن الحكم لصالحه ، فما كان من الحاج محمد الأول إلا تنفيذ رغبة ابنه [2] .

2 – خلفاء محمد الأول

1 – الأسقيا موسى 1528 – 1531

بصعود موسى إلى الحكم بدأ عهد النزاع على كرسي المملكة وبدأت الفوضى والمؤامرات ، وبقيت هذه العوامل تنخر في جسم المملكة حتى أحالتها في الأخير إلى مجرد مظهر لمملكة كبيرة ، ولكن دون أن يكون لها من عوامل القوة والصلابة شيء ذو بال .

فمنذ صعود موسى عرف أن إخوته وأعمامه لا يضمر معظمهم له الإخلاص ، ولذا فقد جرد سيفه لتشتيت شملهم ، وقد حاربه خمسة منهم محاربة مستميتة ، ولكنه انتصر عليهم في الأخير ، والتجأ الناقمون على حكمه إلى النواحي الواقعة على الأطراف من مملكة سنغاي الواسعة ، هاربين بحياتهم .

ولهذا فقد قضى موسى سنوات حكمه القصيرة في نزاع مستمر مع أفراد عائلته وأنصار أبيه ، ولم ينجز شيئاً يستحق الذكر لصالح المملكة .

---

(1) كان علي فلن عبدا للأسقيا محمد الأول ، ولكنه لإخلاصه له أصبح من أمناء سره الأقربين وقد رافق الأسقيا في جميع أعماله وساعده .

(2) قيل إن موسى بعد أن دخل القصر بالقوة أحل لنفسه مع حاشيته وأنصاره حريم أبيه وسرياته ولم يعطه من ثيابه الخاصة على كثرتها (20 كيساً) إلا لباسا واحدا ، فدعا عليه أبوه بالويل والثبور . وقد مات موسى قتيلا برمح رماه به أحد إخوته الناقمين عليه فيما بعد .
(انظر الفتاش ، ص 148) .

2 ـ الأسقيا محمد الثاني 1531 ـ 1537

بايع جيش سنغاي الأسقيا محمد الثاني ، وهو في مدينة (منصور) [1] بعد موت موسى مباشرة ، ولكن (علي) الذي قتل موسى رفض الانصياع للملك الجديد ، لأنه اعتبر نفسه الأولى منه بالحكم ، ما دام هو الذي قتل موسى [2] إلا أن الملك الجديد استطاع أن يقضي أعوامه الستة في هدوء نسبي بعد أن تغلب على المصاعب التي أثارها أخوه في وجهه .

وقد كان محمد الثاني رزينا وعاقلا ، ولم يحارب إلا أمير الكوني [3] حين نقض هذا الأخير شروط الاتفاق الذي كان قد أبرمه مع الحاج محمد الأول .

وكان محمد الثاني يحب الرحلات ، فقام بتنقلات واسعة يحف به كبار القادة في جيشه ، ووصل إلى مختلف أنحاء المملكة بنفسه ، وقد نتج عن هذه الرحلات التي كان محمد الثاني يحرص على أن تكون في أبهى حلة يمكن أن تكون عليها أمام الرعية ، تعاظم مظاهر الفخامة في موكب الأساقي منذ ذلك الوقت ، أكثر من ذي قبل ، وقد رافق ذلك ازدهار الموسيقى كما تنوعت آلات الطرب .

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الجهود التي كان قد بذلها محمد الكبير في تنظيم المملكة واستقرارها ، قد بدأت تثمر بصورة طبيعية منذ أيام محمد الثاني .

وقد توفي محمد الثاني أيضا مقتولا من طرف أخيه وخلفه إسماعيل ، وذلك حينما كان في مدينة المنصور التي كان قد توج بها في الأول [4] .

---

(1) في إقليم جني .

(2) دولافوس – أهل السنغال والنيجر – باريس 1912 ، ج 2 ، ص 96 .

(3) في بلاد الحوصا (شمال نيجريا الحالية) .

(4) يبدو أنه اعتمادا على مثل هذه الوقائع في تقاتل الأساقي بعد محمد الأول ، ذهب ديوب في مؤلفه (إفريقيا قبل الاستعمار ، باريس 1956 ص 81 ،) إلى أن حق القوة الشخصية كان أكثر اعتبارا في سنغاي من الإرث الشرعي في تولي منصب الملك ، ولكن هذا التعميم مبالغ فيه بعض الشيء على ما يبدو .

وفي الأيام الأخيرة من حكم محمد الثاني توفي الحاج محمد الأول عن عمر يناهز الخامسة والتسعين كما أسلفنا .

3 ـ الأسقيا إسماعيل 1537 ـ 1539

لم تحفل أيام الأسقيا إسماعيل القصيرة بجديد ، وقد قضى عاما كاملا بعد توليه السلطة ، وهو يتابع أخاه محمد الثاني الهارب حتى قتله في مدينة المنصور كما أسلفنا .

ولما انتهت قضية أخيه جرد حملة كبيرة ضد أحد الأمراء الوثنيين في الجنوب الغربي من المملكة ، وقد سبى أثناء ذلك عددا كبيرا من أعدائه حتى انخفض سعر العبد الواحد في غاو لكثرة ما توارد عليها من العبيد إلى ثلاثمائة ودعة [1] ، وكان ثمن العبد أكثر من هذا بكثير قبل ذلك [2] .

وفي أيام إسماعيل الأخيرة حدث طاعون فني فيه خلق كثير ، أما الملك فقد مات من جرائه وهو لا يزال مع جيشه في تلك الحملة على الوثنيين ، فلما فارق الحياة عاد الجيش سريعا إلى غاو ليختار ملكا يخلفه على البلاد .

4 ـ الأسقيا إسحاق الأول (1539 ـ 1549)

يعتبر إسحاق الأول من أهم الملوك الذين حكموا بلاد سنغاي على أيـــام الأسيقيين ، وقد تسنم الحكم بانتخاب من الجيش العائد من القتال ، ولكنه ما أن أصبح ملكا حتى أدرك بثاقب نظره أن تدخل الجيش في شؤون الحكم أضر بالبلاد في مناسبات عديدة سابقة كما أنه من أهم المشاكل التي يجب على الملك الجديد أن

---

(1) كانت الودعة في أوائل هذا القرن لا يزال يتعامل بها الناس في السودان الغربي ، وكانت قيمتها حوالي نصف دينار جزائري ، ويقول دولا فوس ، إن سعرها في القديم لا يختلف عن سعرها في أوائل هذا القرن إلا بنسبة ضئيلة جدا .

(2) اختلفت الأسعار في أسواق النخاسة باختلاف النوعية ، ولكن الثمن الأقل كان حوالي 600 ودعة مما يدل على أن الأسعار في تلك المناسبة انخفضت بمقدار خمسين بالمائة تقريبا .

يتصدى لمعالجتها ذلك أن الجيش هو الذي قضى على الأسقيا محمد وجاء بإسماعيل إلى الحكم بدلاً منه، مما اضطر الأسقيا محمد إلى أن يتيه فارا بنفسه مدة سنة كاملة، بالرغم من أنه كان الملك الشرعي آنذاك، ثم أن الجيش هو الذي انتخب إسحاق الأول أيضا، وقد رأى الملك الجديد في ذلك خطراً أيما خطر.

ولكنه أدرك أنه في الوضعية التي كان فيها، لا يستطيع التصرف بحرية العمل المباشر في الإصلاح.

ولذا فإنه عمد بالتدريج إلى إبعاد جميع الضباط والمسؤولين الكبار الذين كانوا في المسؤولية منذ الأيام التي سبقت مجيئه إلى الحكم، واستبدلهم بآخرين يخضعون لكل أوامره وتوجيهاته[1].

وبعد أن أنجز هذه المهمة، اعتقد أنه أنجز الإصلاح اللازم للبلاد، وتوقف عند ذلك الحد، ثم بدأ يوجه همه للخارج.

وقد بعث بجيش هدفه ضم آخر أملاك مالي لسنغاي ولكن تلك الحملة لم تنجح في تحقيق مرغوبه.

وبينما كان الجيش عائدا، وإذا بإسحاق الأول تصله رسالة من السلطان السعدي مولاي أحمد الأعرج، يطالب فيها هذا الأخير بتسليم ممالح تغازة للمغرب.

ويظهر أن الملك إسحاق أراد أن يكون جوابه قولا وعملا لكي لا يفتح للمغاربة مجال المساومة في هذا الموضوع إطلاقاً، لأن الممالح كان ينظر إليها سلاطين سنغاي على أنها من أهم ميادين الدخل لخزينة البلاد، وربما كان ورود مثل هذا الطلب قد فاجأ الأسقيا أيضا لغرابته.

ومهما يكن، فقد كان جواب الأسقيا، أن الذي يطلب مثل هذا الطلب من

---

(1) دولافوس ج 2. والسعدي أثناء الحديث عن الصراع بين الأساقي في عهد إسحاق الأول.

ملك سنغاي لا يمكن أن يكون مثل مولاي أحمد الأعرج، كما أن الذي يقبل مثل هذا الاقتراح، لا يمكن أن يكون الأسقيا إسحاق الأول.

ويتضح من هذا أن الإجابة كانت في غاية من اللباقة والتعبير عن كل ما يريد إسحاق أن يجابه به الموقف.

وقد أضاف إسحاق إلى جوابه بالقول، إرسال حملة من المهارية الطوارق كانت تتكون من مائتي محارب، فدخلت أراضي المغرب الجنوبية كإظهار للقوة ثم عادت.

ويذكر بعض المؤرخين[1]، أن إسحاق كان قبل وفاته قد أخذ من تجار تمبكتو سبعين ألف قطعة من الذهب وكان لا يلبث يبعث في طلبه منهم، منذ توليه الحكم في البلاد، وحتى وفاته كان لم يردّ منه شيئاً لأصحابه.

ولعلّ هذا يدل على أن كثرة الخلافات والصرف الواسع الذي باشره الأساقي بعد محمد الأول الكبير، قد أديّا بالخزينة إلى الضعف، وقد بدأت تشكو منه بشكل ملحوظ منذ أيام إسحاق الأول، وذلك بالرغم من أن المملكة كانت لا تزال في أيام شبابها حيث أنها كانت لا تزال لم يمر بعد عليها منذ تأسيسها نصف قرن.

5 — الأسقيا داود 1549 — 1582

حكم داود عرش سنغاي ثلاثة وثلاثين عاما، وكان في نفس الوقت من أبرز السلاطين من آل أسقيا، وقد بدأ حكمه بتبديل موظفيه السامين بآخرين جدد، كما فعل سلفه الأسقيا إسماعيل، ذلك لأن داود كان قد تأثر بشخصية إسماعيل على ما يبدو وكان في أيامه من أبرز مساعديه.

وقد اشتهر داود بحنكته السياسية، فكلما يظهر له أن جيشه غير قادر على

---

(1) السعدي ص 142.

إحراز الانتصار ، فإنه يجنح إلى السلم ، وبهذا الشكل فإنه لما قتل المغاربة محصّل الضرائب في تغزة وقتلوا عددا من رجال الطوارق الذين كانوا يتولون حمل الملح على جمالهم باتجاه الجنوب لم يفعل شيئاً أول الأمر ، ثم استمع لنصيحة الطوارق أنفسهم ، فأمر بتحويل مكان التنقيب إلى الجنوب [1]

أما حين يظهر له أن جيشه قادر على إحراز النصر ، فداود ينزع للحرب ، ومن هنا يمكن لنا أن نشبهه بأعظم ملوك سنغاي الفاتحين من أسلافه أمثال علي الكبير ومحمد الكبير ، ذلك أنه طيلة أيام حكمه لم يتوقف عن الحرب سنة واحدة، رغم طول ما حكم بالنسبة لغيره [2] ولكن حروبه الكثيرة لم تأت بجديد لسنغاي ، لأن المملكة كان قد انتابها الضعف قبل ذلك ، ولم تكن قوتها مستمرة إلا في الظاهر فقط .

والأسقيا داود هو أول من اتخذ مكان إقامته في تونديبي [3] ، وخرج بذلك من غاو ، ولا ندري سببا لذلك ، سوى ما يبدو من أن ملوك سنغاي كانوا قد أدركوا منذ عهد إسحاق الأول أن العاصمة قد أصبحت خطرا لما فيها من المؤامرات والمتآمرين وخاصة بين أفراد الجيش والمتقاعدين من كبار الموظفين ، ولكنه لما مات نقل جثمانه في قارب عبر النيجر ودفن في غاو [4] .

بدأ داود حروبه بالهجوم على بلاد الموسي سنة 1549 ولم يكن لذلك من نتائج هامة . وفي السنة التالية 1550 هاجم قبائل البوهل في ماسينا وكانوا قد اشتهروا بنبوغهم في الفن والموسيقى في ذلك العهد ، فجلب من عندهم كثيرا من المغنين

(1) وقع هذا الحادث بالضبط في سنة 1556 ، واسم محصل الضرائب المقتول هو إيكوما ، أما قاتله فهو رجل من تافيلالت اسمه (الزبيري) ، وبأمر من السلطان السعدي مولاي ، أحمد الكبير قتل عدد من الطوارق الذين كانوا يحملون الملح من تغزة إلى سنغاي ، فهرب الباقون ، والهاربون هم الذين اقترحوا على داود تبديل مكان التنقيب .

(2) انظر تفاصيل حروبه لدى كل من السعدي وكعت .

(3) إلى الشمال من غاو بحوالي خمسين كلم .

(4) كعت – تاريخ الفتاش – ص 41 .

والمغنيات وأسكنهم حيا خاصا بهم في غاو [1] . وفي السنة التالية حدث وباء مروع في تنديرما ، فراح ضحيته كثير من السكان .

أما في السنة التالية 1552 فقد حدث خلاف من جديد على المعاهدات المبرومة في السابق بين سنغاي ومملكة الكبي ، وقد نتج عنه دخول المملكتين في حروب طاحنة وانتهى بعقد معاهدة الصلح في آخر العام .

وبين سنتي 1554 و 1556 حدثت مناوشات عديدة بين فرسان الحوصا ورجال الأسقيا داود ، ولا ندري سببها الحقيقي وربما كان لتأمين الطرق التجارية لطرف أو للآخر .

وفي سنة 1558 / 1559 هاجم داود بلاد مالي ، وقد جلب جيشه كثيرا من السبايا ، أما الملك فقد اختار من بينهن بنت أمير مالي ، واصطفاها لنفسه ، فأدخلها غاو يحف بها العبيد في موكب فخم [2] .

وبين 1561 و 1562 نرى داود يعيد مهاجمة بلاد الموسي للمرة الثانية [3] آخر حملاته باتجاه الغرب كانت في سنة 1570 حيث جرد داود في تلك السنة وحملة على مالي للمرة الأخيرة .

وقد حصل في أيام داود اتفاق بين سنغاي والطوارق الذين يسكنون مشارف الصحراء وشمال تمبكتو ، ولم يحدث أن حصل قبل ذلك مثيله ، لأن قبائل الطوارق ظلت تعيش طيلة العهود السابقة متنقلة وراء مواشيها وتمارس السلب والغارات المفاجئة على المدن كلما قدرت على ذلك [4] .

(1) كعت – تاريخ الفتاش – ص 41 .

(2) السعدي تاريخ السودان – ص 96 .

(3) ظلت بلا د الموسي الوثنية مستعصية على الأساقي رغم كثرة الجيوش التي جردوها عليها وبقيت على وثنيتها حتى مجيء الأوروبيين حيث اعتنق قسم منهم المسيحية بالتدريج ، أما الأقلية فقد اعتنقت الإسلام في القرنين 18 و 19 بالطرق السلمية ونتيجة لا حتكاكها بالمسلمين لمدة طويلة .

(4) تفاصيل هجوماتهم على المدن الكبيرة وخاصة تمبكتو في كتاب السعدي.

وفي أيام الأسقيا داود بدأت قبائل بني حسان تسكن منطقة الحوض (1) فرأى الطوارق في مجيئها خطرا يتهددهم وأخلصوا لسنغاي . أما سنغاي فقد كانت دائما تجد في مهادنة الطوارق تأمينا لطرقها التجارية مع الشمال ، ولذا كانت سياسة ملوكها هي تجنب كل ما من شأنه أن يثير بينها وبين الطوارق عوامل العداء ، وهذا بالرغم من أن الطوارق كانوا لا يفتأون مستمرين على الإخلال بالأمن في البلاد .

أما لما حدث توارد بني حسان على مشارف الصحراء الغربية من الجنوب فقد أقلع الطوارق عن عاداتهم تجاه سنغاي وتجندوا للحرب إلى جانبها كلما لزم الأمر . ولذا فقد كان يرافق داود أثناء خروج جيشه للغرب سنة 1570 اثنان من زعماء قبائل إيمغرا شن وإندا سن ، ولكل منهما جيش يبلغ تعداده اثني عشر ألفاً من المحاربين الطوارق (2) .

وقد ارتأى داود منذ بداية عهده مسالمة المغرب مهما كلفه ذلك من ثمن، فغض الطرف عن المضايقات المقصودة التي عمد إليها محمد الكبير السعدي . ولما جاء إلى العرش المغربي مولاي أحمد سنة 1577 عمد هذا الأخير إلى محاولة تحقيق أغراض المغرب في السودان بالطرق السلمية ، فبعث إلى داود هدية بعشرة آلاف وقية من الذهب (3) ويظهر أن داود كان على معرفة مسبقة بأهداف المغاربة وبعدم قدرة جيشه على محاربتهم ، ولذا فإنه قبل اقتراح الملك المغربي بيسر ظاهر وأجر له ممالح تغزة ، لمدة سنة واحدة كما ارتأى مولاي أحمد المنصور ، وتصادق الملكان بعد ذلك ، طيلة أيام داود .

وقد اقترنت نهاية عهد داود بحادثتين كان لكل منهما دليل على المآل الذي ستصير إليه المملكة بعده ، وهما ، أولا الوباء الذي اجتاح في سنة 1582 مناطق

---

(1) في الجنوب الموريطاني حالياً .

(2) السعدي ص 73

(3) انظر دولافوس ، أعلى السنغال والنيجر ، ج 2 ص 107

النيجر الأعلى حول جني وتمبكتو فهلك فيه ما يقارب ثلث السكان (1) .

أما الحدث الثاني فهو تجرؤ قبائل البوهل على اجتياح بلاد سنغاي لأول مرة منذ قيامها ، وقد تعرّضت لهم في البداية تشكيلة من جيش سنغاي كان يقودها ابن الملك المسمى محمد الحاج ، وقد ألحق المهاجمون بتلك الفرقة أضرارا كبيرة ، مما دفع بداود إلى تجييش أحسن فرقه لمجابهتهم ، فردهم ، ثم هاجم بلاد ماسينا نفسها ، وكان يحكمها آنذاك الأمير بابو مارينا ، وقد ارتكب جيش سنغاي في بلاد الماسينا أبشع الفظائع فقتل وخرب وسبا ، أما داود فإنه لم يؤنب قادة جيشه إلا على فتكهم بالعلماء ورجال الدين كغيرهم من السكان .

لقد كان عهد داود كله حركة وحروبا كما رأينا ، ولكن البلاد لم تجن من وراء ذلك أية نتيجة ، وهذا ما نراه سيعجل بإضعافها أكثر بمجرد اختفاء داود (2) .

6 — الأسقيا محمد الثالث (الحاج الثاني) 1582 — 1586 .

الأسقيا محمد الثالث هو ابن الأسقيا داود (3) وما أن علم بموت أبيه حتى أسرع إلى العاصمة ، وكان يرافقه جمع من إخوانه فأعلنوه سلطانا على البلاد ، ولم يخالف منهم في ذلك أحد بالرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر لداود .

أما ابن داود الأكبر وهو محمد بنقان ، فإنه لما تناهى إليه موت أبيه قصد العاصمة هو الآخر ، وفي طريقه إليها علم أن أخاه قد نصب فعاد من حيث أتى لحينه ولكنه صمم على الاستقالة من منصبه الذي كان يشغله من قبل كحاكم في

---

(1) كعت — ص 46 .

(2) يرى بعض المؤرخين الحديثين أن عهد داود كان من أزهى عصور بلا د سنغاي في أيام الأسيقيين (انظر بيرود فيلا ر ، إمبراطورية غاو ، باريس 1943 ص 54 ولا يوجد لذلك ما يبرره في نظرنا لأن الاستقرار الذي رأته المملكة في أيامه ، إنما حصل كنتيجة طبيعية لأعمال محمد الأول الكبير .

(3) كل الأساقي قبله من أبناء الحاج محمد الكبير .

كوال ، فعرج على تمبكتو وطلب من قاضيها التوسط له لدى أخيه لقبول الاستقالة ، ففعل القاضي ذلك ، وقبلت استقالته .

وبعد سنتين من تتويج محمد الثالث أي في سنة ١٥٨٤ بالضبط جاء أخوه الآخر الهادي حاكم غورما في جيش كبير من أنصاره لينتزع أخاه من منصبه ويتولى مكانه ، ولم تجد التوسُّطات التي اعترضت طريقه لمصالحة أخيه ، والتراجع عن هدفه ، فدخل غاو يحف به جيشه ، وهنا اقترح قائد الأسطول على محمد الثالث أن يوليه حاكما على غورما ، على أن يأتيه برأس أخيه مقابل ذلك ، فقبل محمد الثالث الاقتراح وبر قائد الأسطول بوعده .

وكان محمد الثالث قد أصيب من أيام توليه الحكم أول الأمر ، بمرض أقعده عن ركوب الخيل ، فلم يخرج في يوم من الأيام بجيشه ولم يحصل جديد في أيامه بسنغاي ، واستمرت المملكة في الضعف والانحلال الذي كانت لا تزال عوامله في تضخم منذ نهاية عهد داود من قبله .

وإنما الجديد الذي يشير إلى ما ستتطور إليه الأحداث فيما بعد أن الحاج الثاني استقبل بعد صعوده للحكم مباشرة بعثة مغربية تحمل له هدية ضخمة من السلطان أحمد (الذهبي فيما بعد) الذي كانت عينه على سنغاي يراقب شؤونها بكل اهتمام منذ تسنمه كرسي السلطنة بالمغرب . وكانت تلك البعثة مكلفة بتسقط أحوال مملكة سنغاي ومدى قوة جيشها ، وقد استقبلها الحاج الثاني بكل ترحاب وأرفقها حين خروجها بهدية لمولاي أحمد تتركب من ثمانين خصيا ، وعدد هام من العبيد ، ولكن بعد رجوعها مباشرة أرسل مولاي أحمد حملة تتركب من عشرين ألف محارب لتمر بمنطقة الوضال [1] ثم تنطلق منها إلى حوض السنغال وبعدها إلى تمبكتو .

(1) شرقي موريطانيا الحالية .

ولكن هذه الحملة لم ينتج عنها شيء ورجعت إلى مراكش [1] . ثم أرسل مولاي أحمد بعد ذلك حملته الثانية ، وكانت تتكون من مائتي فارس فقط ، وقد احتلت منطقة مما لح تغزة ، وهرب سكانها ، كل هذا والحاج الثاني لا يحرك ساكنا ثم أعلن في سنة 1585 أن مما لح تغزة قد نفدت . [2]

وقد بقي المغاربة مدة قصيرة في تغزة ثم تركوها ، فعاد إليها الرعايا الأساقي واستأنفوا العمل بها [3] .

ويبدو أن هذا التخاذل هو الذي دفع بعدد من إخوة الحاج الثاني إلى الثورة عليه وتنصيب محمد باني سنة 1586 ، بدلاً منه ، وكان الحاج الثاني مريضاً أثناء ذلك ، وقد توفي بعد تلك الحادثة بأيام قلائل فقط .

أما المملكة في عهده فقد عمها البؤس ، واتضح سيرها نحو الهاوية أمام الجميع [4] .

7 — **الأسقيا محمد باني (الطيب) 1586 — 1588**

لقد بدأ محمد باني عهده القصير بقتل عدد من إخوانه الذين كان يشك في إخلاصهم له ، ثم مات في السنة التالية . وهو يحارب للقضاء على ثورة الفارين منهم عليه . أما البلاد في عهده فإنها لم تر سوى تزايد الفوضى والاضطراب .

8 — **إسحاق الثاني 1588 — 1591 ونهاية عهد الأسيقيين في سنغاي**

تسنم الأسقيا إسحاق الثاني الحكم في سنغاي ، وهي في غاية من الضعف ، لا

(1) وصلت الحملة قرب نهر السنغال ثم عادت ، ولم تجد في تلك الفيافي الواسعة من يقف في طريقها ، كما وجدت المنطقة تكاد تكون قفراء ، فلما أضناها التعب وقلة المؤونة قرر ضباطها الرجوع .

(2) دولافوس — أعلى السنغال — ج 2 ص 81 .

(3) دولافوس — نفس المصدر والصفحة .

(4) في هذه الأثناء يطنب كعت والسعدي في الحديث عن مظاهر الفوضى وهجومات البدو .

لفقرها وقلة سكانها بقدر ما كان ذلك ، لأن البلاد لم تر من التنظيم والعمل الدائب لتقويتها شيئاً ذا بال منذ أيام الأسقيا محمد الكبير . ثم أنهكتها الحروب التي كان الأساقي لا يفتأون يشنونها باستمرار سواء على الثائرين داخل البلاد أو على البلدان المجاورة .

وفي الغد من يوم توليه الحكم ثارت عليه تنبكتو واعترفت بحاكم ثائر من عائلة الأساقي كان قد وجد له أنصاراً في جيش سنغاي ، وهو حاكم بالاما المسمى (ساليكي تونكارا) .

وقد قضى إسحاق سنة كاملة في محاربة هذا الثائر وأتباعه ، وما أن انتهى من ذلك حتى دخل في معركة النهاية مع مولاي أحمد المنصور الذهبي ، فقد كانت فكرة احتلال المالح على مشارف الصحراء الجنوبية تراود أحلام السلاطين المغاربة منذ مدة طويلة قبل ذلك ، ثم أضيفت إليها فكرة الذهب الذي يتوافر على بلاد السودان منذ أيام مولاي أحمد المنصور ، والراجح أن هذه الفكرة كانت موجودة قبل عهد المنصور ، ولكن المنصور هو أول من صرح بها (1) . وكان مولاي أحمد قد أدرك أن مملكة سنغاي أصبح من الممكن له احتلالها ولكنه مع ذلك بقي لفترة يتسقط الأخبار ويراقب الوضعية التي كانت تتردى فيها تلك المملكة عن كثب .

وفي سنة 1589 تلقى رسالة بعث بها إليه أحد المغاربة الذي عاد لتوه من بلاد السودان (2) وقد كان هذا يعمل في بلاط الأسقيا ثم أمر إسحاق بإخراجه من البلاد فورا ، ولم يتضح لنا بجلاء سبب ذلك .

وما أن وصل مراكش حتى كتب تقريرا مفصلا لمولاي أحمد يخبره فيه بضعف مملكة سنغاي وانقسام الأساقي على أنفسهم ، وتسلح جيشها بأسلحة عتيقة ، لا تفيد شيئا في مجابهة الأسلحة الحديثة (3)

---

(1) اسمه ولد القرنفلي

(2) كان مولاي أحمد في هذه المناسبة بفاس .

(3) انظر تصريحه أمام المجلس الملكي في السلاوي – الاستقصاء – ط . الدار البيضاء – ج 5 ص 39

ومن مجريات الأمور بهذا الشكل يمكن لنا أن نفترض أن هذا المغربي كان قد طرد من بلاد سنغاي لقيامه بالتجسس ، ولكن النصوص الموجودة حتى الآن ، لا تسعفنا بشيء في التأكد من هذا .

وعلى الفور بعث مولاي أحمد برسالة إلى الأسقيا إسحاق الثاني يطلب منه فيها تسليم المالح إلى المغرب والاعتراف بسلطة ملك المغرب على سنغاي كما هي على المغرب وقد علل مولاي أحمد السبب الذي حدا به ليطلب تسليم منطقة المالح إلى المغرب بحرص المغرب على حماية جنوبه من خطر المسيحيين .

وقد دهش إسحاق من غرابة هذه المطالب ، ولكنه ركب رأسه وبعث برسالة لمولاي أحمد كلها شتم ، وأرفقها بقبضة رمح وقطعة حديد يربط بها العبيد في سنغاي وذلك إشارة منه لاستعداده للقتال ، وعدم التسليم في شيء من سيادة سنغاي على المالح كما أنها لن تقبل المساس بسيادتها .

أما مولاي أحمد المنصور فقد وجد في جواب الأسقيا إسحاق الثاني فرصته التي طالما انتظرها وعمل على توفير أسبابها ، ولذا فإنه ما أن تلقى الجواب حتى أرسل حملته المشهورة بقيادة جودار ، وقد قضت نهائيا على إمبراطورية الأساقي في سنغاي سنة 1591 للميلاد .

استنتاجات

يتضح من تطور الأحداث في سنغاي على أيام الأساقي أن المملكة تأسست منذ البداية كتوسع قبلي ، كان الرؤساء يدفعهم له شغفهم بالحروب والغنائم .

ومنذ مجيء الأساقي إلى الحكم ، كان اعتناقهم الإسلام وإخلاصهم له ، قد أوصلهم إلى فهم الظروف التي تسير بموجبها الممالك خارج السودان ، ثم أنهم وجدوا في تلك الطريق ما يساعدهم على التمكين لأشخاصهم في الحكم .

وهذا ما جعل الأسقيا الحاج محمد الأول يبذل كل ما استطاع من الجهود في تنظيم المملكة وإصلاح إدارتها ، ومن هنا ذهب بعض المؤرخين الحديثين إلى

وصفه بالأمير الشرقي في السودان [1] وإذن ، فقد جمعت المملكة في عهد الأسيقيين بين الأساليب القبلية السودانية وبين بعض الأساليب التي وصلت إلى السودان مع الإسلام .

أما العوامل الشخصية ، فقد كانت هي التي تدفع دائما بالملوك إلى اختيار ما يبدو لهم من كليهما مناسبا حسب الظروف .

ولكن العوامل الشخصية الأنانية هي التي ما انفكت تسير الأمراء الأسيقيين منذ نهاية أيام الحاج محمد الأول أكثر من غيرها ، وكان هؤلاء الأمراء في أغلبيتهم لا يصعدون للحكم إلا بالمؤامرات أو الثورات فيجدون أمامهم معارضة يخلقها صعودهم بالقوة وطموح غيرهم إلى الاستيلاء على السلطة مثلهم . وبهذه الكيفية فإن كثرة المنازعات والثورات ، أنهكت خزينة الدولة أما السكان فقد خضعوا لضروب من التعسُّف والقهر ، فلم يبدعوا شيئا ولم يشاركوا الأمراء في تسيير الدولة فعاشوا وكأنهم بدون هدف [2] .

يضاف إلى هذا أن الإمبراطورية كانت تتكون من شعوب تختلف في مميزاتها الطبيعية وتقاليدها ، مما كان يحتم استمرار الرعاية الخاصة التي تصدى لها محمد الكبير وحده فيما يخص إحْداثَ عوامل الوحدة الوطنية والوئام .

ولكن جهود محمد الكبير لم تجد من يتابعها ، وعادت المملكة إلى صورتها القبلية كما كانت قبله ، فسارت البلاد من ضعف إلى ضعف .

وحين هاجمها المغاربة سنة 1591 كانت سنغاي لا تنقصها الغيرة الوطنية ولا ينقصها الرجال بقدر ما كان قد فت في ساعدها قبل ذلك فساد الحكم وضعف الجهاز الإداري ، فقابلتهم بأسلحتها البدائية التي لم تفد شيئاً أمـــام البارود والرصاص .

---

(1) انظر – بير نوفيلار – ص 240

(2) ان المتتبع لمبادرات الأهالي أثناء الأزمات وكما يصفها السعدي في المناسبات مثلا ، يخرج بنتيجة واحدة ، وهي أن العامة ، كانت تؤخذ على غرة دائماً ، ولا تنتظر من حكامها ، غير ما يفعلون .

الفصل الثاني

الإدارة والتقاليد الحكومية

أ ــ النظم والتقاليد الملكية

قضى علي بير أيام حكمه في الحروب ، ولذا فلا يمكن أن نتصوره إلاّ كزعيم لجيشه ، وهو دائماً في تنقل من مكان إلى آخر وراء الفتوحات ، ولعل أطول مدة أقامها القسم الأكبر من جيشه كانت حول مدينة جني حين حاصرها أكثر من سبع سنوات ، ويتفق مؤرخو عصره على وصفه بأنه كان حادّ المزاج ، يضحك إلى حد القهقهة غير الرزينة حينما يتغلب على عدوه ، ثم لا يلبث أن يستبد به الغضب لأدنى سبب فيبطش ويقتل ويعذب دون شفقة ولا حدّ . [1]

وبالنظر لصفاته الشخصية وانشغاله بالحروب طيلة أيام حكمه ، فإنه لم يعتَن بالتنظيم الإداري ، أما الشعوب التي خضعت لسلطانه ، فكانت القوة هي التي تتحكم فيها وتوجهها .

---

(1) يعلل عدد من المؤرخين الحديثين الانتقادات الكثيرة التي يكيلها له مؤرخو حياته من فقهاء السودان المعاصرين له ، على أن الرجل لم يعن بمعاملة علماء بلاده وفق الأصول الشرعية حتى ذلك الحين . وقد انتبه لذلك محمد الكبير بعده ، فحظى بالسمعة الكبيرة لديهم . ولا يبدو أن مثل هذا التعليل يجانب الصواب كثيراً ، ولكن التأكد من اختلاف شخصية الرجلين ، أمر لا يمكن إغفاله أيضاً .

فلما جاء محمد توري (الأسقيا الحاج محمد الكبير) إلى الحكم ، نرى الأوضاع الإدارية في سنغاي ، تأخذ طابعها المميز بالتدريج ، ذلك أن محمد توري تسنّم العرش لا بالإرث ، ولا بالمجد العائلي ولا بالانتخاب ، وإنما بالثورة ، ولذا كان عليه أن يثبت جدارته للحكم في مملكة سنغاي الواسعة .

ويظهر أن صعوده للحكم ، كان له صدى إيجابي بين العامة ، أمّا هو فقد قدّر موقفه تماماً ، وعمل على إعطاء الحكومة طابعها الثابت . (1)

وبالرغم من أنه كان لا يقل عن سلفه اهتماماً بالفتوحات إلاّ أنّ اوّل عمل قام به ، هو اتخاذه جيشاً دائماً ، وبهذا تميزت الحدود لأول مرة في مملكة سنغاي بين الجيش والشعب .

فأصبح أفراد الجيش هم وحدهم الذين يتصدون للأعمال الحربية ، في حين يبقى الآخرون كل في عمله .

وكانت الخطوة الثانية التي اتخذها الحاج محمد الكبير ، هي أنه اتخذ لنفسه حرساً ملكياً خاصاً ، اختار أفراده من بين أقرب المقربين إليه من الضباط والجنود في جيشه . وكلّف كل مجموعة منهم بأعمال تخصها وحدها فهناك الذين يقفون على رأسه حين يستقبل الوفود . وهناك الذين يقومون بالحراسة على جنبات القصر ، وهناك فرقة منهم ترافقه حين ينتقل لمكان ما . وهناك فرقة الضاربين على الطبل في المناسبات (2) .

وعلى العكس من هذا قبل حكم الأسقيين في سنغاي كان الملك يعيش مع كل أفراد الجيش ، ويتخذ من الضباط أصدقاء له ، فيجالسونه وينفّذون الأوامر من حوله ، ولم تكن — بهذا الشكل — المسؤوليات محددة ، كما كان

---

(1) يتفق كل من السعدي وكعت على اثبات هذه الحقيقة .

(2) انظر أنتاديوب — إفريقيا قبل الا ستعمار — ص 45 .

التجنيد للقتال لم يستقر على تقاليد ثابتة ، وكانت الأمور أقرب إلى القبلية منها إلى الدولة ذات المؤسسات الواسعة .

وفي عهد الحاج محمد الكبير ، قسمت البلاد إلى مقاطعات ، ووضع لكل مقاطعة منها وال ، كان حين توليته يتعهد أمام الملك باتباع أوامره إلى أقصى حد . كما أنّ كلّ مقاطعة قسمت إلى أجناد وجعل على كل منها حاكم ، وتتعدد الأقسام الإدارية في المقاطعة الواحدة بتعدد المدن الهامة بها .

وهناك بعض المدن الواقعة على الحدود أو التي تكتسي أهمية خاصة مثل تمبكتو وجني وتغزّة ، جعلت مقاطعات قائمة بذاتّها ووضع لها نظام إداري يناسبها ، وكان للقاضي في تلك المدن دور خاص يتمثل في كونه المستشار الأول، والموجه للوالي في كل ما يمس السكان والقوانين التي تطبق عليهم (1) .

وكان الوالي هو الحاكم المدني والعسكري في إقليمه الذي يتولاه ، وهذا لا يعني أنّ الوالي يتولى بنفسه قيادة الجيش الذي تحت تصرفه مباشرة ، وإنمّا كان قائد الجيش ، وفي الغالب يكون من أقرباء الوالي (2) ، لا يتصرف إلا حسب أوامر الوالي .

وكان لكل موظف كبير في الدولة لباس خاص يظهر به في المناسبات ، ولا يركب الموظفون إلا الخيول ، وكانت الخيول مرتفعة الأثمان في سنغاي ، ولا يملكها إلا الأغنياء ، وركوب الموظفين لها دلالة على الأبهة التي كانت المؤسسات الإدارية والمسؤولون عليها يظهرون بها أمام الناس .

وكان الملك في سنغاي لا يظهر أمام العامة إلا على حصانه المطّهم والحرس من حوله وضاربو الطبول أمامه (3) .

---

(1) انظر كعت ، ص 245 . والسعدي ، ص 62 .

(2) ديوب ، ص 85 .

(3) يرى الشيخ ديوب — إفريقيا — ص 80 فما بعد ، أن هذه العادة قلدت عن العباسيين ، والواقع أنها عادة الملوك في السودان منذ أيام غانا ومالي قبل سنغاي ، وقد أثبت ذلك كل من البكري وابن بطوطة وحتّى الإدريسي أشار إليها ، وابن خلدون أيضاً .

وكان أفراد الرعية إذا مرّ موكب الملك انحنوا في خشوع ظاهر واذا تليت عليهم أوامره سكتوا، أمّا اذا تحدثوا مع الملك فان الواجب يحتّم عليهم أن يحثوا التراب على رؤوسهم بعد أن ينزعوا عنها الغطاء اذا كانت مغطاة .

إن هذه التنظيمات الإدارية والتقاليد التي رافقتها رأت الوجود بوضوح منذ أيام أول الأساقي (الحاج محمد الكبير) واستمرت في الثبات طيلة أيام خلفائه [1] ، وهم كلهم من نسله .

ب ـ الوزراء والولاة

وجدت عدة وظائف دائمة حول الملك ، وكان بعضها قد وجد قبل عهد الاساقي ، ولكن أغلبها لم يوجد ، الاّ منذ أيام محمد الحاج الأول ، ثم استمر في الوجود بعده ، وأصبح أكثر انتظاماً .

وما يمكن للدارس أن يتبينه منها هو :

(1) كيمي : وهو مدير الميناء .

(2) هيكوي : وهو منصب المسؤول عن إرساء السفن وأمنها .

(3) يوبوكوي : وهو رئيس السوق .

(4) كاري تيا : موزّع السروج [2] .

(5) بربوشي موديو : وهو الحاكم المتصرف في القضايا التي تخصّ أعراب البربيشي .

(6) الكورا باندامو نديو : وهو الحاكم المتصرف في ضواحي العاصمة ، ويظهر أنه كان له وكلاء في المدن الكبيرة الأخرى مثل تمبكتو وجني وغيرهما .

---

(1) كعت ـ ص 106 .

(2) ويمكن أن نفهم بأنه المسؤول عن العتاد والذخيرة .

(7) الباراي كوي : وهو رئيس البروتوكول .

(8) الواناي فورما : وهو وزير الأملاك الحكومية ، وتحت تصرفه أيضاً مراقبة حقوق الملكيات الخاصة .

(9) لاراي فارما : وهو وزير المياه .

(10) ساوفارما : وهو وزير الغابات.

(11) كوري فارما : وهو الوزير المكلف بقضايا الأجانب الذين يعيشون في البلاد ، ويتركزون خاصة في المدن الكبيرة كتجار ووكلاء وخبراء ومدرسين ، والأغلبية الغالبة من بينهم كانت من بلدان المغرب العربي مصر .

(12) تاراي فارما : وهو رئيس الفرسان .

(13) تاري مونديو : وهو مفتش الزراعة والأوقاف [1] .

وإلى جانب هؤلاء أوجد الأسقيا محمد وظيفة كانغاري التي عهد بشغلها لأخيه عمر مزياغ [2] ، وكان صاحب هذه الوظيفة يقيم في تندرم كنائب للملك ، وتحت تصرفه قسم من الجيش ، وفي ذلك على ما يبدو ضرب من اتّقاء الأخطار التي قد تنجم عن بعض الثورات في العاصمة ، فإذا انكسر جيشها ، يكون في الإمكان الاستنجاد بجيش تندرم ، وقد حرص الأساقي بعد الحاج محمد الكبير ، على استمرار وجود هذه السنة .

---

(1) بالنظر لوجود بعض الوظائف التي كانت تتشابه مع ما كان لدى العباسيين مثل وزير الري ومسؤول الأوقاف ، ذهب بعض الباحثين المحدثين (ديوب ونيان وغيرهما) إلى التأكيد على وجود الأثر الشرقي في سنغاي ، خاصة في المناصب الوزارية ، ويذهب البعض في تعليل آرائهم ، إلى أن هذه الوظائف أغلبها وجد بعد رجوع الحاج محمد الكبير من حجه واطلاعه على ما كان يوجد بالمشرق .

(2) اشتهر عمر مزياغ بإخلاصه أثناء حكم أخيه ، وقد حرص الأساقي بعده على إعطاء هذه الوظيفة لمن يثقون فيهم ويستشيرونهم في أهم ما ينوون القيام به من الأعمال .

أمّا الولاة فكان أغلبهم يتولى وظيفته بشكل وراثي ، وفي الأعم الغالب كانوا من أبناء النواحي التي يعملون فيها ، وكانت تراعى في تعيينهم أول الأمر سمعتهم في المنطقة وإخلاصهم لسنغاي ، وقد حدث في أحيان كثيرة ، أن الوجهاء في النواحي كانوا يأتون إلى غاو العاصمة ، وينتهزون الفرص ، ليعرضوا على الملك تعيينهم في مناصب الولاة في مناطقهم ، ويسندون طلبهم دائماً بذكر مشاريع يتعهدّون القيام بها في حالة تعيينهم ، وينتج عنها زيادة حجم الضرائب التي يتلقاها الملك من ناحية أو أخرى (1) .

ولقد أخذت أسماء الولاة والمتصرفين في المدن والنواحي على اختلاف أنواعهم أسماء محلية ، يظهر أنها جاءت من اصطلاحات الناس في مناطقهم ، وهكذا كان يدعى حكّام تغزّة وولاتا ونيما : (فا) و (شا) ، كما سمّي آخرون في بقية الجهات (مندزو) و (كوي) و (فارما) (2) .

أمّا الجابي في كل ناحية فكان يسمى (بالاما) . ولم نعثر له إلاّ على هذا الاسم .

وكانت أهم واجبات الوالي جمع الضرائب المفروضة على منطقته ، وتقديمها للملك في الوقت المحدد لتسلمها ، وكانت الضرائب تقدم سنوياً ، غير أن الهدايا في المناسبات والأعياد وعند مرور موكب الملك بالمنطقة ، كانت علامة على استقامة الوالي وإخلاصه ، وكان الولاة – لهذا السبب – يتبارون في أدائها .

---

(1) انظر كعت ، ص 201 ، والسعدي ، ص 30 – 31 . وكذا ديوب ، ص 70 .

وقد استمرت هذه الظاهرة حتى في العهد المغربي فقد احتوت تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان (نشر دلفوس ، باريس 1898) على أخبار عديدة من هذا النوع .

(2) بإضافة الاسم إلى المدينة أو الناحية التي يعملون بها ، فيقال مثلا : تمبكتو – كوي وهي – كوي ... الخ .

ج – أملاك السلطان وتسيير جهاز الدولة

لم تكن هناك فروق واضحة بين أملاك الدولة وأملاك السلطان ، وقد جاء هذا من القاعدة السائدة في سنغاي بأن الدولة هي السلطان وكل شخص يتبوأ مكانة السلطان تتجسم الدولة في ذاته (1) .

وقد تكاثرت أملاك السلطان حتى ليمكننا تصوره بأنه أكبر إقطاعي في البلاد غير أنه لا ينفق على تسيير المصالح الحكومية إلا من واردات الضرائب العامـــة .

أمّا واردات أملاكه الخاصة ، فهو يصرف منها على نفقاته الخاصة ، ويأخذ منها أفراد عائلته نصيباً مهماً ، كما ينفق منها على المشاريع الخيرية كبناء المساجد والتصدق على الفقراء حيث أنه في الأعياد يجتمع على بابه عدد ضخم من المحتاجين فيعطيهم ألبسة وأطعمة ، كما كان طلبة القرآن يتلقون من عطاياه في يوم الجمعة بصورة مستمرة ، وكذا كان الحجيج يمرون بالقصر أثناء ذهابهم وإيابهم فيعطى لهم نصيب من الميرة والهدايا . أمّا طلاب العلم في مساجد تمبكتو وجني وغاو وغيرها ، فكان القاضي هو الذي يتولى النظر في شؤونهم ، وينفق على المحتاجين منهم من أملاك الأوقاف وصدقات المحسنين كما كان يتلقى من السلطان نصيباً مهماً من المال . هو في الغالب من ريع الأملاك الخاصة بالسلطان . (2)

ولقد تكاثرت أملاك السلطان بالفتح ، حيث أن القاعدة كانت أن السلطان

---

(1) تجمع كل السلطات الحكومية في شخص واحد ، ظاهرة استبدادية ، كانت هي السائدة عمليا لدى كل المجتمعات حتى القرن الثامن عشر ، حيث جاء فلاسفة (عصر النور) كما يسمونهم في أوروبا بالدعوة لتقسيم تلك السلطات بين هيئات مختصة في الدولة . وفي إفريقيا كان الملوك يجمعون إلى جانب تلك السلطات ، صبغة من القدسية ، ولا يبدو أن الناس تخلوا عن ذلك التصور ، خلال عهد الأسيقين ، وخاصة العامة منهم .

(2) كعت – ص 38.

كلما فتح جيشه منطقة بالقوة ، فكل سكانها يصبحون بصورة آلية سبايا وعبيداً له ، يتصرف فيهم وفي أملاكهم كما يشاء ، وفي الغالب كان يعطي نصيباً منها لأفراد جيشه ، غير أن القسم الأكبر منها كان ينفرد به ، فيملك ما شاء ومن شاء ، ويمنّ على من يشاء بالحرية .

وبهذا الشكل تكاثر عبيد السلطان ، وأصبح وجودهم أنّى وجد السلطان ، وبأعداد كبيرة أمراً شديد البروز ، أمّا أملاك السلطان في مختلف أصقاع بلاد سنغاي ، فكان العبيد وحدهم ، هم الذين يتولون خدمتها والإشراف عليها .

وكان الذكور من العبيد في القصر ، أغلبهم من الخصيان [1] ، أمّا الأماء في القصر ، فقد كنّ من الكثرة ، بحيث لا يمكن إحصاؤهن [2] ، وكان من عادة السلطان أن يعطي لبعض الوافدين على البلاد وخاصة إذا كانوا من العلماء أو الوجهاء من التجار ، عدداً من العبيد لخدمتهم وسريات لتسرّيهم ، كما كان يبعث للقاضي في كل مناسبة وللعلماء في البلاد عدداً من العبيد [3] .

وكان العبيد في سنغاي يتسنّمون المناصب لدى السلطان مثل ما يتسنّمها غيرهم ، فكلما أنس السلطان في عبد من عبيده الكفاءة على عمل من الأعمال أعطاه له ، غير أنّ وجودهم خارج القصر في المناصب الحكومية ظل نادراً ، أمّا في القصر ، فكان منهم معظم أمناء السرّ والكتّاب ورؤساء الأقسام ، وأمّا إدارة الأملاك الخاصة بالسلطان وتسييرها ، فكانت لهم وحدهم . [4]

---

(1) يرى ديوب (ص 65) أن وجود الخصيان في قصور سنغاي إنما هي عادة قلد الأساقي فيها العباسيين أيضا ، ولا ندري من أين استقى هذا الرأي .

(2) بلغ عدد أولاد الأسقيا الحاج محمد الكبير المائة بين الذكور والإناث ، فكان من بينهم جميعا واحد فقط أمه ليست أمة .

(3) مثل هذه العادات كانت قديمة بالسودان على ما يبدو ، وقد توفرت كتب الرحالة والمؤرخين منذ أيام مالي على ذكر وجودها .

(4) السعدي وكعت لا يذكران من الأشخاص القائمين على أملاك السلطان غير العبيد ، كما أننا لا نجد في الغالب الأعمال الخاصة بالقصر ، يسندها السلاطين لغير عبيدهم المخلصين لهم .

د ـ حفلات التنصيب

كانت توجد في القصر الملكي بسنغاي فرقة من العبيد بأدواتها الموسيقية ، وكانت هذه الفرقة هي التي تعزف في المناسبات ، حين خروج الملك في جيشه ، وحين تكون المناسبة عيداً من الأعياد التي يفتح فيها باب القصر للمهنئين والزائرين .

أمّا في اليوم الذي ينصّب فيه ملك جديد ، فإن الحفل يبدأ في القصر الملكي حيث يدخل الملك ويجلس على سرير العرش ، ويضرب أمامه على الطبل ، وتقدم إليه إشارات السلطنة ، وهي عبارة عن قميص مزركش ولباس على الرأس يشبه التاج ، وقد أضيفت إلى ذلك العمامة الخضراء والسيف والبردة التي كان مولاي العباس قد خلعها على الحاج محمد الأوّل ، حينما باركه ملكاً على السودان الغربي ، أثناء حجّه سنة 1495 م .

وبعد أن يستقبل الملك الجديد رؤساء المقاطعات وقادة الجيش يصلي الظهر في المسجد ، وبعد الصلاة ، يقسم جميع الموظفين الكبار وأفراد العائلة المالكة يمين الولاء له [1] .

وطيلة ذلك اليوم تضرب الطبول في جميع بيوت غاو ، ويرقص الناس في الشوارع ، وقد يبيتون في هرج وصخب ورقص حتى وقت متأخر من الليل . وفي اليوم الثاني يباشر الملك الجديد أعماله ، ويبدؤها في الغالب بتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين . [2]

---

(1) كان القسم يجري أمام الملك ويشاهده القاضي والعلماء ، ويضع الذي يقسم بالله على الإخلاص والطاعة للملك الجديد ، يده على المصحف أو على كتاب (خليل) .
ـ انظر السعدي وكعت ص (91 ـ 131) .

(2) حرص جميع سلاطين سنغاي على المحافظة الدقيقة على مثل هذه الرسميات ، لأن ذلك ، كان يشير إلى تأكيد شرعية توليهم أمام الملأ .

استنتاج

يظهر لمن يلقي نظرة مقارنة بين أساليب الإدارة في سنغاي خلال عهد الأسيقيين وقبله ، أن حكومة سنغاي ، إنمّا اتخذت صبغتها المميزة أثناء حكم الأسيقيين ، فقد كانت قبلهم تغلب عليها القبلية ، ولكنها في أيامهم أصبحت أكثر اعتناء بكل سكان المملكة ، وأميل إلى الانسجام مع مصالح البلاد ككل .

وإنّ صبغة الطّبقية الإقطاعية التي ظلّت هي الغالبة عليها في فترة الأسيقيين قد نتج عنها تزايد التضّخم في البلاط ، سواء فيما يخصّ الحاشية أو فيما يتصل بمظاهر الأبهة الملكية .

وقد فرض ذلك بطبيعته وجود الانتظام الظاهر في المراسيم وشكليات الوظائف ، وفي العلاقة بين العامّة والسلطة ، وبين الأصناف [1] الكبرى للإدارة ، وفي عهدهم أيضاً وجدت علاقات دبلوماسية شبه ثابتة مع الخارج ، وهي علاقات نجد ملامح عديدة لها في النصوص التي بين أيدينا عن تلك الفترة ، وذلك بالرغم من عدم وجود سجلات (أرشيفية) حولها بين أيدي الباحثين [2] .

(1) يقال الأصناف هنا ، لأن استعمال المتنفذين في جهاتهم كولاة ، كان يعني الحكم غير المباشر بالنسبة لعلاقة السلطان بالعامة . ومن ثم ، فقد بقيت للنواحي أساليبها المحلية الغالبة في الإدارات الفرعية على الأقل : على أن ذلك كان يتماشى والبعد عن العاصمة بصورة أوضح منها في الجهات القريبة من مركز السلطنة .

(2) انظر الفصل المخصص للعلاقات الخارجية فيما بعد .

الفصل الثالث

الجيش

أ — دور التنظيم

يبدو أن الجيش في سنغاي كان يتمتع بمكانة محترمة في البلاد [1] ، وقد اكتسب هذه المكانة من اعتماد السلاطين الكلّي على وجوده في فتوحاتهم ، وإخضاع القبائل لسلطانهم ، ولهذا لم يدخروا وسعاً في تقويته باستمرار .

وفي أيام سني علي كان التجنيد إجبارياً على كل فرد قادر على حمل السلاح ، حسب ما يرى الملك . ويبدو أنه في تلك الفترة ، كان أفراد قبيلة سنغاي يجدّون للانخراط في الجيش سعياً وراء الغنائم ، ولذا لم يجد سني علي أية صعوبة في توفير العدد اللازم لفتوحاته في مختلف الجهات . [2]

(1) انظر جبريل نيان وسورات – كنال : تاريخ إفريقيا الغربية ، باريس ، 1965 ، ص 45 .

(2) يستفاد من الكتابات السودانية في تلك الفترة أن الملك لم يكن يختلف في هيئته داخل الجيش ، عن أي فارس شجاع من ذلك الجيش نفسه ، وهذا ما يؤكد تغلب الصبغة القبلية في تلك الفترة ، ويحدد الأهداف المتوخاة من الفتح .

وفي أيام الأسقيا الحاج محمد الكبير ، دخل جيش سنغاي دور التنظيم . فأصبح في معظمه يتكون من المتطوعين الذين يعملون في الجيش بشكل دائم ، كما قسّم إلى أقسام ، حسب الأسلحة التي كان يستعملها ، ووضع لكل فرقة منه نظامها الخاص ، كما حدّدت الأدوار الخاصة بكل فرقة في الحرب [1] . فالمشاة مثلا كانوا يتقدمون الصفوف ، في حين أن الفرسان يكوّنون الصف الثاني ، أمّا الخيّالة فدورهم كان دائماً في المؤخرة قريباً من مكان القيادة ، وأمّا المساعدون فيتمركزون على الجوانب ، ويغيّرون وضعيتهم بين الآن والآخر ، ليسدوا أمكنة الفراغ أثناء المعارك .

وكان القائد العام في جيش سنغاي هو الملك ، فكما أنه رئيس السلطة المدنية ، فهو رئيس السلطة العسكرية أيضاً ، وبهذا فقد كان جيش سنغاي خاضعاً للسلطة المدنيّة . فبعد أن قسم الأسقيا محمد (الحاج الأول) الجيش إلى فصائل ، وخصّ كل فصيلة بمنطقة تقيم بها ، فإنه جعل الإشراف على فصائل الجيش في الأقاليم تحت سلطة الولاة ، أما ضباط تلك الفصائل فهم خاضعون لتوجيهات الوالي وملزمون بتنفيذ أوامره .

وكان للعبيد دور هام في جيش سنغاي ، والحقيقة أنّ العبيد إذا كانوا يتميزون بكونهم مملوكين ، ولا يحصلون على حقوق الحرية الذاتية ، فإنهم في خدمة دولة سنغاي كانوا متساوين ضمن تلك الحدود ، أمام القانون مع الأحرار ، فكما كان لهم دورهم في الخدمة المدنية ، فكذلك كان لهم مثل هذا الدور في الخدمة العسكرية .

(1) كانت تقاليد الجيش تقضي بأن لا ينسحب المشاة من المعارك ، ولكن يمكنهم أن يغيروا أمكنتهم ، حسبما يتطلبه الموقف ، في حين أن الفرسان يجوز لهم الانسحاب ، مما يدل على أن القوة الضاربة في جيش سنغاي كانت المشاة .

ولذا كان منهم ضباط وكان منهم جنود ، ويبدو أنّ الإمكانيات التي أعطيت للعبيد في خدمة دولة سنغاي جاءت من أن الملوك يعتبرونهم خدماً مخلصين لهم ما داموا من أملاكهم الخاصة ، ولا نجد في قائمة الأشخاص الذين حاولوا القيام بالانقلابات أو حبك المؤامرات في دولة سنغاي عبيداً ، وهذا رغم كثرة العبيد في خدمة الملكية ، ورغم كثرة المؤامرات والمتآمرين .

ولقد استمر جيش سنغاي على الصورة التي نظمه بمقتضاها الحاج محمد الكبير ، ثم ازداد تنظيماً في أيام الأسقيا موسى ، وحينما ضعفت سنغاي بعد أيام الأسقيا داود ثم فشلت في ردّ الغزو المغربي ، لم يكن ذلك يعود للجيش ، إذ أن الجيش كان لا يزال في ريعان قوته [1] . وإنما يعود إلى ضعف أواخر الأساقي وتوانيهم عن تقوية دولتهم [2] .

ب ــ وحدات الجيش وأسلحته

كانت أقسام جيش سنغاي ، ــ كما يتبينها الباحث ــ تنحصر في الوحدات التالية :

(1) سلاح الخيالة : وكان ينخرط فيه أفراد الطبقة النبيلة في مجتمع سنغاي . إذ أنّ تجهيز رجاله كان يتطلب الكثير من الأموال ، وكان الجندي الذي يستطيع تجهيز نفسه وينخرط في هذه الفرقة ، ينال شرف الأبهة النبيلة بين أفراد الجيش ، ويتيح له ذلك الدخول في صفوف العترة الملكية أو من يمثلها سواء أثناء الحروب أو في أوقات السلم .

(1) لقد كان من الأسباب التي دفعت الأسقيا إسحاق إلى التصلب في وجه المنصور هي القوة التي كان يرى عليها جيشه ، وقد حضر بنفسه معركة تونديبي ويقال إنه كان متيقنا مسبقا من النصر .

(2) في حين كان ملوك البورنو المجاورون لسنغاي يدخلون الأسلحة النارية لبلادهم ، لم يقم الأسقيون بأية مبادرة من هذا النوع .

فهذه الفرقة كانت من أصغر الفرق ، ومشاركتها في الحروب كانت رمزية أكثر منها عملية، وكثيراً ما كان أفرادها يسيرون في الاحتفالات مع موكب الملك.

وقد كان من لوازم الجندي في هذه الفرقة الحصان الذي يركبه صاحبه ، وكان الحصان غالي الثمن في سنغاي ، ولا يركبه إلا القضاة والملوك ورؤساء المقاطعات من بين أفراد الأسر النبيلة .

ومن لوازم الجندي في هذا السلاح الحصول على درع ، وكان الدرع أيضاً باهظ التكاليف ، وهذا في غير سنغاي أيضاً ، فقد كان لا يحصل عليه إلاّ الأغنياء في المشرق وفي المغرب وفي أوروبا مثلا ، أمّا في سنغاي ، فأغلب الدروع كانت تستورد من الخارج ولذا كانت مرتفعة الأثمان إلى حد كبير ، وخاصة إذا كانت جيدة الصنع .

وإلى جانب هذا كان الجندي في هذه الفرقة يحمل حربة طويلة برمحها ، أمّا السيوف فكانت قليلة الاستعمال [1] .

(2) فرقة الفرسان : كانت هذه الفرقة تحتلّ المكانة الثانية في الأهمية بعد فرقة المشاة ، وتأتي بعدها في الترتيب لمواجهة المعارك ، كما كانت أعداد أفرادها تلي مباشرة فرقة المشاة ، وأسلحتها كانت تشمل : الخوذة وصدرية الفرس من الحديد ، وكان الجنود يحملون في أيديهم الحراب وعلى أكتافهم النشاب أمّا الكنانة فكانت تلصق بالسروج .

(3) فرقة المشاة : كانت هذه الفرقة عماد القتال في جيش سنغاي ، وكان

---

(1) ربما لأن الجندي في هذه الفرقة إنما يقارع مدججين بالسلاح مثله ، وتغنيه الحربة بطولها عن استعمال السيف . وعلى كل فإن استعمال السيف كان لدى الجنود في هذه الفرقة ، دوره ثانويا ، وبالتالي فإن السيف لم يكن يحمل إلا احتياطا .

أفرادها يكونون أكثر من ثلثي الجيش كلّه ، وقد اشتهرت هذه الفرقة باستماتتها في القتال ، وأصبح جيش سنغاي القوة التي لا تقهر في السودان الغربي كله بفضل الشجاعة والتمرّس بالحروب لدى أفراد هذه الفرقة ، وكانت تتركب في مجموعها من مختلف أبناء الشعب ففيها العبيد ، كما فيها المزارعون ، وكانت تتصدر للقتال منذ بداية المعارك ، وتستميت فيه حتّى النصر أو الفناء [1] .

أما أسلحتها فكانت الحراب والسهام بالدرجة الأولى وبعض أفرادها يحملون الفؤوس الحادة أحياناً ، ولكن السيوف كانت قليلة الوجود لديهم ، ربما لفرط ارتفاع أثمانها في سنغاي آنذاك .

(4) الحرس الملكي : كان لفرقة الحرس الملكي وجود دائم في جيش سنغاي أثناء المعارك ، ذلك لأنّ الملوك كانوا يحضرون الحروب غالباً ويشرفون عليها بأنفسهم ، فكان وجودها في صفوف الجيش دائماً تقريباً،ولكن دورها كان لا يتجاوز المؤخرة التي يحتمي الملك وراءها في خيمته مع مستشاريه ورؤساء بلاطه .

وأهم عمل لها كان حراسة الملك والحاشية ، والضرب على الطبول والنفخ في الأبواق أثناء سير الجيش للمعارك ، وأثناء تنقل الملك أو حتّى حين يمر في شوارع المدن ، ولهذا فإنّ دورها في القتال كان ثانوياً جداً .

أمّا أسلحتها فكانت أسلحة للزينة في الغالب ، وهي تشبه في تسلحها فرقة الخيالة ، باستثناء الدروع فلم يكن يرتديها الاّ أفراد قلائل من بينها ، يسيرون حول فرس الملك .

---

(2) حين قابلت هذه الفرقة جيش المغاربة المتوافر لديه أحدث أسلحة العصر آنذاك ، ارتأى قادتها أن يجعلوا في المقدمة مئات وآلافا من الأبقار ، لكي تصمد أمام النار وبذلك يتمكن الجيش من القتال وراءها بأسلحته التقليدية ، ولكن الثيران ولت الأدبار أمام طلقات البنادق فأضرت بالمشاة السنغائيين وراءها ، فاختل نظامهم ، ولكنهم لم يتراجعوا ، حتّى فتكت النيران بهم .

(5) الأسطول : كان لسنغاي جيش بحري على النيجر . وأهم قواعده كانت في غاو وتمبكتو .

وغالبية أفراد هذا الجيش كانت تتكون من العبيد ، وكانت الأهمية التي يشغلها هذا القسم من جيش سنغاي لا تكمن في الحروب بقدر ما تلاحظ في النقل ، فهم ينقلون الميرة عبر النيجر وروافده ليوافوا بها مختلف المراكز التي يوجد بها الجيش ، كما يحملون الجنود عندما يتنقلون من مكان إلى آخر على أطراف النهر ، أو يقطعونه . أمّا اشتراكهم في المعارك فكان قليلاً ، وأسلحتهم أغلبيتها من النبال والحراب . وسفنهم نهرية طويلة ودون عرض .

ج ـ أساليب القتال

كان جيش سنغاي يتوافر لديه عدد من أساليب الحرب التي كانت معروفة في البلدان الإسلامية حتّى ذلك العهد ، باستثناء الرمي بالمنجنيق وبالنار المحرقة ، فلم تنته إلينا وثائق عن وجودهما .

أمّا بقيّة الوسائل والحيل فقد ذكرها عدد من مؤرخي ذلك العصر [1] ، ومنها أنهم كانوا يحاصرون المدن الحصينة ، بقصد التضييق عليها وحملها على الاستسلام ، كما كانوا يرسلون السرايا الخفيفة لتتقدم الجيش بقصد الاستكشاف ، وقد حدث في أحيان عديدة إرسال الجواسيس ليسبروا مدى قوّة العدو ومسالك أرضه . كما فعل عدد من الأساقي تجاه بلاد الموسي الوثنية التي استعصى عليهم فتحها .

وكان قائد الجيش ، وكذلك الملك في حالة حضوره ، وغالباً ما كان الملك

---

(1) السعدي ومحمود كعت بصورة خاصة ، (ص 47 – 180) .

يحضر بنفسه ويرافق الجيش أثناء ذهابه للقتال ، يكون دائماً مكان وجودهما وراء الجيش ، حتّى يكونا في أمن ، ويمكنهما الخلاص في حالة الانكسار . [1]

وغالباً ما كان جيش سنغاي يختار الهجوم المباغت [2] ، وكانت تبدأ مع القتال أصوات المنشدين وضربات الطبول وصيحات الجنود والأبواق ، وذلك حتّى يندفع الجنود بكل قواهم في المعركة .

وكان الجنود في جيش سنغاي ، لا يخبرون إلى أي مكان هم متجهون كما لا يعرّفون مسبّقاً بشيء عن أعدائهم ، وإنما تعطى لهم الأوامر بالاستعداد التامّ للحرب ويعلن النفير العام ، فيأخذ الجيش طريقه للحرب [3] .

وبمجرد خروجه للقتال تبدأ معه ضربات الطبول والأناشيد وترافقه في سيره ، أمّا حين يحين وقت المعركة ، فيشتد الضجيج وتقوى ضربات الطبول وينفخ في الأبواق بأصوات عالية .

استنتاج

إن النتيجة التي يستطيع أن ينتهي إليها الباحث في هذا الموضوع ، هي : أن جيش سنغاي كان جيشاً نظامياً ممتازاً من حيث التدريب والتصنيف ، وذلك

---

(1) في أيام سني علي لم يكن لهذه القاعدة انتظام ، فكثيرا ما شوهد الملك في المقدمة أو في القلب وكبار القادة من حوله .

(2) حدث أثناء هجوم الباشا محمود على غاو ، أن جيش سنغاي أخذه على غرة ، وتعمد إحداث ضوضاء شديدة ، مماجعل الجيش المغربي يحجم عن القتال ثم ينظم نفسه ويعيد الكرة .

(3) يستفاد مما يذكره السعدي أن الضباط كانوا يؤمرون بالتوجه لناحية ما ، إما للغزو أو لمقابلة أحد الثائرين ، فيستنفرون جيشهم بالسرعة اللازمة ، ولم نجد في حكاياته من هذا النوع أن ذلك ، كان يتطلب من الضباط إخبار جنودهم مقدما . على أن ذلك قد يحصل بعد الاستعداد أو أثناء الطريق .

حسب مقاييس ذلك العصر ، وأن تفوقه على جيوش البلدان المجاورة لسنغاي ردحاً من الزمن ، يؤكد لنا مدى الانتظام الذي كان عليه في ذلك الوقت . أما من حيث التسلح فقد بقي جيشاً قديماً وأسلحته كانت أميل إلى البدائية ، ولذلك فإنه في البداية حينما كانت جيوش المنطقة السودانية كلها ، بمثل أسلحته . كان أقواها جميعاً ، أمّا في الأخير فقد تسلح جيش البورنو بالأسلحة النارية وأصبح أكثر منه استعداداً لنيل فرص المستقبل في السودان ، وهذه هي نقطة الضعف التي اعتمد عليها المغاربة ، فقضوا عليه بيسر ظاهر ، أمّا الإقطاعية فكانت من أبرز صفاته ، ولكنها كانت لا تزال سمة عامة من سمات العصر .

الفصل الرابع

القضاء والقضاة

حينما يتحدث السعدي [1] وكعت [2] وهما من المصادر الأساسية عن تاريخ سنغاي على أيام الأسيقيين يخيل للباحث أنّ سلطة القاضي كانت أسمى من سلطة الأمير ، غير أنّ هذا لا يدل إلاّ على المكانة السامية التي كان يتمتّع بها القاضي في مجتمع سنغاي في ذلك الوقت . أما أحمد بابا [3] الذي كان قد عاصر حكم الأسيقيين في سنغاي ، فيسرد لنا قوائم طويلة بأسماء القضاة الذين تولّوا منصب القضاء في تمبكتو وجني وغاو أيضاً ، ويصفهم بالاستقامة والحظوة الواسعة لدى الأمراء وبين أفراد الشعب .

وكل من السعدي وكعت وأحمد بابا يشيرون مرّات عديدة إلى أن القاضي كان كثيراً ما يستشيره الملك ويطلب منه النصيحة حينما يلتقي به ، أمّا كلمته فهي مسموعة لدى السلطة ، فقد حدث عدة مرات أن أحد القضاة يرفع عقيرته بالاحتجاج أمام الملك ، وعلى مسمع من الجمهور ، فيرضخ الملك ويترجّى من القاضي العفو وحسن النصيحة . وإذن ، فإن عظيم المكانة والاحترام اللذين

(1) تاريخ السودان ، ص 28 — 30 .
(2) تاريخ الفتاش ، ص 48 .
(3) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ص 270 .

كان عليهما القاضي في سنغاي على أيام الأسيقيين ، لا مجال للشك فيهما بحال .

ويبدو أن القضاة قد فرضوا احترامهم على السلطة وعلى الجمهور من الاستقامة التي كانوا عليها .

فالقضاة في سنغاي ، لم يؤثر لنا عن أحد منهم إخلاله بالواجب بأي شكل من الأشكال ، كما كانوا لا يتولون منصب القضاء إلاّ بعد إلحاح شديد ، يتوالى عليهم من الملك ومن الأصدقاء ومن الجمهور أيضاً ، وذلك تهرباً من مسؤولية القضاء الصعبة ، وهذه سنة إسلامية قديمة ، فقد أثر لنا عن كثير من القضاة في الدولة العباسية أنهم كانوا يرفضون بتاتاً منصب القضاء [1] لما فيه من مسؤولية إحقاق الحقّ بين الناس ، وهذا بالرغم من أن القاعدة الإسلامية تبيح للقاضي وغيره أن يرتكب الخطأ دون أن يلحقه إثم ، وهذا في حالة اجتهاده وبذل أقصى مجهود ممكن لديه ، حيث يقول الرسول (ص) في هذا المعنى (من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد ولم يصب فله أجر واحد) [2] . وواضح أنّ القضاء فيه اجتهاد بالإضافة إلى التمكن من الأحكام العدلية .

وعلى كل ، فإنّ القضاة في سنغاي كانوا – كغيرهم في البلاد الإسلامية الأخرى – يتهربون من تولّي منصب القضاء ، ولا يقبلونه الاّ بعد إلحاح عليهم شديــد .

وقد كان القضاة في مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين يعيّنهم الملك ، فهم بهذه الصفة تابعون للسلطة المدنية ، ورغم ذلك ، فإنهم كانوا في الأحكام التي يصدرونها مستقلين تمام الاستقلال عن أيّ اعتبار خارج نطاق الأحكام الشرعية المستمدّة من الإسلام وحده .

والحقيقة أنّهم كانوا لا يباشرون من القضايا الاّ الأمور التي تتصّل بالجماهير

(1) من ذلك أن أبا حنيفة النعمان مثلا ، رفض منصب القضاء ، ويقال إنه عذب وضرب ورغم ذلك فلم يقبله ، وكذا فعل عدد من مشاهير الفقهاء والأئمة .

(2) صحيح البخاري ، القاهرة ، 1956 ، ص 41 .

الشعبية ، فيحكمون في الخلافات العقارية وفي الأحوال الشخصية وفي الشؤون المتعلقة بالإرث والديون والقروض والتجارة .

أمّا القضايا الإجرامية ، وخاصة ما يتصل منها بالأمن العام أو المساس بالسلطة ، فإنّ الملك كان هو الذي يتولى الحكم فيها ، حسبما يروق له ، وحسبما يشير به عليه مستشاروه . وفي الغالب كانت الأحكام التي يصدرها الملك صارمة لهذا السبب ، أمّا الأحكام التي كان يصدرها القاضي ، فلم يكن فيها كأقصى عقاب ممكن إلا الجلد [1] . أمّا الإيداع بالسجن فقد كان يصدره القضاة كما كان يصدره الملوك ، وتعرف الآن ثلاثة سجون كانت موجودة في مملكة سنغاي ، وكان يودع بها المساجين ، وهي سجون كلّ من تمبكتو وجني وغاو . [2]

وقد اشتهر المجتمع في سنغاي على أيام الأسيقيين بقلة أنواع التعدي بين أفراده فقد تواترت إلينا شهادات الرحّالة والتجار من تلك الفترة وقبلها على اتصّاف المجتمع السوداني بالوداعة وقلّة التعدي ، ولهذا كلّه كانت القضايا التي تعرض أمام القاضي في طبيعتها قليلة .

وكان الناس في المدينة إنّما يقصدون القاضي في كلّ أمورهم ، فكأنه ضابط الشؤون المدنية في أيامنا ، ولا يذهبون بأنفسهم للسلطات ، بل أن القاضي هو الذي يخبر إذا لزم الأمر في شيء . ولذا كان للقاضي أعوان كثيرون يرسل بهم للاتصال بالسلطة ولإيصال رغباته إلى السكّان .

وكان القاضي يتولىّ بالإضافة إلى الحكم بين الناس ، الإشراف على مراقبة شؤون المدينة الأخلاقية [3] ، كما كان يتولى الإشراف على أموال اليتامى حتّى

(1) ديوب . إفريقيا ، ص 164 .

(2) كانت تلك السجون الثلاثة تقع كلها خارج المدن في مكان منعزل ويتولى حراستها جنود الملك من العبيد .

(3) يبدو للباحث أن القاضي في سنغاي كان يجمع وظيفة المحتسب ووظيفة القاضي في الدولة العباسية والفاطمية . وهذا ما يمكن أن تؤدي بنا إليه النصوص المتوافرة في هذا الشأن .

يرشدوا والغرباء الذين يموتون حتى يحضر وكيلهم أو وريثهم الشرعي .

ولكنّ أهمّ وأكبر وظائف القاضي كانت الإشراف على سير التعليم في البلاد ، فهو الذي يعيّن المدرّسين في منطقته ويحصي الطلبة ويساعد المحتاجين منهـــم .

كما أنّ القاضي بالإضافة إلى أعماله السابقة كلها ، كان كثيراً ما يتولى بناء المساجد للدراسة والصلاة حسبما يراه من حاجة المنطقة إلى ذلك ، أو أنه يتولى توسيع مسجد من المساجد وترميمه [1] .

وكان للقيام بأعماله هذه يتلقى مساعدات من الملك ومساعدات من المحسنين في كل مناسبة [2] ، أمّا تمويل مشروعاته الأساسي فقد كان يعتمد على أموال الأحباس ، التي كان يتولى بمساعدة من يعيّنهم لذلك ، الإشراف عليها وتسييرها .

إذن لقد كانت للقاضي سلطات واسعة وكانت أمامه أعمال كثيرة يقوم بها ، وقد كان قضاة سنغاي مثاليّين في الاستقامة والتصدي لجميع واجباتهم بكل إخلاص ، ولهذا كانوا على درجة عظيمة من الاحترام والتقدير سواء من السلطة أو من الشعب . أمّا من طرف السلطة فلأنهم كانوا نعم المساعدين لها على الاستقرار ، لأنهم يشاركون مشاركة فعالة في حفظ الأمن ، فقد حدث في أيام الاحتلال المغربي الأولى أن القاضي طلب من سكان تمبكتو الثورة ، فثاروا رغم عدم توافر الأسلحة النارية لديهم ، ورغم ما كانوا يشاهدونه من تشدد الجيش المغربي أمام كل من تسول له نفسه القيام بعمل ضده ، ودون أية شفقة ، وقد قتل منهم في تلك المناسبة خلق كثير .

وأمّا من طرف الشعب ، فلما كان يمثله القاضي في أعين العامة من قول الحقّ والمحافظة على سير المصالح العامة سيرها الطبيعي وكذا حراسة المؤسسات الدينية والتعليمية .

---

(1) كمت – ص 53 .
(2) السعدي – ص 26 وأحمد بابا – نيل الابتهاج ص 372 .

لهذا كله كان منزل القاضي ملجأ حرمة ، لا يجوز للسلطة الوصول إليه ، فإليه يلتجيء الفارّون من جور الملك وإليه يهرب الفارّون من السجون وإليه يأتي الخائفون من التتبع ، ومن التجأ إليه أصبح آمناً ، ولكن للقاضي أن ينظر في أمره حسبما يلتمس في ذلك من أحكام الشرع .

والقانون الذي كان يستنير به القاضي في سنغاي على أيام الأسيقيين ، لم يكن سوى الشرع الإسلامي وحده ، وفق مذهب مالك بن أنس ، الذي كان هو المذهب السائد في سنغاي .

وقد كان في كل مدينة قاض ، غير أنّ أكبر القضاة اعتباراً وخاصة لدى السلطة ، كان قاضي تمبكتو [1] .

وكان الإمام يعيّنه القاضي ، ويعتبر بمثابة نائبه حينما يغيب ويبدو أن العامة كانت ترتبك أمورها ، وتتعطل المصالح لديها في حالة عدم وجود قاض بالبلاد ، ولذا فإنّ بعض الأئمة كانوا يتصدون للقيام بوظيفة القاضي تلقائياً ، حينما يتعطل منصب القضاء لسبب من الأسباب [2] .

استنتاج

لقد كان منصب القضاء في سنغاي يتّسم بميزات خاصة ، يمكن أن نلاحظها في السلطات الواسعة التي كان القاضي يمارسها ، ثم في اتصال القاضي اتصالاً مباشراً بالعامة ، وأخيراً في كون القاضي يتولى من الأعمال ما يمثّل واسطة بين

---

(1) ربما لأنها المركز الثقافي الأول في الإمبراطورية ، ويذهب كمت (ص 260) إلى أنه كانت له ، أي لقاضي تمبكتو ، سلطة إقالة من يرى ، من بين القضاة الآخرين ، عدم استقامته .
(2) لما تعطل القضاء في تمبكتو على أيام أسقيا الحاج بن داود لمدة سنة ونصف ، وذلك لخلاف بين السلطان والقاضي ، قام الإمام محمد بغيغ تلقائيا بهذا الواجب (وكان يجلس بباب المسجد ويحضر معه بعض طلبته ، ويقول : من له حق على من امتنع به فليأت) وقد قام الإمام بذلك خشية على مصالح الناس والمضار التي تلحقهم . انظر كمت ، ص 124 .

الإدارة والأهالي ، ويطبّق في ذلك المفاهيم الدينية ويشرف على التعليم [1] .

ولهذا كله ، كانت ترتبك بعض الجوانب في حياة المجتمع وتتعطل بعض المصالح ، حينما يشغر منصب القضاء لسبب أو لآخر . ويشعر بها الناس فيلحقهم الضجر . أما الملك فإنه كان يهتم بإرضاء القاضي كلما أمكن . وأما العامة ، فكانت تعتبره الحارس الأمين على سلامة أملاكها وأمنها ، والناطق بكلمة العدل أمام المعتدين وما قد يحصل من طغيان السلطة . [2] . ومن هنا فلنا أن نعتقد بالأهمية الكبيرة التي كانت للقاضي ولمنصب القضاء في مجتمع سنغاي على أيام الأسيقين .

---

(1) انظر الفصل المتعلق بالثقافة والتعليم من هذا الكتاب .

(2) يتوفر تاريخ السودان وتاريخ الفتاش معاً على ذكر الحالات العديدة التي يرتبك فيها الناس حين يتعطل منصب القضاء، كما يذكران الحالات الكثيرة التي يقف فيها القضاة في وجه الملوك ، والحالات التي يلتجيء اليهم فيها المتظلمون .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية

يقال إنه حينما أسلم ملك جني في القرن الثاني عشر الميلادي رفع يديه إلى السماء داعياً الله أن تكثر ببلاده الجاليات الأجنبية حتى يزداد لبلده توافر الخيرات وتوارد البضائع [1] . وإن هذه القصة قد تدلنا على ان السودان الغربي كان على اتصال بالبلدان الخارجية منذ ما قبل القرن الثالث عشر بكل تأكيد .

بل إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن سكان السودان الغربي الأوائل ربما يكونون قد قدموا من النوبة عن طريق كردفان وفزان [2] ، وهو رأي لا نستبعده لأننا سنرى فيما بعد أثر بلاد النوبة وخاصة في فن العمارة .

أما معرفة السودان الغربي بفن تعدين الحديد منذ القرن الثاني عشر ، بل ومعرفة هذا المعدن نفسه فقد كانت جلبت من بلاد النوبة ومن (مروي) [3]

---

(1) انظر كمت ، ص 60 ، والسعدي ، ص 72 .

(2) انظر دولا فوس ، ص 268 ، وكذا كورنوفان ، ج 1 ، ص 32 .

(3) مركز من مراكز التعدين في الحضارة القديمة لبلاد النوبة وأرض كوش (السودان الشرقي الحالي).

بالذات ، وهذا ما تميل إلى تأكيده ، لأن عدة هجرات بشرية كانت قد توالت من تلك البلاد إلى السودان الغربي منذ حوالي القرن السابع ، كما أثبتت ذلك حفريات علماء الآثار [1] .

ومن الشمال الإفريقي كان القرطاجنيون قد وصلوا من مراكزهم التجارية في شمال إفريقيا إلى غربها ، وتعاملوا مع السكان تجارياً منذ ما قبل الميلاد [2] .

وحينما جاء الرومان بعد القرطاجنيين إلى شمال إفريقيا حاولوا الاتصال بالسودان الغربي ، ووصلوا إلى فزان [3] . ثم اتصل المسلمون بالمنطقة وظلوا على اتصال وثيق بسكانها حتى بداية العصور الحديثة ، ومن ذلك يتبين أن الأمم التي كانت على اتصال بالسودان الغربي ، وظلت تتعامل معه حتى مجيء الأوروبيين في القرن السادس عشر [4] ، هي الأمم التي تسكن شرقي البحر الأحمر وحول المتوسط في شرقه وجنوبه ، وهي التي يشملها اصطلاح العالم العربي الآن .

أما أثر تلك الأمم على بلاد السودان الغربي فقد كان عظيماً حقاً ، فإنه عن طريقهم استطاع سكان السودان الغربي أن ينالوا نصيباً من الحضارة ويخرجوا

---

(1) انظر دافدسن (إفريقيا تحت أضواء جديدة) ترجمة م . أحمد ، ص 28 .

(2) أول رحلة معروفة ، طافت بإفريقيا في التاريخ هي رحلة حنون الفينيقي قبل الميلاد بقرنين ، ويقال إنه بعث في تلك الرحلة كعقاب له . (ينظر ماتيب ، جروح ومآسي في العلاقات الأوروبية – الإفريقية ، باريس ، 1959 ، ص 57) .

(3) كان أول وصول الأوروبيين في العصور الحديثة إلى السودان الغربي ، قد تم مع بداية عصر الاكتشافات في القرن الخامس عشر ، وقد اتصل البرتغاليون بعد منتصف ذلك القرن بملك مالي وحملوا منه وإليه رسائل جرى تبادلها بين ملكهم وبين الماليين . (انظر رحلة كاداموستو في القرن الخامس عشر) طبعة باريس ، 1763 .

(4) وصل البرتغاليون كما رأينا في القرن الخامس عشر ، ولكنهم كانوا لا يجتازون السواحل أما في القرن السادس عشر فقد توغلوا في الداخل، وقد لحقهم في نفس القرن الفرنسيون والهولانديون وعدة أمم أوروبية أخرى .

من طور البدائية التي بقيت عليها المناطق الداخلية في بقية أنحاء القارة ، حتى وقت متأخر .

غير أن أقرب سكان هذه المنطقة من بلاد السودان هم الذين كانوا أكثر اتصالا به ، وأهم في التأثير في تطوره ، ومن هنا يتحدد لدينا من كان يعني بهم أمير جني حينما أسلم .

لقد كان يعني أقرب الأمم في شرقي أفريقيا وشمالها إلى بلاد السودان ، وهم سكان بلدان المغرب العربي وسكان وادي النيل .

فهؤلاء هم الذين أوصلوا الإسلام إلى السودان الغربي منذ القرن التاسع الميلادي [1] ، ولا نستبعد أن عقبة بن نافع الفهري كان قد بعث بحملة استكشافية صغيرة إلى السودان حين قدومه على القيروان لأول مرة ، كما يذكر ابن عبد الحكم . ولكن الإسلام لا يمكن أن يكون قد بدأ يستقر بالمنطقة حتى القرن التاسع ، أما في القرن الحادي عشر فيمكن القول بأن إسلام المنطقة قد تمّ خلاله بشكل عام .

وتتفق الروايات على أن إسلام مكان ما ، كان يتم حين يعلن الأمير أو رئيس القبيلة أو النبيل في عشيرته إسلامه، فيتبعه جميع أفراد رعيته . وهنا يبدو أمامنا الدور الكبير الذي كان على سكان الشمال الإفريقي أن يملأوه . فكان عليهم أن يدرسوا ويعلموا ويوصلوا الإسلام إلى جميع الأفراد بطرق عملية ، فيتصلون بهم في العمل ويدرسونهم في بلدانهم .

وقد فعلوا ، وكانت تحدوهم للذهاب إلى السودان الغربي أرباح تجارية كانت

---

(1) وهناك روايات تذهب إلى أن الإسلام وصل إلى السودان الغربي عن طريق المغرب منذ القرن السابع الميلادي . (انظر ريشي ، أوليميدان) ، باريس ، 1924 ، ص 39 .

تتوافر لهم بتلك البلاد ، حيث وجدت فيها عدة معادن الذهب ، كان قد بدىء في استغلالها منذ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد فيما يظن .

أما في أواسط العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، فقد كانت تلك المعادن في فترة أوج استغلالها من قبل الإفريقيين في غربي القارة ، وهذا ما جعل بلادهم تصبح سوقا عالية تصلها جميع البضائع من أوروبا ومن الشرق ومن بلاد المغرب ، ولكن عن طريق تجار المغرب ومصر كانت تصل بضائع البلدان الأخرى بكل تأكيد ، ومن بلدان المغرب كان الاتصال أكثر . ولذا تحضّر السكان بحضارة المغرب وأخذوا الإسلام على المذهب المالكي ، وتعاطوا الكتابة على الطريقة المغربية أيضا، وأصبح المتنقل من ورقلة أو من سجلماسة أو من غدامس إلى تمبكتو وغاو ، لا يشعر بكبير فرق في أسلوب المعيشة وطرق التعامل [1] .

وقد كان في كل مدينة سودانية هامة مثل تمبكتو وغاو ووالاتا وجني وغيرها جالية مغربية هامة ، تتكوّن في أغلبيتها من التجار والفقهاء والمدرسين ومعظمهم كانوا قد تزوجوا بسودانيات مسلمات ، وفضلوا الإقامة في تلك المنطقة بين إخوانهم المسلمين [2] .

ومن طول المعاشرة وكثرة الوافدين من المغرب ومن مصر ، انتشرت تعاليم الإسلام بين الجماهير الشعبية في السودان الغربي وحسن إسلامها .

أما من الناحية الرسمية فقد كانت أساليب ذلك الوقت في الاتصال هي أن الملوك والأمراء كانوا يبعثون بوفود تحمل رسائل شفوية أو مكتوبة كلما أرادوا الاتصال

---

(1) انظر رحلة ابن بطوطة 6 ص 113 ، وكذا ابن خلدون ، التاريخ ج 7 ، ص 530 .
(2) وقد وقع ذلك منذ أيام غانا كما يذكر البكري في (المسالك والممالك) . طبعة بغداد – ص 183

بأمير أو ملك لبلد أجنبي ، وتحمل تلك الوفود عامة هدايا ثمينة ، وتستقبل على الأغلب في احتفال عظيم يتصدره الأمير أو الملك المقصود ، بذاته [1] .

ونميل إلى الاعتقاد بأن هذه الطريقة وصلت في أول الأمر إلى السودان الغربي أيضا عن طريق المغرب ومصر ، وقد باشر التعامل بها مع تلك البلدان بعد ذلك سلاطين مالي ثم سلاطين غاو بعدهم ، على نطاق واسع .

وفيما يخص سلاطين غاو على أيام الأسقيين ، فقد اتصل كل من إسحاق الأول وداود وإسحاق الثاني بملوك المغرب من أيام مولاي أحمد المنصور إلى أيام محمد زيدان بهذا الأسلوب نفسه ، وذلك حين اختلاف البلدين على المصالح وجرت بين أمراء المغرب وأمراء سنغاي اتصالات عديدة، وجرى تبادل الوفود عدة مرات [2] .

وكانت للسلاطين الأساقي علاقات مع البلدان المجاورة في إفريقية الغربية نفسها [3] ، فكانوا يبعثون إليها بالوفود كما كانوا يفعلون مع بلدان المغرب ، ففي أيام الأسقيا الحاج محمد الأول ، جرى إرسال وفد بمجرد عودته من الحج سنة 1497 إلى ملك الموسي يدعوه فيه للدخول في الإسلام . فلما لم يستجب ، حاربه .

أما ملك الكبّي ، فقد كانت الوفود السنغائية قد قدمت بلاده مرتين (في أيام الأسقيا موسى ، وفي أيام الأسقيا داود) بنفس الطريقة والأسلوب . ولكن لم يكن نفس الهدف ، حيث أن مملكة الكبي كانت قد أسلمت ولكن كان لاختلاف

---

(1) انظر (بيار رنوفين ، تاريخ العلاقات الدولية 2 باريس ، 1953 ، ج 2 ، ص 281 .
(2) انظر (لاكرو ، تاريخ التجارة ، ج 3 ، ص 196) . و (دولافوس ، علاقات المغرب الأقصى بالسودان) ، مجلة « هسبيريس » مج . 3 ، 1923 ، ص 66 .
(3) ممالك الحوصا في الجنوب الشرقي ، مملكة بورنو – كانم (في الشرق) ، مملكة الموسي (في الجنوب الشرقي) ، وبقية مملكة مالي (في الغرب) .

البلدين على اتفاقيات تجارة وجوار كانت قد عقدت بينهما منذ أيام الأسقيا محمد الكبير .

وكانت الوفود والاتصالات السلمية دائما تسبق الاحتكام إلى السلاح ، أما بعد الدخول في الحرب ، فإن العلاقات لا ترجع طبيعية إلا بعد انكسار أحد الطرفين ، وبهذه الصورة ، لم تتوقف الحروب تقريبا بين مملكة مالي وبين مملكة الأساقي حتى انكسار مالي نهائيا ، أما مع الموسي فقد استمرت الحروب بين الطرفين حتى انكسار الأساقي نهائيا أمام الجيش المغربي في معركة تونديبي سنة 1591 .

ويلاحظ أنه مع ملك الكبي كانت الحروب تنتهي سريعا لضعف جيش الكبي أمام جيش سنغاي ، مما اضطر الكبي إلى قبول شروط الأسقيين ثلاث مرات (في عهد الأسقيا الحاج الأول ، ثم في عهد موسى ، وعهد داود) .

وكان الحجيج في الغالب يحملون من ملوك سنغاي تحيات السلاطين السنغائيين إلى البلدان التي يمرون بها وإلى شرفاء مكة على الخصوص ، وكانوا يوم خروجهم يودّعون في احتفال عظيم يحضره غالباً سلطان سنغاي بنفسه [1] .

وفي مصر كان موكب الحجيج ، حين يكون فيه سلطان سنغاي ، يستقبل استقبالا رسميا ، وتقدم له الهدايا عند مغادرته البلاد ، وبهذا الشكل جرت الأمور مع كل من محمد الحاج الأول ، ومحمد الحاج الثاني .

وكان ملوك سنغاي على اتصال بمختلف المفكرين الكبار في العالم الإسلامي وكثيرا ما كانوا يستفتونهم ، وبهذه الصورة جرى تبادل الرسائل بين كل من الإمام السيوطي [2] والإمام المغيلي وبين الأسقيا الحاج محمد الأول .

(1) وكذا في يوم عودتهم ، وكانت الاحتفالات التي تقام للحجيج هي وحدها التي تجري خارج البلد (قرب العاصمة غاو) .

(2) انظر الألوري ، ص 80 فيما يخص الرسالة التي كان قد بعث بها السيوطي لفريق من أمراء التكرور .

وهكذا يتبين بوضوح أن سنغاي كانت على أيام الأسقيين تكوّن جزءاً من العالم الإسلامي ، وكانت على اتصال واسع به ، عن طريق السفارات الرسمية وتنقلات الحجيج والطلبة ، ومراسلات العلماء وتنقلاتهم أيضا [1] .

ولقد كانت لسنغاي علاقات خارجية مثمرة ، تعرف سلاطين سنغاي أساليبها في ذلك الوقت وتمارسها كلّما لزم الأمر .

كما كانت لها علاقات مباشرة كذلك مع البلدان المجاورة لها في السودان الغربي والأوسط ، اختلفت بين السلم والحرب ، حسب الظروف .

أما مع العالم الأوروبي ، ومع بلدان الشرق الأقصى ، فإن كل اتصال لها بهما ، كان غير مباشر ، لأنه كان يتم عن طريق بلدان المغرب ومصر ، وكان لا يتجاوز نطاق التبادل التجاري وحده .

استنتاج

لم نعثر خلال أبحاثنا في هذا الموضوع ، على أية وثائق رسمية فيما يتصل بالوفود التي كان يبعث بها سلاطين سنغاي إلى ملوك البلدان الأجنبية ولكنّ ذكر تلك الوفود التي كانت قد أرسلت إلى المغرب الأقصى عدة مرات قد تواتر ذكره في عدد من المصادر [2] ، كما أن الاستقبال الرسمي الذي كان قد خصّ به الحاج محمد الأول أثناء مروره بالقاهرة ، وهو في طريقه إلى الحج ، ثم الاحتفال الرسمي الذي لقيه به شريف مكة قد تواتر ذكره في عديد من المصادر أيضا [3] .

(1) كان من أشهر العلماء الذين ذهبوا إلى السودان في هذه الفترة وكان لهم صيت هناك ، المغيلي (انظر الملحق) .

(2) كعت ، ص 89 – 190 ، وموني ، الكشف ، ص 410 – 268 ، وديكاستري هسبريس مج . 3 ، 1924 ، ص 83 . ودولافوس ، أعلى السنغال ، ج 1 ، ص 311 .

(3) انظر السعدي ، ص 31 ، وكعت ، ص 170 ، وابن أياس ، ص 69 .

أما وفود الأساقي إلى سلاطين الموسي والكبّي فإنّ ذكرها من قبل المؤرخين يختلط مع ذكر الفتوحات والأعمال الحربية التي ما انفك سلاطين سنغاي يقومون بها في تلك المناطق .

وكانت البضائع الواردة على أسواق سنغاي عن طريق المغرب ومصر تشمل منتوجات أوروبا والشرق الأقصى وبلاد الحوصا بالإضافة إلى منتوجات البلدان الإسلامية عموما [1] .

وهذا كلّه ، ممّا يدفع الباحث إلى الاعتقاد بأنّ العلاقات الخارجية لسنغاي كانت موجودة بصورة دائمة ، ولكنها كانت في شكلها المباشر آنيّة ، حسبما تمليه الظروف . وهي تعطينا فكرة عن تفتح البلاد كدولة ، فضلا عن أخذها بأسلوب ذلك العصر ، في الاتصالات الرسمية عن طريق الوفود ، وحسب المناسبات .

---

(1) انظر الفصل المتعلق بالتجارة الخارجية من هذا الكتاب .

الفصـل السـادس

حـمْلة المَنصُور وَظرُوفهَا

يبدو أنه بالرغم من العلاقات التجارية الواسعة التي كانت في العصر الوسيط قائمة بين بلاد السودان وبلدان المغرب العربي ، فإن بلاد السودان لم تكن معروفة معرفة جيدة لدى الساسة ورجال الحكم في بلدان المغرب العربي ، وذلك لأن التجارة مع السودان كان يقوم بها أشخاص لحسابهم الخاص ، ويتحملون وراءها المشاق الكثيرة ، وقد كتب بعضهم مشاهداته ، ولكن أعمالهم في هذا الصدد كانت شخصية بحتة ، ومن هنا اختلفت وجهات نظرهم في كثير من المواضيع [1] . أما رجال الدولة فلم يكونوا ليعرفوا عن بلاد السودان أكثر ممّا يتناقله التجار بصورة عفوية ، ومما يؤكّد هذه الحقيقة أنّ حملة المنصور لم تأت بأية نتيجة مما كان يتمنى ، وبعد أن أدرك أخيراً أن الأهداف التي كان يسعى لبلوغها ، لا طائل من ورائها كما كان يتصور من قبل ، نراه يهمل شأن السودان تخلصا من المشاكل التي نجمت عن عمله العسكري في تلك البلاد ، دون أن يحصل منها على هدف مفيد .

---

(1) يقول الحسن الوزاني (ليون الإفريقي) : « إن مؤرخينا القدماء (أي الذين سبقوه) الذين كتبوا عن إفريقيا أمثال البكري والمسعودي ، لا يعرفون شيئا عن بلاد الزنوج ما عدا منطقتي كوكو وكانو » . أنظر بوفيل ، ص 56 .

ولقد سبقت حملة المنصور على بلاد السودان حملات مغربية أخرى ممـــا يدلّ على أن السعديين كانوا – منذ عهد مبكر – يطمحون إلى بسط نفوذهم على بلاد السودان الغربي ، ليمتلكوا ثرواته الخيالية من الذهب ، ففي آخر أيام الأسقيا إسحاق الأول (1539 – 1549) أرسل له السلطان مولاي أحمد الأعرج رسالة شديدة اللهجة ، يدعوه فيها إلى تسليم مناجم تغازة للمغاربة ، وقد بهت الأسقيا من هذا المسعى ، ولكنه عمد إلى إظهار تصلبه أمام السلطان فبادر إلى بعث حملة عسكرية من المهرية [1] الطوارق فخرّبت قرية (الذراع) التي هي من أملاك مولاي الأعرج ، ولكنها كانت تحمل تعليمات مشددة بأن لا تقتل أحدا ، وذلك لأن الغرض منها كان إظهار القوة وليس للقيام بعمل عسكري ؛ ولذا فليس من الجائز الاعتقاد بحصول ضحايا كنتيجة لأعمالها .

أما في عهد السلطان محمد الكبير ، وهو الذي خلف مولاي الأعرج على العرش المغربي، فقد كلّف أحد المغاربة بقتل مأمور الضرائب من طرف الأسقيا في تغزّة .

وقد تسبّب هذا الحادث في حدوث بعض الاضطرابات في المنطقة ويقال إن وفدا من الطوارق الذين كانوا يقومون بحمل الملح على جمالهم إلى الجنوب، طلب من الأسقيا أن يأمر بالتنقيب في منطقة تقع إلى الجنوب من المملح السابقة الذكر [2] .

وقد بدىء فعلا في عام 1562 بالتنقيب في محلّة تغزة – الغزلان ولا يهمنا هنا مقدار المردود . ولكن يهمنا أن ندرك بأن قضية امتلاك مناطق الملح على حافة الصحراء الجنوبية . كانت قبل عهد مولاي المنصور الذهبي قد وقع عليها

(1) نسبة لعبارة (المهري) وهي تعني نوعا من الجمال السريعة العدو ، والمعدة للركوب خاصة ، وقطع المسافات الطويلة بسرعة قد تتجاوز 30 كلم في الساعة أحيانا .

(2) انظر جاك لاكور ، ج 3 ، ص 47 .

التنافس بين المغاربة والأسيقيين [1] ، ولا نعتقد بأن طموح المغاربة للاستيلاء عليها كان لأهميتها في حد ذاتها بقدر ما كان لغاية التحكّم في مصدر التجارة الأول مع السودان لجلب الذهب ، وقد أدت هذه المنافسة إلى تنظيم الهجوم المغربي على سنغاي واحتلالها من قبل جيوش المنصور .

لقد صعد المنصور إلى الحكم سنة 1577 ، وكان لا يزال شابا نشيطا وطموحا فنظم المملكة وقضى على الفتن ، وساد البلاد الأمن والاستقرار على أيامه ، فكان عهده من أزهى أيام السعديين بالمغرب ، وكان من أهم إنجازاته تنظيم الجيش المغربي وتزويده بأحدث أساليب القتال على أيامه ، فقلّد الأتراك في أساليبهم العسكرية ، وطعّم جيشه بعناصر أجنبية من الإسبان والأتراك والبرتغاليين ، وكان ينفق عليهم بسخاء حتى يتم إخلاصهم له .

وعندما بدأ في تهيئة مشروعه لغزو سنغاي لم يجد من المجلس الملكي استصوابا لما أراد أن يقوم به ، بحجّة أن بلاد السودان غير معروفة مسالكها للجيش ولا للحكومة ، والطريق الصحراوي شاق ، فكانت حجّته أن الجيش المغربي بلغ من التدريب والقوة ، ما لا يمكن لهم أن يتصوّروا عدم قدرته على أداء المهام التي تناط به ، خاصة وأن الاسلحة النارية التي لا قبل لجيش سنغاي بها [2] متوافرة لديه .

وقبل ذلك كان المنصور قد مهّد لمشروعه دبلوماسيا ، فبعث بهدية كبيرة للأسقيا تتركب من عشرة آلاف قطعة من الذهب ، ثم أجرى معه مفاوضات ودية أسفرت عن استئجار المغرب مملح تغزة لمدة سنة واحدة .

(1) يظهر أن المملح كانت على أيام مالي الأخيرة لا سلطة لأحد عليها ، فعندما مر ابن بطوطة بها (القرن الرابع عشر) وجد أن ملكيتها بيد قبيلة مسوفة المحلية ، ولكن في أيام الأساقي بذل هؤلاء جهدهم في امتلاكها على ما يظهر فأصبحت أملاكا أميرية ، يقول أحمد بابا في مخطوط له بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5259 الورقة 19 ما نصه « ولهم (أي ملوك السودان على أيامه) التغلب على بلد الصحراء إلى فزان » .

(2) السلاوي – الاستقصاء – ج 5 – ص 63 .

وفي نفس الوقت كان المنصور قد وفّر الجوّ لعدم تدخّل أمير البورنو في حالة استنجاد الأسقيا به ، إذا هاجمه المنصور ، فجرت بينهما مراسلات أسفرت عن اعتراف أمير البورنو بسلطة المنصور على الصحراء ، وكانت البورنو بعيدة عن الخطر المغربي ، حيث أنها تجاور تونس وكانت علاقاتها مع الحفصيّين قبل ذلك حسنة ، كما أنّ علاقاتها بالأتراك كانت على أحسن ما يرام ، فقد كانت أولى ممالك السودان حتى ذلك الوقت الذي أدخلت فيه الأسلحة النارية لجيشها ، وطلبت من الأتراك تزويدها بمدربين ففعلوا [1] . ومن هنا فإن تجاوبها مع مطامح المنصور إنما حصل بتلك السهولة لما كانت تدركه من أن الأمر لا يعنيها بشكل مباشر ، كما أنّه لا يتضارب مع مصالحها الحيوية .

بقي المنصور والأسقيا داود صديقين بعد أن قدّم المنصور هديته الضخمة ، ورأى داود أنّه من الأفضل له أن يتنازل عن الممالح بطريقة سلمية ما دام جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيش المغاربة ،وكان الأسقيا داود قد امتاز بأنه من أعظم الأسقيين حنكة ودراية بتسيير مملكته (توفي داود سنة 1582) .

وقد خلفه الأسقيا محمد الحاج ، ولم تطل أيامه في الحكم ولكن المنصور عاجله بهدية أخرى ضخمة ، وكلّف بتبليغها جماعة من أخلص رجاله ، وعهد إليهم في نفس الوقت بتسقط أحوال البلاد الداخلية ، وقوة جيشها ، وبعد رجوع هذه البعثة مباشرة علم بأن هناك اضطرابات قائمة في بلاد سنغاي .

يبدو أنّ ذلك قد حمل المنصور على أن لا يتأخر بإرسال الحملة الاستكشافية الأولى ، وبما أنه كان لا يعرف البلاد جيدا ويجهل المكان الذي توافرت الروايات على أنه غابة كثيفة توجد بها معادن الذهب ، فقد سارت على غير هدى ورجعت دون نتيجة [2] .

(1) سيكيني مودي – تاريخ إفريقيا الغربية – الحضور الإفريقي – باريس 1966 ص 68 .

(2) انظر ما سبق عهد الأسقيا (إسحاق الثاني) .

كانت تلك الحملة الأولى تتكوّن من عشرين ألف محارب [1] وقد أعطاها المنصور كهدف أول ودّان في منطقة الحوض الحالية ثم مجرى السنغال ومنه تصعد نحو الشرق حتى تمبكتو .

ولكن هذه الحملة كانت سيئة التنظيم وغير موفورة التموين الكافي لمدة طويلة ولذلك لم تستطع قطع الصحراء ، ونالت منها المجاعة والعطش ، فرجعت إلى المغرب .

ولما رأى المنصور أن إرسال الجيش لأهداف غير مضبوطة سلفا غير مفيد ، كما أن الإكثار من عدد الجنود في فترة الاكتشاف لا مبرر له ، غيّر طريقته ، ولكنه لم يتخل عن مشروعه . فأرسل حملة ثانية تتركب من مائتي فارس فقط ، سلاحهم البنادق ، وعيّن لهم هدفاً محدّدا هو تغزة بذاتها .

وقد تمكنت هذه الحملة من احتلال المنجم ، أما السكان فقد استولى عليهم الرعب ، فهرب بعضهم من وجه الحملة إلى تغزّة الغزلان في الجنوب ، والبعض الآخر لجأ إلى تاودني .

وبعد أن وجد رجال الحملة أنفسهم في مكان خال ، هجره سكانه ، فإنهم لم يقيموا إلاّ مدة قصيرة ، ثم عادوا إلى مراكش .

وبعد جلاء الجيش المغربي عن تغزة أمر الأسقيا بعودة العمّال إلى المنجم ، أما أثناء وجود الجيش المغربي بالمنطقة فقد ارتأى أن لا يجابهه بشيء . [2]

ولكن رغم هذا الفشل المضاعف الذي رآه المنصور في سنة 1584 حين إرساله حملة الاستكشاف الأولى ثم في عام 1586 بعد الهجوم على تغزة فإنه لم يرد أن يتخلى عن مشروعه .

(1) انظر لاكور ، ص 49 .

(2) نفس المصدر – ص 50 .



الحملات المغربية على سنغاي

الحملة الأولى

الحملة الثانية

الحملة الثالثة

وصادف أن التقى – وهو في فاس – سنة 1589 بأحد المغاربة الذي عاد لتوّه من بلاد سنغاي ، وكان قد أقام بها قبل ذلك عدّة سنوات في خدمة بلاط الأسقيا ، فزوّده بمعلومات مفصلة عن ضعف مملكة سنغاي واضطرابها في أواخر أيامها [1] ، وهذا ما دفع مولاي الذهبي على استئناف العمل الفوري لاحتلال سنغاي وامتلاك مواردها التي كانت تبدو أمامه أكثر مما هي في واقعها .

فبادر بارسال رسالة إلى الأسقيا إسحاق الثاني أثار فيها حقوقه في امتلاك الصحراء التي هي امتداد طبيعي للمغرب ، وأكد عليه بضرورة تسليم الممالح دون تريث للمغرب .

ويبدو أن قضية طموح المغاربة إلى احتلال البلاد قد أصبحت واضحة جدا في أذهان ملوك سنغاي ، بعد أن أقدم المغاربة مرارا وخاصة في عهد المنصور على القيام بعدة محاولات مكشوفة للتعدي ، وفي نفس الوقت كانوا يظهرون حرصهم على مصادقة أمراء سنغاي [2] .

ولا ندري ما إذا كان إسحاق قد رأى في كثرة أعداد جيشه ما يكفل له الدفاع عن حوض بلاده ، أم أنه أقدم على ما أقدم عليه كفورة من فورات الغضب التي تنتاب الشخص حينما يلزم نفسه الصبر أمام تعدّيات الآخرين ، أكثر مما يمكن لها أن تتحمله .

وعلى كل فإن الأسقيا إسحاق أجاب على رسالة المنصور إجابة سلبية ومثيرة ، فأرفق جوابه بخوذة عسكرية وبسلاسل يكبح بها العبيد [3] .

أما المنصور فقد وجد في جواب الأسقيا إسحاق ، وفي الأخبار المتوافرة لديه

---

(1) انظر لاكور ، ص 50 .

(2) كان من الأسباب التي يتذرع بها المنصور في موقفه حيال سنغاي كونه خليفة للمسلمين وشريفا في آن واحد ، مما يحتم على الأساقي الخضوع لإرادته . انظر السلاوي – الاستقصاء – ج 5 – ص 63 .

(3) انظر – لاكرو – ص 50 .

عن تضعضع سنغاي ، الفرصة الذهبية للهجوم ولكنه هذه المرّة عمل جميع الحسابات لإرسال الحملة ، فانتظر حتى نهاية موسم المطر ، ثم وجّه في نوفمبر 1590 جيشا تعداده ثلاثة آلاف فقط ، ولكنه اختارهم من بين أحسن عناصر جيشه وزوّدهم بالمدافع والبنادق ، وجعل على القيادة الباشا جودار الإسباني ، أما الهدف الذي احتوته تعليماته المدقّقة فهو احتلال غاو وتمبكتو (عصبي الحياة في سنغاي) والقضاء النهائي على دولة سنغاي وضمّ حدودها للمغرب .

ولا ندري كم بقيت الحملة في الصحراء [1] ، كما لا ندري عدد من مات قبل الوصول ، ومن المؤكد أنها فقدت عددا لا بأس به من أفرادها لقساوة الصحراء وطول الطريق .

ولما قربت الحملة من غاو (العاصمة) لاقاها جيش سنغاي في تنديبي (إلى الشمال قليلا من العاصمة) ، ويقال إنه كان يتركب من ثلاثين ألف راجل واثني عشر ألفاً وخمسمائة فارس ، وهو عدد لا نستبعده لأن الأسقيا جنّد كلّ ما في استطاعته للدفاع ، وعدد الجيش هو الذي نعتقد أنه كان قد شجعه فقط على التصلب في وجه المنصور .

ولقد انكسر جيش سنغاي سريعا أمام الجيش المغربي لانتظام هذا الأخير وحداثة أسلحته النارية التي لم يكن لجيش سنغاي عهد بها من قبل . وقد استماتت جيش سنغاي استماتة تامة ، حتى أبيد معظم أفراده ، وفي هذا المقام ، نجد أوصافا واسعة لدى المؤرخين المغاربة من أمثال اليفراني والسلاوي وغيرهما [2] ، وكلها

---

(1) تتفق روايات الرحالة والتجار مثل ابن بطوطة والحسن الوزاني (ليون الإفريقي) وغ‍ـ هما ، على أن المسافة من سجلماسة إلى تمبكتو تقطعها القوافل في ستين يوما ومراكش غير بعيدة على سجلماسة ، كا أن الجيش لا يمكن أن يكون شبيها بسير القوافل المحملة ، ولذا يمكن أن نقدر بأن الحملة قضت حوالي شهرين قبل الوصول إلى سنغاي .

(2) انظر أيضا تاريخ الدولة السعدية ، لمؤلف مجهول ، تحقيق جورج كولان ، طبع الدار البيضاء ، 56 وكذا تاريخ المغرب العربي ، للوزير الغرناطي ابن الخطيب ، تحقيق الكتاني ، طبع الرباط ، 62 . (صفحات 16 – 18 و 39 – 41) .

تشير إلى البلاء الحسن الذي أبلاه جيش سنغاي والمصائب التي تعرض لها على أيدي رجال الحملة .

وقد دخل الجيش المغربي إثر ذلك غاو دون صعوبة ، وبعدها تمبكتو ، وتلقى الطاعة من معظم جهات النيجر الأوسط .

وفي أول تقرير أرسله جودار إلى المنصور أكد لمولاه خيبة المسعى ، حيث أنّ البلاد فقيرة ، وليست مدنها إلا قرى صغيرة يلتقي فيها التجار ، أما الذهب فإنه يأتي به آخرون من مناطق بعيدة مجهولة لدى معظم سكان سنغاي [1] وقد أرسل المنصور بعثة للتحقيق في مدى صحة كلام جودار ، فأكدت صحته .

ولما تأكد للمنصور أن عمله لا طائل من ورائه ، يبدو أنه لم يعد يهتم بالبلاد وأهمل شأنها بعد ذلك . وقد أكدت وجاهة هذا الرأي كتابات كل من القاضي محمود كعت وأحمد بابا من أنّ أفراد الجيش المغربي انسجموا بعد ذلك في الحياة العامة ببلاد سنغاي ، وراح رؤساؤهم في كثير من الأحيان يتقاتلون ويتحاربون كما كان يفعل الأمراء المحليون ، أما ارتباطهم بالمغرب فقد بقي شكليا ، كما أنّ الملك لم يعد يهتم بأمرهم بعد أيام الحملة الأولى .

وقد استؤنفت التجارة عن طريق القوافل بعد ظروف الاضطراب الأولى ، ولكن في وقت غلبت عليه قلة الأمن والفوضى فلم يعد للتجارة مع السودان أبدا ذلك الازدهار الذي كانت عليه في السابق .

وإذا كان الهجوم المغربي على سنغاي سنة 1591 قد أضعف ظروف التجارة في بلاد السودان الغربي ، فإنّ ذلك العام رأى نهاية مملكة سنغاي إلى الأبد ، ويبدو للباحث أنّ عاملين أساسيين كانا في مقدمة أسباب هذا الحادث : أولهما ضعف

---

(1) يشير اليفراني إلى أن المنصور سمي بالذهبي لكثرة ما توارد عليه من ذهب السودان ... إلخ . ويرى جوليان (تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص 480) أن المنصور موه على العالم الخارجي وعلى شعبه بكثرة ذهبه من السودان ، وربما كان له مورد مهم من الضرائب فقط.

المملكة في آخر أيامها نتيجة الخلافات والنزاع المستمر بين أفراد البيت المالك. أما ثانيهما فهو طموح المنصور إلى الحصول على مورد لا ينضب من الذهب ، وإذا كان تخاذل الأسقيين المتأخرين عن تنظيم دولتهم قد أضعفها أمام الخطر الخارجي فإنّ عدم توافر الثروة التي كانت الهدف الأساسي من حملة المنصور ، قد دفعه إلى إهمال شأنها ، وزاد تنازع الجنود على الرئاسة فيها في السير بها نحو الإهمال والتجزؤ التدريجي بعد ذلك ، فأصبحت كأن لم تكن بالأمس .

الباب الثاني

الأوضاع الحضاريّة والاجتماعيّة

الفصل الأول

مراكز الحضارة

إن الظروف الحضارية وطبيعة الحياة ، كما يجب أن تفهمها في بلاد سنغاي ، لا تعني كلّ البلاد ، وإنمّا تعني مراكز الاستقرار المدني [1] فيها ، حيث أن معظم جهات المملكة إذا استثنينا مواقع المياه على الآبار وحول النيجر وروافده ، وكذا البحيرات الواقعة عند منحناه ، هي عبارة عن صحارى كان يندر فيها وجود السكّان ، ولا يرتادها إلاّ الرّعاة من الطوارق والسودانيّين انتجاعا لمرعى لحيواناتهم ، وإذا أقاموا فيها فلفترة محدودة ، سنة على الأكثر ، أو أياما معدودات فقط . [2]

فقد كانت بعض المراكز الحضارية إذن ، هي وحدها التي ازدهرت فيها الحياة بشكل بارز ، وأعطت للبلاد طابعها الدّائم ، وقامت فيها المؤسسات الإدارية والاجتماعية ، كما كثر السكّان بها واستقرّوا وتبادلوا البضائع والخبرات والمعارف .

---

(1) نعني بها هنا مراكز الاستقرار في المدن الهامة وما يتصل بها من الضواحي .

(2) المتتبع لكتابات السعدي وكعت يجد أنه خلا مناطق النيجر وروافده ، كان السكان يغلب عليهم طابع البداوة والتنقل .

ولذا فإن الحديث عن أهمّ تلك المراكز يبدو من الضرورة بمكان لأنه يطلعنا على دور تلك المراكز في حياة البلاد ، كما يعمّق نظرتنا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيها .

وأهم تلك المراكز الحضارية في أيّام حكم الأسقيين بسنغاي ، هي :

أ ـ تمبكتو :

يعني اسم هذه المدينة (بئربكتو) (1) ، وقد جاءت هذه التسمية من أنّ ذلك المكان كان قد اتّخذه الطّوارق مركزا للانتجاع بمواشيهم في فصل الجفاف بالسّودان ، حوالي بداية القرن التاسع الميلادي وقد حفروا فيه بئرا ، ثم تكاثرت الآبار بعد ذلك بالتدريج ، وصار التجّار يتلاقون في ذلك المكان ويقيمون من حوله للرّاحة أحيانا .

ومن التقاءاتهم العديدة هناك تحوّل المكان إلى سوق للتبادل التجاري بين تجار الشمال والجنوب .

وفي القرن الحادي عشر حين ضعف مركز والاتا ، بعد أن غزا المرابطون غانا ، وربما قلّ الأمن في تلك الجهات أيضا ، أصبح مكان تمبكتو منذ ذلك الحين مركز الالتقاء والتبادل التجاري الأوّل في السودان الغربي كلّه .

وقد تكاثر سكانها شيئاً فشيئاً منذ ذلك الحين ، وبنيت فيها المساجد ، وقصدها كثير من العلماء وتحلّق حولهم العديد من طلاّب العلم ، فأصبحت تمبكتو مركزا ثقافيا إلى جانب كونها مركزا تجاريا ، غير أن تحوّلها إلى مركز تجاري كان قد سبق

(1) يذهب عبد الرحمن السعدي (ص 224) إلى أن بكتو هو اسم امرأة، كان قد عهد إليها الطوارق بحراسة بئر كانت توجد في ذلك المكان .

ازدهار الحركة الثقافية بها ، وكان عماد تكوّنها كمدينة منذ البداية .

وقد استمرّ شأن تمبكتو في التعاظم ، طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وفي نهاية القرن السادس عشر بدأت تضعف بعد أن غزا المغاربة البلاد ، واتّخذ جيشهم منها مقرّا لاستقراره فقد ارتحل عنها عدد من أبرز علمائها (1) ، وقلّ بها الأمن ، كما قلّ مجيء القوافل التجارية إليها بشكل محسوس (2) .

ونكاد لا نعرف شيئا عن تمبكتو بعد القرن السادس عشر ، غير أنّنا رغم قلّة المصادر في هذا الشأن ، لا نتخيّل أمر المدينة إلا في حالة من الضعف ، لأنّه في تلك الفترة أصبح الباشوات أحرارا عن المغرب في تصرّفهم بالسّودان ، كما أنّ هجومات البدو ازداد خطرها على المدينة بعد أن انتهى عهد سنغاي ، وقامت على أنقاضها دويلات صغيرة متنافرة (3) .

وفي القرن التّاسع عشر زار تمبكتو الرحّالة بارت ، فوجدها قد تحوّلت إلى قرية صغيرة لا شأن لها ، وبها سوق يتلاقى فيه التجّار ليتبادلوا عددا من البضائع الزراعية ، وقليلا من المصنوعات (4) .

أما في القرن الخامس عشر وفي أيّام الأسقيا محمّد الكبير بالذات ، فقد أقام بها الحسن الوزاني (ليون الإفريقي) (5) أياما ، وقد وصف لنا الحياة فيها ، فأثبت

(1) كان من أشهرهم في ذلك الوقت أحمد بابا التمبكتي ، صاحب التآليف العديدة في الفقه والأدب . وجماعة آخرون من العلماء ، سيقوا إلى مراكش بأمر من مولاي أحمد المنصور بعد أن أبدوا ضجرهم من أعمال الجيش المغربي بالسودان .

(2) أنظر السعدي ، ص 23 .

(3) احتوى كتاب محمود كعت ، كثيرا من التفاصيل عن حالة الفوضى التي آلت إليها المدينة في العهد المغربي .

(4) انظر رحلة بارت وكذا تفاصيل حال تمبكتو بعد عهد سنغاي في كتاب دولافوس – أعلى السنغال ج 2 .

(5) كانت رحلته الأخيرة لبلاد السودان قد تمت في سنة 1507 .

أنها كانت مدينة عظيمة الشأن ، وفيها كثير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات والكتب ، وفيها كذلك عدد كبير من حوانيت الحياكين والحدادين والجزارين والحرازين .

وكانت تعقد في رحبتها الواسعة سوق فيها كثير من البضائع القادمة من المغرب ومن مصر وكذا من أوروبا الجنوبية والغربية عن طريق المغرب [1] .

وأنفق شيء في أسواقها على ذلك العهد كانت الكتب والملح والخيول ، وأغلى بضائعها جميعا كانت الكتب ، مما يدل على المستوى الثقافي الذي أصبحت عليه المدينة آنذاك ، وكلها كانت تستورد من المغرب ومن مصر .

وكانت تمبكتو آنذاك مقسمة إلى أحياء ، وفي كل حي منها يسكن تجار بلد من البلدان الإسلامية التي تقصد قوافلها السودان فهناك تجار غدامس ولهم حي خاص بهم ، وهناك تجار توات ، ولهم حي خاص بهم كذلك ، وهناك خليط من التجار الآخرين ولهم حي خاص بهم . أما تجار بلدان المغرب فكانوا يتوزعون بين أحياء جديدة . [2]

وكان لسان السكان لغة سنغاي ، أما العربية فكانت لغة الثقافة والإدارة معاً ، كما يتحدث بها الناس في السوق كلغة شائع استعمالها أيضا . [3]

وكان والي تمبكتو من قبل الأسيقيين في ذلك الوقت يتوافر لديه أكثر من ثلاثة آلاف جندي تحت تصرفه ، وعند قدوم القوافل يخرج محصل الضرائب

(1) جمهوريات إيطاليا – فرنسا – إسبانيا – وأنفرس (في باجيكا الحالية) بصورة خاصة .
(2) انظر – ليون الإفريقي – ص 109 .
(3) نفس المصدر .

فيتلقاها خارج المدينة ، ويستلم منها الواجبات الضرائبية قبل أن تدخل المدينة . كما كان يقوم بنفس العملية حين خروجها كذلك .

وكان من عادة الوالي أن يصطفي لنفسه من تجار الخيول واحدا من أحسنها ، فيأخذه لنفسه ، أما إذا أخذ بعد ذلك غيره ، فإنه يدفع ثمنه حسب السعر الجاري في السوق [1] .

وقد اشتهرت تمبكتو بحركتها الثقافية على النمط الإسلامي في السودان الغربي كله ، وذلك طيلة أيام مالي وسنغاي .

ويفهم مما أورده أحمد بابا أن العلماء بها كانوا يحظون باحترام زائد [2] ، أما طلاب العلم فقد كان كل منهم يجد من القاضي ومن بعض الموسرين ما يساعده على بلوغ مراده [3] .

وكان طلبة القرآن بها كثيرين ويأتيهم الأولاد الصغار بكثرة ، ورغم وجود عديد منهم فإن كل واحد يجد الإقبال الكافي عليه ، لكثرة الأطفال ، وكثرة سكان المدينة آنذاك ، حيث أنهم كانوا يقدرون بأكثر من ثلاثين ألف ساكن [4] وكان لطلبة القرآن وشيوخهم حركة دائبة في القراءة على الأموات والحضور في مختلف الأفراح العائلية أيضا .

وكانت عائلة آل أغيت [5] هي التي تتوارث القضاء في تمبكتو على أيام

(1) انظر اليوم الإفريقي ص 109 .
(2) (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ص 104 .
(3) أنظر السعدي ص 23 .
(4) انظر دولافوس – أعلى السنغال والنيجر – ج 2 – ص 411 .
(5) أصلها سراكولي من ماسينا ، وقد سكنت والاتا لفترة ، وكانت لها فيها شهرة أيضا ، وهذا قبل انتقالها إلى تمبكتو في القرن الحادي عشر ، إليها ينتسب أحمد بابا .

الأسيقيين ، وذلك لما اشتهر به أفراد تلك العائلة من تمرّس بالعلم وعلوّ كعب فيه .

وقد كانت دور تمبكتو على أيام الأسيقيّين مبنية بالطوب ومغطاة بالأخصاص . أو بالخشب والقش والطين في شكل طبقات ، أمّا دكاكين أصحاب الحرف في السوق فقد كانت كلّها مغطّاة بالأخصاص [1] فقط .

وهذا باستثناء بناءين بها بنيا بالحجارة ، أحدهما من أيّام مملكة مالي وهي دار كان قد بناها لكنكان موسى ، الساحلي الأندلسي [2] .

كما كان يوجد بالمدينة آنذاك مساجد عديدة ، كان أكبرها هو مسجد دينكربير ، وهو ثاني بناية بالمدينة بنيت بالحجارة والآجر حتّى ذلك الوقت ، وقد بناه الساحلي أيضا على أيام كنكان موسى ملك مالي [3] .

أمّا مسجد سانكوري الشهير فقد كانت بنته في الأصل سيدة فاضلة ، ربما في أيام الأساقي الأولى ، ثم أعيد توسيعه عدّة مرات ، كان آخرها على أيام الأسقيا داود [4] .

وقد كان من أشهر أبناء تمبكتو في العلم ، الذين بقيت بين أيدينا آثارهم حتّى

---

(1) ليون الإفريقي – ص 111 .

(2) في سنة 1325 .

(3) لم يبق من أثر لهذا المسجد اليوم لأن القاضي العاقب (1507 – 1583) هدمه وبنى في مكانه مسجدا أكثر اتساعا ، لا تزال آثاره قائمة في تمبكتو حتّى اليوم .

(4) بناء السيدات الغنيات للمساجد والمدارس في تاريخ الاسلام ، سنة مرعية منذ القديم ، فجامعة القرويين ، بنتها أول الأمر السيدة فاطمة الفهرية ، كما أن عددا من الخاتونات هن اللاتي كن بنين عددا من المساجد والمدارس في الموصل وبغداد خلال العهد العباسي والأيوبي بشكل خاص . وقد انتقلت هذه العادة إلى السودان أيضا ، مما يبين عن مدى التأثر الذي أصبح عليه هذا العهد ، بالحضارة الإسلامية وتقاليدها .

اليوم ، أحمد بابا [1] والسعدي (صاحب تاريخ السودان) والقاضي محمود كعت (صاحب تاريخ الفتّاش) .

وقد عاش الأول في أواخر أيّام الأساقي بسنغاي ، وعاصر الحملة المغربية على السودان ، ثم حمل أسيراً إلى مراكش ، وبعد أن أفرج عنه رجع لتمبكتو وبها مات ، ولا يزال لم يعرف بالضبط مكان قبره بها حتّى الآن .

أمّا الأخيران فقد عاشا أيضاً خلال العهد المغربي ، وتركا لنا أثرين ، يعتبران من بين أهمّ المصادر الأساسية عن تاريخ بلاد السودان قبل وصول الأوروبيّين [2] .

وقد كان لتمبكتو على أيام الأسيقيين ميناء خاص على النيجر هو ميناء كابارا ، ومنه كانت تحمّل القوارب بالبضائع التي تصدّر إلى مختلف البلدان الواقعة حول النيجر ، كما يعسكر به قسم هام من جيش البحر السنغائي باستمرار ، ويبعد الميناء عن المدينة إلى الجنوب بحوالي اثني عشر ميلا .

ولقد أثّر حكم السنغائيين في تمبكتو منذ أن فتحها سني علي سنة 1468 وظلّت تحت حكم الأساقي بعده حتّى نهاية عهدهم في عام 1591 . فسكنها كثير من السنغائيين وغلبت لهجتهم في الاستعمال بها .

وقد أصبحت تمبكتو مركز إقامة الباشوات المغاربة بين 1591 و 1780 . ثم

---

(1) من أهم مؤلفاته الموجودة بين أيدينا اليوم : (أ) تطريز أو نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو في تراجم المالكية ، وقد كتبه كتكملة لكتاب ابن فرحون في نفس الموضوع . (ب) معراج السعود في حكم مجلوب السود وهو لا يزال مخطوطا ، كما أن له مؤلفات عديدة في الفقه والتوحيد والنحو بعضها موجود والآخر مفقود .

(2) نعرف من أسماء العلماء التمبكتيين في تلك الفترة أحمد والد أحمد بابا وقد توفي سنة 1524 ومحمد، براها يورهو الذي درس عليه أحمد بابا حين توفي أبوه وقد مات عام 1539 وأبو حفص عمر الذي حمل مع أحمد بابا للمنفى في أيام المغاربة .

خضعت لفترة إمارة سيغو البمبارية بعد ذلك حتى قدوم الفرنسيين في أواخر القرن التاسع عشر .

وفي أوائل هذا القرن كان سكانها يبلغون 5000 نسمة ، وبها سبعة أحياء أما مظاهر الحياة بها فقد ظلت أشبه ما تكون في القدم (1) .

ب – جنّي :

كان مكان جني في القرن العاشر مكانا خصبا يقصده الرعاة بمواشيهم ، ويقيم فيه قليل من السكان ، وبوسطه قرية صغيرة يسكنها فرع من قبيلة السونينكي ، وقد أسلم رئيسهم في نهاية القرن الثاني عشر (2) .

وحين بدأ ازدهار تمبكتو صارت تلك القرية مكانا لالتقاء التجار والتبادل التجاري بينهم ، وأصبحت القوارب تحمل إليها البضائع من تمبكتو باستمرار فتجد فيها رواجا ، حيث أن تجار الجنوب يأتون جنّي ليأخذوا ما يحتاجونه من بضائع الشمال ويبيعون لتجار العبيد كما يبادلونهم بالذهب .

وهكذا يمكننا اعتبار ازدهار جني قد ارتبط بازدهار تمبكتو ، فمنذ منتصف القرن الثاني عشر أصبحت جني ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كلّه ، بعد كل من تمبكتو وغاو (3) .

أما في الميدان الثقافي فقد كانت تحتلّ الدرجة الثانية في الأهميّة بعد تمبكتو . فكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم ، ولقد كانت أهميّتها تجبر السلاطين من

---

(1) أنظر دولافوس – أعلى السنغال والنيجر – ج 2 ص 275 .
(2) نفس المصدر – ص 277 .
(3) نفس المصدر .

الأساقي على احترامها ، فكلّما مرّ جيشهم بها فإنّهم كانوا يلاقون قاضيهـا ويقدّمون له الهدايا أو يساعدونه على بناء مأوى لطلاّب العلم أو بناء مسجد من المساجد (1) .

وقد بني أوّل مسجد بجنّي بناء على تصميم أحد المغاربة يدعى معلوم إدريس ، وكان معاصرا للساحلي ، وربما أحد مساعديه . ويقوم مسجد جني الحالي على أطلال ذلك المسجد الذي بناه معلوم إدريس (2) .

وقد حافظت جني على استقلالها تحت رؤساء قبيلة السونكي حتى سنة 1473 ، وهي السنة التي أدخلها فيها سني علي تحت حكم سنغاي ، أمّا في أيام مالي ، فقد كانت مسالمة لمالي ، ولكن لم تدخل تحت سلطتها رسميا على ما يبدو (3) .

أما في أيام الأساقي فقد تعاظم سكّانها وكثر التجّار بها ، ودانت تمبكتو في الأهمية ، وفي أيام المغاربة عيّن عليها قائد يتولّى شؤونها وحدها ، ممّا يدل على الكبر والأهميّة التي وجد المغاربة المدينة عليهما (4) .

وبعد ذلك خضعت جني بدورها لإمارة سيغو حتى عام 1818 حيث احتلّها شيخو حمّاد وأدخلها ضمن إمبراطوريته ، التي كان مركزها في ماسينا . ثم دخلت تحت نفوذ المملكة التي شكّلها الحاج عمر ، وأخيرا احتلّها الفرنسيون سنة 1893 .

ونعرف من العلماء الشهيرين في جنّي على أيام الأساقي موري ماجا الذي كان يباشر التعليم بمساجدها في القرن الخامس عشر ، وقد ذكره السعدي كعالم بارع في

---

(1) أنظر السعدي (ص 38) والفتاش (ص 64) بصورة خاصة .
(2) دولافوس – أعلى السنغال ج 2 – ص 280 .
(3) ابن بطوطة (الرحلة) ، ص 73 . وابن خلدون (التاريخ) ج 6 . ص 318 ، وليون الإفريقي ج 1 ، ص 17 ، أثناء الحديث عن وجود مملكة يني في منحنى النيجر .
(4) أنظر كعت . ص 29 .

تدريسه ومتمكن من معلوماته ، ثم القاضي محمد سانو الذي كان يباشر القضاء بها في النصف الأوّل من القرن السادس عشر . وكذلك العبّاس كبّي ومحمد بارها يورو ، الذي خلفه في القضاء سنة 1552 .

وأخيراً فإن ممّن أنجبتهم جنّي من القضاة البارعين هو أحمد طورفو الذي ولد بالمدينة وتولّى بها منصب القضاء فبرع فيه .

وإذا أردنا أن نستقصي ما كتبه الحسن الوزاني عن جنّي على أيام الأساقي (1) وجدنا المدينة غالب أبنيتها من الطّين ومن الأخصاص، ولكن يقصدها كثير من التجّار ويسكنها كثير من العلماء والمدرّسين والطلاّب ، وهي تتّسع لكلّ الوافدين عليها ، بالرّغم من أنها ليست إلاّ قرية صغيرة إذا قيست بمدن المغرب في ذلك الوقت .

ويأتي إليها كثير من بضائع الشرق والمغرب وأوروبا ، وتصلها في الغالب عن طريق تمبكتو ، حيث تسافر إليها يوميا القوارب المحمّلة بالبضائع عن طريق النيجر .

ج ـ غاو

غاو هي المدينة التي اتّخذت منها دولة سنغاي عاصمة لها منذ أيّام آل ضياء الأولى .

وفي أيام الأسيقيين بلغت غاو أقصى ازدهارها ، فقد وصفها ليون الإفريقي بالمدينة العظيمة في حين وصف تمبكتو بالمدينة فقط ، ثم أضاف بأن غاو بها قصور الملك ورؤساء دولته ، ولذا فهي من أجمل المدن في السودان الغربي كلّه .

---

(5) طبعة شيفر – المجلد الثالث ص 289 – 290 .

وحسب الإحصاء الذي أجري في سنة 1585 فقد بلغت منازل غاو 7626 دارا مبنية بغير الأخصاص ، أما الأكواخ فإنها لم تحسب وكانت كثيرة (1) ، واعتمادا على هذا الإحصاء قدّر موني سكان غاو في أيام ازدهارها على أيام الأسيقيين بخمسة وسبعين ألف نسمة (2) .

ومهما يكن فإن غاو كانت على أيام الأسيقيين قد بلغت درجة كبيرة من الازدهار ، وكانت القوافل التي تأتي من جهة الشرق تقصدها قبل تمبكتو ، وأما القوافل التي تأتي تمبكتو فإنّ كثيرا من بضائعها ينقل إلى غاو ، وفي ذلك الوقت الذي قدّر فيه سكّان غاو بـ 75 ألفاً فإن سكان تمبكتو لم يكونوا يزيدون على الثلاثين ألفاً . وهذا يدلّ على أن غاو كانت أكثر سكاناً من تمبكتو ، لأنّ بها مركز الإمبراطورية مما جعلها تصبح المدينة الأولى في عدد السكان .

وقد اختصّت بالإضافة إلى ذلك بأن القوافل التي تأتي من بلاد الحوصا كانت كلّها تقصد غاو .

ولكنّ غاو كان يسكنها التجار ورجال الدولة ، أكثر ممّا كان يوجد بها من طلاب العلم والأساتذة ، كما أن النشاط الصناعي بها لم يزد على ما كان يوجد بتمبكتو .

ومن هذا تبدو أهمية غاو في كثرة السكّان وفي كونها العاصمة للإمبراطورية أكثر من كونها دار ثقافة .

وقد بقي قائما بها حتى الآن من ذلك العهد مقبرة الأساقي والمسجد المتصل بها ،

---

(1) انظر فيما يخص هذا الإحصاء كعت ص 261 . وقد أجرى ذلك الإحصاء جماعتان من سكان المدينتين ، وكل جماعة كانت تفخر بكبر مدينتها وتتباهى على الجماعة الأخرى بذلك .

(2) موني – كشف جغرافي – ص 499 .

كما اكتشف بها عديد من أواني الأكل والأسلحة والحلى التي كان يستعملها الموسرون من الأساقي وموظفيهم . وكلها تبين عن مقدار البذخ الذي كانت تعيش فيه الطبقة الحاكمة على أيام الأسقيين [1] .

وإلى جانب هذه المراكز الكبرى توجد مراكز أخرى صغيرة مثل والاتا ، تغزّة ودندي ولكن الحياة في كل منها إنما كانت صورة مصغرة عن الحياة في المدن الكبرى ، كما أنها تستمد نشاطها من المدن الكبرى كذلك ، ولم يكن لها دور خاصّ . أما البوادي فقد كان أغلبها قفرا ويغلب على حياة السكان فيها التنقّل . [2]

ومن هنا فإن أهمية المدن الكبيرة تتمثل في كونها المراكز الحضارية الأولى بالمملكة ، وبالنظر لما لذلك من أهمية بالنسبة لموضوع البحث ، فقد خصّصناها وحدها بالحديث .

(1) حول تفاصيل نتائج الحفريات التي أجريت في غاو ، حديثاً ، ونتائجها ، أنظر موني في الكشف بصورة خاصة .

(2) هنا ما تثبته مصادر ذلك العهد وفي مقدمتها كتابات السعدي وكعت .

الفصل الثاني

طبقات المجتمع

1 — مفهوم الطبقية وحدودها

كان مجتمع سنغاي واضح الطبقية [1] . ولكن هذه الظاهرة لم تكن ذات حدود مغلقة بحيث لا يستطيع الفرد فيها أن يرقى من طبقة إلى أخرى ، ف (علي فلن) الذي أصبح مستشارا لأسقيا الحاج محمد الأول وأمين سره كان في البداية عبدا له[2] وقد حدث أن أحد ملوك سنغاي استقبل موكب الحجيج على عادتهم في ذلك ، وقبّل يد أحد العبيد الذي كان بينهم ، فأراد أحد حرّاس الملك أن يؤدب العبد الذي مدّ يده للأسقيا دون أن يعرف أنه عبده ، فكان هذا سببا في أن الملك أعتق ذلك العبد ، وأعتق خمسين نفسا من قبيلة أمه ، وخمسين نفسا من قبيلة أبيه أيضا ، وأسقط عنهم جميع وظائف السلطنة [3] . وجاءت عجوز إلى الأسقيا داود تطلب منه أن يبيع أولادها — وكانوا عبيدا له — إذا باعهم ، إلى مكان واحد ، وأن يهبهم إذا أراد ذلك ، إلى مكان واحد ، حتّى لا يتفرقوا ، فأجابها الملك :

(1) ديشمب — إفريقيا السوداء قبل الاستعمار — (المطابع الجامعة) باريس ، 1962 ص 49 .

(2) كعت : ص 60 .

(3) المصدر نفسه ص 111.

لقد أعتقتهم شكرا لله » ، وكتب لهم وثيقة بعتقه لهم ، شهد بها الحاضرون ، وأصبحوا من ذلك الحين أحرارا [1] .

وكانت درجة العبد أو الخادم الاجتماعية ترتفع بارتفاع درجة مالكه أو مستخدمه ، ومن ذلك أن زناجيّة الشريف الحسني علي بن مولاي أحمد بن عبد الرحمن أقر الأسقيا الحاج بن داود والي اقليم تندرم أن يعفيهم من جميع وظائف السلطنة احتراما لمقام سيدهم الشريف [2] .

كما أن عبيد الأمراء والولاة وخدّامهم ، كانوا يرتكبون من أنواع الاعتداء والتسلّط ما لا يجرؤ غيرهم من العبيد والخدّام على إتيانه ، فقد حدث في أيام الأسقيا الحاج محمد الأول ان أعتق جماعة من الذين كان قد استرقّهم سني علي. وقد جاء في عهده لهم بالعتق : (... ويمسك كل جائر وفاجر جوره من جندنا وخدمنا الجائرين وعبيدنا ورسلنا ، فلا يقر بهم بضيم ولا بتحقير وتصغير ...) [3] . وعلى عكس ذلك ، فإن عبيد النبلاء وخدّامهم ، لم يكن يحقّ لهم أن يتجاوزوا حدودهم تجاه عبيد ومملوكي بقية النبلاء ، كما أن عبيد وخدم بقية الأفراد العاديين ، لا يجوز لهم أن يأتوا من الأعمال ما يجوز لغيرهم من العبيد أو الخدم الذين ينتمون إلى الطبقات العليا ، فقد حدث في عهد السلطان محمد بان ، أن خلافا نشب بين نبيلين من الأساقي سببه أن أحدهما سرق عبده ملحفة جارية الآخر ، وقد رفض صاحب الغلام تسليمه ليعذّبه صاحب الجارية حتى يعترف بذنبه أمامه ، فقام صاحب الجارية بهجوم مباغت على خصمه ، وقد تطور هذا الخلاف إلى نزاع بين الأساقي فني فيه خلق كثير ، ووقعت معارك وخلافات أدّت إلى إضعافهم جميعا [4] .

(1) كعت ص 102 .
(2) نفس المصدر ، ص 123 .
(3) المصدر نفسه ، ص 73 .
(4) المصدر نفسه ، ص 133 .

2 ـ الطبقة الأولى وامتيازاتها

إن الطبقات الاجتماعية الكبرى ، كما يستطيع أن يتبينها الباحث كانت كما يلي : طبقة العائلة المالكة والأرستقراطية الرسمية ، والطبقة الوسطى والطبقة الثالثة [1] . وكل منها كان يضم عدّة شرائح اجتماعية عديدة . ويأتي على رأس تلك الفئات أفراد العائلة المالكة وفئة الأرستقراطية الرسمية المؤلفة من الحاشية والنبلاء والقواد وولاة الأقاليم . وقد تمتّعت هذه الطبقة بامتيازات عظيمة دون بقية الفئات ، فقد اختصّت وحدها بالوظائف الكبرى ، حتى أنّ بعض المقاطعات كانت تخضع لأسرة واحدة من الحكّام بالإرث [2] ، كما أن الأسقيا محمد الأول عندما ذهب إلى الحجّ سنة 902 هـ . عيّن على المملكة أحد إخوته نائبا له ، وحين تولّى الملك . وزّع عدداً من ولايات الأقاليم على أبنائه [3] . ولا نجد في قوائم الولاة سوى ألقاب النبالة مثل (فاري) و (فرم) التي كانت تطلق على الوجهاء والمتنفّذين دون سواهم .

وكانت هذه الطبقة أقل الطبقات عددا ، ولكنها كانت أكثرها ثروة ، ولذلك كانت تعيش في ترف لا يدانيها فيه أحد في المجتمع . ذكر صاحب تاريخ الفتاش أن الأسقيا داود كان يجلس في يوم الجمعة (على عاداتهم وعبيده الخصيان واقفون على رأسه ، وكانوا نحو سبعمائة ، وعلى كلّ واحد منهم لباس الحرير ، وإذا أراد أسقيا أن يبصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان ، ويبسط له كمّه ويبصق فيه ، ثم يمسح فاه من النخام) [4] .

إن المتتبع للمصادر السودانية من ذلك العهد [5] ، يخرج بنتيجة واحدة ، وهي

(1) أطلق مصطلح الطبقة الثالثة منذ أيام الثورة الفرنسية ، وهو يعني بالضبط ما كان يعرف عند العرب بـ (العامة) .
(2) نعيم قداح ، ص 100 .
(3) وهذا بالرغم من وجود جماعة من بطانته عرفوا لديه بالإخلاص وحسن السيرة كعلي فلن وغيره .
(4) كعت – ص 114 .
(5) كتابات السعدي وكعت ، بالدرجة الأولى .

أنّ الطبقية ، كانت تستمد جذورها من الواقع القبلي القديم ، ولذا كانت تتسم بالمرونة ، فتقبل الولاء والأفراد الذين تضمهم الحاشية ، كما أنّ الأشخاص الذين اكتسبوا من الثقافة مقداراً معينا أو انتسبوا لها بشكل من الأشكال ، استطاعوا بسرعة أن يصبحوا في زمرة الطبقات المرموقة ، كما سيتبيّن معنا ، فيما يلي :

وكان الملك إذا جلس إلى قومه تحيط به بطانة كبيرة من الحاشية والحجاب وكبار الموظفين ، «والزمار يزمرون بين يديه».[1] وعند موت أحد النبلاء من هذه الطبقة كانت تجري مراسيم وتصرف مبالغ خاصة ، تتميز بالضّخامة التي تتناسب وثراء الفقيد ودرجته الاجتماعية المتميّزة، فعندما مات أحد النبلاء على أيام الأسقيا داود (شرع في غسل جنازته، وأتى بثلاث شقوق من السوسيّة العالية لكفنه، وكفنوه... في واحدة وحمل الباقين [2] ...وحمل نعشه إلى تنبكت وهناك صلّوا عليه ودفن... ثم تصدق عليه بقراءة القرآن وذبح بقرات كثيرة وأعطي الطلبة القراء عشرة عبيد ومائة ألف ودع) [3] .

وقد صادف أن أحد النبلاء تهيأ مرة لإحداث ثورة ، فرأى أن يترك منزله ويعتصم بمكان اختاره ، وهناك يلتحق به أنصاره فكان عند خروجه من المنزل (له هنالك ثلاثة جواريه [4] أي سرياته ، وأربعة عشر نسوة من الحداديات المزمرات وكان معه أربع وثلاثون جملا حمل عليهم [4] حدادياته وسرياته ونفائس بضاعته وشيئا [4] مما أتى به من الأزواد ... ومعه من الفرسان سبعة عشر على خيول مختارين [4] ، وخمسة خيول عليهم [4] السروج يقادهم [4] أمامه) [5] .

وعند قدوم جيش المغاربة الى سنغاي فكّر أهل سنغاي في ترك غاو (العاصمة). وقد وجد الملك أنه لا يستطيع حمل أمتعته بالوسائل التي يملكها شخصيا للنقل ،

(1) كتابات السعدي وكعت بالدرجة الأولى ص 120 .
(2) هكذا في الأصل .
(3) نفس المصدر ، ص 130 .
(4) كذا في الأصل .
(5) نفس المصدر ، ص 137 .

وكانت (لأسكي من قوارب كنت التي هي سفن السفر والسير أربعمائة... يحملون [1] دار أسكي وامتعته ونساءه وبضاعاته[1] وماله ثلاثة أيام ... وأما غير كنت من السفن الكبار من مماليك أسكين من كثيم إلى كدى تكون ألف سفينة ما عدا سفن بنات أسكي) [2] .

وفي أيام الأسقيا داود توفي أحد خدمه في مكان قصي عن العاصمة هو(دندي) فأرسل الملك عبدا ليحصي تركته التي عادت إلى السلطان بموت ذلك الخادم ، فلمّا عاد العبد ، كان السلطان قد نسي شأنه الذي بعثه فيه ، فسأله : هل أنت من عبيدي ؟ فلمّا ذكره بمأموريته ، سأله ، ماذا ترك ؟ فأراد العبد أن يخفي ذلك على الحاضرين ، فقال له السلطان : لم تخفي ذلك على الناس هل سرقنا ؟ ! فعدّد العبد عند ذلك تركة الخادم (وهي خمسمائة عبد بين العبد والأمة وطعام تركه في بعوات [3] أربعة عشر يكون فيها على التقدير ألف وخمسمائة صينية (أي كيس كبير) وسبع سراحين [4] البقر وثلاثين سراحا من الغنم ولباسه وفرسه وهي خمسة عشر فرسا منها سبع خيول أحرار [4] والباقي من البراذين وسروجها وغير ذلك من أمتعة بيته وسلاحه وترسه وثلاثين من بول معمرات بحريش) [5] . وقد نال الخادم هذه الثروة الطائلة من التحاقه بخدمة الملك . فقد كان تعقيب هذا الأخير :(رحم الله موسى سفنسار وما يصيب من حرمتنا أكثر من تركته كلّها) .

وقد بلغت هذه الطبقة في الامتياز أن القوانين لم تكن تطبّق على أفرادها كما تطبق على بقية أفراد المجتمع سواها ، لا من حيث أن القضاة أو الهيئات التي يتحاكم إليها الناس ، كانت تتردّد في إصدار أحكامها تجاههم ، ولكن من حيث أن هيئات التنفيذ ، وعلى رأسها الملك ، هي التي كانت تقف حاجزا دون

(1) هكذا في الأصل .
(2) نفس المصدر ، ص 150 .
(3) مطامير .
(4) كذا في الأصل .
(5) نفس المصدر ، ص 102 .

تنفيذ الأحكام الصادرة ضدهم ، في حالة تجاوز هؤلاء الحدود حرياتهم وسط أفراد المجتمع فقد جاء في رسالة الإمام السيوطي إلى ملوك التكرور في هذه الفترة : (... وقد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه ويضمه إليه ويحصنه ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحضنه ويقول هذا دخل في ملكي أو جعل في سلطاني ويرد ما حكم به الشارع اغترارا بالأماني ، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملوك أن يحلّ به العذاب الأكبر ويتنزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر ، إن بطش ربك لشديد ،وما ربك بظلام للعبيد ...) [1] .

3 ـ الطبقة الوسطى ونسبتها

إذا كانت درجة انتظام المجتمعات تقاس عادة بنسبة أفراد الطبقة الوسطى ، فإن هذه الطبقة في سنغاي لم تكن تشكل نسبة مرتفعة ، فقد كانت في عددها تفوق الطبقة الأولى ، ولكنها كانت أقل عددا من الطبقة الثالثة بكثير . ومن الخطأ أن نتصور أنها كانت تعيش في مستوى الطبقة الوسطى العادية اليوم كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين مدّعين أنها كانت تعيش دون عمل ، وتكفيها مواردها من التجارة أو الأراضي اللتين لم يكن يعمل فيهما سوى العبيد والخدم نيابة عن أفراد هذه الطبقة ولصالحهم [2] .

كما أنه من الخطأ في نظرنا أن تدرج هذه الطبقة ضمن أفراد الطبقة الأولى كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين الآخرين [3] لأنها باستثناء القضاء الذي كان له وضع خاصّ كما سيأتي ، لم تكن تتولّى الوظائف الإدارية ، وإن الوظائف الإدارية لها دلالة في هذا المقام ، لأن الوظيفة لم تكن محدّدة ولا واسعة الانتشار بالشكل المعهود الآن ، وإنما كانت اعتماداً خاصّاً يكلّف بها ذوو الحظوة لدى الملوك ، وهؤلاء إما أن يكونوا من أفراد الطبقة النبيلة التي تندرج ضمن الفئة الأولى

(1) آدم عبد الله الألوري – موجز تاريخ نيجريا – دار الحياة (بيروت) 1962 ، ص 137 .
(2) ديشب ، ص 4 .
(3) قداح ، ص 100 – 101 .

في المجتمع ، أو من العبيد الذين يملكون مؤهلات فردية ، تجعل الملك يعهد إليهم بأعمال إدارية نيابة عنه ، وكلا الصنفين ليسا من أفراد الطبقة الوسطى . فـ (علي فلن) الذي كان مستشارا خاصا للأسقيا الحاج محمد الأول) إنمّا هو عبده . ومعظم ولاة الأقاليم وقواد الجيش وهيئة البطانة الملكية من المستشارين والندامى والوزراء ، كانوا إما من العائلة المالكة أو من الملاّكين الكبار للعقارات والأطيان الواسعة ، وكان كلّ منهم حينما يعهد إليه بإدارة إقليم ، أو بالإشراف على عمل إداريّ ، فإنمّا يفوّض لذلك تفويضاً فرديّاً ، ومن هنا فهو يستعين في أعماله بعبيده وخدمه، ولا يبلغ شخص مكانة اجتماعية تجعله أهلاً للتكليف الإداري بهذا الشكل ، إلا بعد أن يتسامى بأملاكه ونفوذه عن الدرجة الاجتماعية للطبقة الوسطى [1] .

كان القضاة والأئمة من الطبقة الوسطى ، وهؤلاء كانوا موظّفين ، ويتناولون من خزينة السلطان عوائد معيّنة [2] ، وكان المدرّسون في المساجد من الطبقة الوسطى وكانوا أيضاً يتناولون جرايات من خزينة السلطان ، ولكنّ هؤلاء وأولئك كانوا – في الغالب – لا تتوافر عليهم الملكيات الواسعة التي اختصّت بها الطبقة الأولى ، ولم يكونوا يشاركون السلطان في تسيير البلاد ، ولا كانوا من مستشاريه وبطانته، إنّ حظوتهم التي اكتسبوها من طبيعة الأعمال التي يزاولونها، هي وحدها التي بوّأتهم مكانة خاصة بين أفراد الطبقة الوسطى ، وبالتالي جعلتهم محلّ رعاية خاصة من طرف الملوك والوجهاء والعامّة على السواء [3] ، وكانت قيمتهم الاعتبارية سواء من طرف السلطة أو من طرف أفراد المجتمع تبقى ثابتة أو تضعف بمقدار ما يحافظون على السلوك المستقيم الذي تقتضيه وظائفهم [4] . ومن هنا كانت لهم وضعيّتهم الخاصة ضمن أفراد الطبقة الوسطى . من حيث الكلمة المسموعة من

(1) السعدي ، ص 78 .
(2) نفس المصدر ، ص 91 .
(3) نفس المصدر ، ص 76 .
(4) نفس المصدر ، ص 52 .

طرف السلطات ، ومن حيث التوظيف الإداري بالشكل الذي وصفناه ، فهم موظّفون ، ولكنّهم لا يخدمون المآرب الخاصة للسلطة ، كبقية الموظفين الآخرين. وكانت الاعتبارات الشائعة أن رجال الحكم يرتكبون من الأعمال في أغلب الأحيان ما يتنافى وأوامر الدّين[1] . ولذا فإن هذه الفئة من الطبقة الوسطى ، كانت ملجأ للعامة في كثير من التعدّيات التي قد تاحقها وكان الاعتصام بدار القاضي أو الإمام في مثل هذه الحالات يعتبر قاعدة قانونية ، لا يجوز للساطة تعدّيها[2] ، كما أنّ قيام القاضي أو الإمام في وجه السلطان بقصد نهيه عن تعدّي الحدود الشرعية أو إرشاده الى الطريق الذي يتلاءم ومقتضيات الشريعة الإسلامية ، كان يعتبر كذلك أمرا مقبولا ، يقتضيه واجب القاضي أو الإمام .[3]

أما الفئة الثانية من الطبقة الوسطى فقد كانت فئة التجار ، والحقيقة أن فئة التجار ، كانت قسمين ، فقسم منها كان على نصيب من الثراء والجاه يجعلانه في مصاف أفراد الطبقة الأولى ، ولكن هؤلاء كان معظمهم من الأجانب ، وكانت التقاليد الحكومية تقتضي احترامهم ومعاملتهم كأبناء البلاد ، وذلك لكونهم مسلمين ومعظمهم من الفقهاء المتضلّعين في الدين ، فإسلامهم وتضلّعهم في ثقافة العصر آنذاك ، وثراؤهم الواسع ، مكّنتهم كلّها من العيش الحرّ الكريم ، في مجتمع جاءوا غرباء عليه في البداية ، ويحسن بنا أن نجزم بأن فائدتهم للبلاد في الميدان الحضاري كانت عظيمة بحقّ ، كما أنّ مباشرتهم لأعقد العمليات التجارية في التصدير والاستيراد ، كانت تمكّن الحكومة من تحصيل ضريبي له قيمة معتبرة أيضا[4] . وأن هذه الفئة من حيث الثراء كانت تشبه أفراد الطبقة الأولى ولكنّ ثراءها

---

(1) كعت ، ص 178 .

(2) السعدي – ص 63 .

(3) السعدي وكعت – ص 28 – 97 .

(4) أسوي وأندري كليرسي – تاريخ الشعوب السوداء – أبيجان ، 1963 ، ص 31 .

إنما كان نقديا تجاريا ، بعكس الطبقة الأولى ، التي كان ثراؤها عقاريا بالدرجة الأولى ، أما وضعها القانوني فكان ضمن أفراد الطبقة الوسطى فقط ، ولذا فإنها لم تكن تتولّى أبدا الوظائف الإدارية الكبرى ، وإنما تولّى قسم من أفرادها بعض الوظائف المحدودة ذات الطابع الفنّي مثل المحاسبة والهندسة المعمارية والتدريس . وكانت لها مكانتها المحترمة في الميدان الثقافي ، فكانت مقرّبة من القضاة ، وكثيرا ما كان يطلب من بعض أفرادها الفتوى وإبداء الرأي[1] .

والفئة الثانية من هيئة التجار ، كانت فئة التجار الوطنيّين بالأصالة ، وهذه الفئة كانت أقلّ من السابقة ثراءا بالتأكيد[2] ، لأن البضائع التي كانت تتاجر بها ، كانت بضائع محلية ، محدودة القيمة والتنوّع ، ولذا فإن كميّة أرباحها كانت محدودة أيضا ، وثراؤها كان أقلّ من غيرها ، وقد كانت هذه الفئة تشكل بحقّ شقّا مهما من طبقة العامة في سنغاي ، تلك الطبقة التي تمتاز بالحرية والعيش المتوسط ، فهي لا تتدنّى إلى صف الطبقة الدنيا ، ولم ترتفع إلى صفّ الطبقة المترفة ، وإنما كانت وسطا بين ذلك ، ولم تكن تتولّى الوظائف الإدارية لأن المقياس الذي كانت تعطى به تلك الوظائف لم يكن ليشملها[3] ، كما أنها كانت تجمع في الغالب بين العمل التجاري والملكية العقارية الصغيرة ، فتجار البقر من هذه الفئة مثلا كانوا في الغالب يملكون بعض القطع الصغيرة من الأراضي ، يربّون عليها قطعانا صغيرة من الأبقار ، وتجار الأسماك ، كانوا – في الغالب – يملكون بعض القوارب الصغيرة يصطادون بها في النهر ، وهكذا .

وكان أفراد الطبقة التجارية عموما ، لا يتولون أعمالهم وحدهم ، وإنما كانت معظم أعمالهم يساعدهم عليها عبيدهم وخدمهم ولذا كان أفراد هذه المجموعة من الطبقة الوسطى ، يجدون فسحة من الوقت للمشاركة في الاحتفالات العامة .

---

(1) محمود كعت ، ص 57 .

(2) أنظر القلقشندي – (صبح الأعشى في كتابة الإنشا) – ج 5 ، القاهرة ، دون تاريخ ، ص 292.

(3) محمود كعت ، ص 161 .

وحضور جانب من دروس الوعظ ، في المساجد ، ولذا فقد كانوا على علم دائما بالحوادث الهامة في البلاد ، وكانوا يشكلون الهيئة الأكثر اعتبارا بين أفراد الطبقة الوسطى [1] .

4 ـ الطبقة الثالثة ووضعيتها

إنّ الطبقة الثالثة في دولة سنغاي ، كانت أكثر الطبقات عددا وأقلها اعتبارا في المجتمع ، ولا نجد لأفرادها ذكرا في كتابات المؤرخين السودانيين في هذه الفترة ، إلاّ في هيئة العبيد والخدم ، الذين يؤمرون فيطيعون ، أو يقومون بالأعمال في الأسواق وفي الحقول وفي المنازل ، لحساب غيرهم ، ومن هنا فإنه يصح لنا أن نعتبرها طبقة الإنتاج الأولى في مملكة سنغاي . وقد تكاثر عدد أفراد هذه الطبقة مع الزمن ، حتى يمكن أن نقدّر نسبتهم في المجتمع بما يزيد على النصف . وهذه الكثرة جاءت بالدرجة الأولى من الفتح والتوسّع ، الذي رأته المملكة منذ أيام سني علي ، وتوسعت فيه أكثر منذ أيام الأسقيا الحاج محمد الأول ، وكان الفتح لا يتمّ عن طريق المصالحة ، وإنما يتم عن طريق القهر والغلبة ، وينتهي باسترقاق مناطق بأكملها . فقد بدأ الأسقيا الحاج محمد الأول حكمه بأن ورث عقب المعركة التي انتصر فيها على (سني بارو) ابن سني علي أربعا وعشرين قبيلة بكامل أفرادها ذكورا وإناثا [2] وقد بقي هؤلاء طيلة أيام الأساقي يعملون في الحقول الزراعية لحساب دار السلطنة ، وقسم منهم اختصّوا برعاية خيول البيت الحاكم وكان يؤخذ قسم من أولادهم كلّ عام ، ويباعون في الأسواق وتشترى بأثمانهم خيول أخرى . وقسم منهم وهب للشريف الحسني وأولاده بعده ، فبقوا في خدمتهم طيلة عهد الأساقي . وكان هذا الشريف ورد على كاو في أيام الأسقيا الحاج محمد الأول . ويقال إن سبب إعطائه هذه الهبة ، كان مراعاة لنسبه وقرابته من النبي ، وقد بلغ عدد أفراد هذه الهبة في البداية ألفا وسبعمائة ، ثم تكاثروا فيما بعد [3] .

(1) محمود كعت ، ص 172 – 173 .
(2) محمود كعت ، ص 55 .
(3) محمود كعت ، ص 57 .

وحين غزا الأسقيا الحاج محمد الأول قبل ذهابه للحج مباشرة منطقة زاغ ، اختار من سكانها خلقا كثيرا للاسترقاق وكانت هذه المنطقة قد اشتهرت بكثرة البنائين بها ، ولذا فقد كان من جملة من استرقّهم (خمسمائة بنّاء ، فذهب بالأربعمائة إلى كاو ليتخذهم لنفسه ... مع آلات بنائهم) وأعطى أحد إخوته وهو عمر كمزاغ مائة بنّاء ، بعد أن تولّى هذا ولاية الإقليم ، وعزم على أن يبني لنفسه وجنده وموظّفيه وأتباعه مدينة تكون مقرّ عمله هناك [1] .

ولما ذهب الأسقيا الحاج محمد الأول لقضاء مناسك الحج ، بلغ عدد أفراد ركبه ما يزيد على الألف وخمسمائة شخص ، كان بينهم من غير العبيد والخدم ، أقلّ من مائة نفر [2] . وفي السنة الثالثة عشرة من حكم الأسقيا الحاج محمد الأول (تلقّاه في كبر ثلاثة رجال من حفدة الشيخ مورهوكار ، واشتكوا إليه البؤس والشدة اللتين لقوهما في زمن سني علي) فكان من جملة ما أمر لهم به عشرة خدّام (فلمّا عادوا ادّعى إخوتهم أنهم شركاؤهم في العطيّة ، فلم يقبلوا وأخبروهم بكرمه وعدله ، فذهبوا بدورهم ، فقال لهم : ذلك رزقهم ، لم أقصد مشاركتكم لهم) فكان ممّا أعطاهم أيضا عشرة خدم ، فشكروه ، ثم قال لهم : (لكم مني مثل هذا المبلغ كلّ عام ، وهو دين علي أوجبته على نفسي مدة حياتي) [3] . وكان من دلائل تكاثر أفراد هذه الطبقة أيضا في هذه الفترة أن (الأساكي كلهم أولاد سراري إلاّ أسكي محمد وحده بخلاف سلاطين بر [4] فكلهم أولاد زوجات إلاّ بركي منس كنت وحده هو ابن أمة) [5] .

وقد كانت البضائع النفيسة يتعامل فيها بالذهب ، وكانت البضائع المتوافرة بكثرة يتعامل فيها بالودع ، وكان العبيد من الصنف الثاني ، يباعون ويشترون

(1) محمود كعت ، ص 62 .
(2) نفس المصدر ، ص 65 .
(3) نفس المصدر ، ص 71 .
(4) العائلة السابقة لحكم عائلة الأساقي في سنغاي .
(5) كعت ، ص 81 .

بالودع ، وفي كثير من الأحيان كانت تجرى المبايعات عن طريق المقايضة ، وفي هذه الحالة يذكر الحسن الوزّاني المعروف بـ (ليون الإفريقي) أن ثمن الفرس ، كان يساوي أحياناً خمسة عشر عبداً مقابل رأس واحد من الخيل . كما يزيد ليون الإفريقي أيضا أن مالح تغازة وغيرها كان يعمل في أحواضها العبيد [1] ، ويذكر ابن بطوطة حين مروره بكاو (في القرن الرّابع عشر) أن الفرد كان حين يسير مسافرا أو متنقلاً ، كان يتبعه عبيده يحملون له أمتعته معه [2] . ومن هذا كلّه يتّضح أن العبيد كانوا يشكلون بعددهم جزءاً كبيرا من الطبقة الثالثة ، وكانت تقع على كواهلهم معظم الأعمال ، ولكنهم كانوا في أدنى درجات السلّم الاجتماعي [3] .

أما القسم الثاني من الطبقة الاجتماعية الثالثة ، فهم مجموعات الأَقْنَان في البوادي والفقراء في المدن ، وكانوا في معيشتهم في وضع أقلّ من فئة العبيد ، لأن العبيد غالبا كانوا يعيشون في منازل أسيادهم أو في حظائرهم ، ولذا كانوا في قوتهم اليومي على الأقلّ ، لا ينزلون لدرجة الخصاصة ، في حين كان الأَقْنان يعتمدون في كلّ حاجاتهم على جهدهم الخاص ، وكانت البطالة متفشية بينهم في المدن أكثر منها في البوادي ، لأن مختلف الأعمال في المدن كان يقوم بها العبيد ، أما في البوادي ، فكان الأقنان تقع عليهم معظم الأعباء الفلاحية والرعويّة في ضيعات السادة الكبار الواسعة ، وقد عرف من أسمائهم كفئة اجتماعية في مملكة سنغاي «الزناجية» كما أطلق عليهم أحيانا «الحراطين» . وتبدو نسبتهم إلى نسبة العبيد ضمن أفراد الطبقة الاجتماعية الثالثة ، كما تتّضح درجتهم الاجتماعية ووضعيتهم القانونية من هذه الحكاية كما رواها محمود كعت ، [4] وهي أن رجلا أرسله الأسقيا

---

(1) انظر أيضا أبو فيل – التجارة الذهبية للمغاربة ، أكسفورد ، 1967 – ص 161 .

(2) رحلة ابن بطوطة – بيروت ، 1956 – ص 83 .

(3) سبقت الإشارة إلى أن العبد في سنغاي كان يستمد قيمته الاجتماعية أحيانا من مكانة سيده ، ولكن هذا إنما كان يلاحظ بوضوح أكثر على عبيد الطبقة النبيلة ، أما واقع العبد داخل كل طبقة اجتماعية فإنه لا يختلف بحال عما نستنتجه هنا .

(4) كعت ، ص 102 .

داود إلى منطقة دند ليجمع له ميراثه من أحد خدمه ، فلما جاء العبد ، سأله الملك عن ماذا ترك ؟ فعدّد له من جملة ما عدّد (خمسمائة عبد بين العبد والأمة ، وسبع سرّاحين للبقر وثلاثين سراحا للغنم ، وخمسة عشر فرسا منها سبع خيول أحرار والباقي من البراذين). إذن فقد كان هذا الشخص من فرسان الملك الإقطاعيّين وكانت ثروته من العبيد والأقنان بنسبة سبعة وثلاثين إلى خمسمائة ، ونسبة الخيل إلى نسبة ثروته من البشر هي نسبة خمسة عشر إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين ، وإذا استثنينا البراذين تكون نسبة ثروته من الخيل إلى العبيد والأقنان هي نسبة سبعة إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين .

ويتبين لنا الفرق بين العبد والقنّ داخل هذه الطبقة الاجتماعية في الحرية الشخصية التي يتمتّع بها القنّ [1] ، ولا يتمتع بها العبد ، ولذا فإن الملك لم يسأل عن الأقنان بعد أن عدّد له مبعوثه ما ترك موروثه من تركة ، وإنما سأل عن العبيد ، أين هم ؟ فأجابه : (لقد أدخلتهم داري وهو ضيّق عليهم). وممّا سبق ، نستطيع أن ننتهي إلى الاستنتاج بأنّ معظم أفراد الطبقة الثالثة كانوا من العبيد ومن الأقنان ، وكانت نسبة العبيد إلى الأقنان نسبة تربو على الضعف .

وهناك فئة أخرى تدرج ضمن الطبقة الاجتماعية الثالثة في مملكة سنغاي ، وهي فئة أصحاب الحرف الأحرار ، وكانت نسبتها في المجتمع تقلّ عن نسبة كلّ من طائفتي العبيد والأقنان معا . كما كانت درجة اعتبارها بين أفراد المجتمع تفوقهما أيضا ، وترجع قلّة عدد أفرادها إلى قلّة أنواع الحرف بالدرجة الأولى ، ويرجّح أن هذه الطبقة لم تأخذ في سنغاي مكانة أكثر من تلك التي كانت لها ، وهذا بالرّغم من أنها تقوم بدور مفيد جدا في الإنتاج ، لأن المجتمع كان مجتمعا زراعيا – رعويا في المقام الأول – ومن ثم فإنّ أنواع الحرف بطبيعتها كانت ، ولم تتعدّ

---

(1) يمكن تعريف الأقنان بالأتباع ، فهم لا يرتبطون بالسيد كما يرتبط به العبيد ، لأن العلاقة التي تجمعهم به ، تعود غالبا إلى مفهوم الامتياز العائلي ، أو التنفذ الجهوي للسيد ، أو الضرورة الاقتصادية التي تجبرهم على الارتباط به وخدمته .

النجارة والحدادة والحرازة في أغلب الأحيان (1) . وإن هذه الفئة ، كانت كغيرها من فئات الطبقة الاجتماعية الثالثة ، لا قيمة اعتبارية لها ، فهي لا تشارك في تسيير البلاد ، ولا يسند إليها أي عمل رسمي ، ولكنها كفئتي الطبقة الثالثة من العبيد والأقنان كانت تقع عليها أعباء قسم من الأعمال الإنتاجية الهامّة في البلاد .

جدول لشرائح الطبقات الاجتماعية في مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين كما يتبينها الباحث

الطبقة الاجتماعية الأولى تضم :	أفراد العائلة المالكة كبار الملاكين العقاريّين قادة الجيش
الطبقة الاجتماعية الثانية تشمل :	التجار الأجانب المستوطنين التجار المواطنين بالأصالة القضاة و الأئمة المدرّسين
الطبقة الاجتماعية الثالثة تحتوي :	العبيد الأقنان أصحاب الحرف

(1) محمود كعت ، ص 173 .

الفصل الثالث

المظهر التقليدي لحياة السكان

1 – تقاليد الحياة اليومية

جاء في كتاب – موجز تاريخ إفريقيا – (1) : (صنعت الشعوب الإفريقية ثقافتها الخاصة من حيث الملبس والمسكن والموسيقى والرقص والأغاني والأساطير واللغة المكتوبة وفن العمارة ... إلخ . وكان الإفريقيون هم الذين صنعوا بعملهم وذكاؤهم التراث الثقافي في القرون الماضية) .

ونضيف إلى هذا اعتقادنا الجازم بأن الشعوب ككلّ ، هي التي تصنع الحضارة وتطبعها بطابعها الخاصّ في كل منطقة ، ولهذا فإنّ دراسة أي جانب حضاري إنما تكتمل صورتها الحقيقية ، بإلقاء نظرة تصويرية لواقع حياة السكان .

ومهما تكن المصادر الأساسية شحيحة في هذه الناحية ، لأنها كتبت في فترة سابقة لعصرنا ، كانت فيها أفكار المؤلفين وعنايتهم متّجهة أكثر نحو تسجيل حياة الخاصة وأعمالهم ، فإنّ الباحث يستطيع رغم ذلك أن يصل لاكتشاف العديد من ملامح الحياة العامة بين السطور .

(1) لمؤلفيه سافليف وفاسلييف (تعريب أمين الشريف) ، القاهرة ، 1963 ، ص 4 .

ولتسجيل الملاحظات التي استطعنا الوصول إليها فيما يتصل بواقع الحياة العامة في سنغاي أثناء عهد الأسيقيين ، فإنه لا يمكننا إلا الاقتصار عند حد تصوير المظاهر العامة فقط ، وذلك لضيق النصوص من ذلك العهد ، في هذا الموضوع أكثر من غيره .

لقد كان اللباس يعتبر ضربا من الأناقة التي تزيد صاحبها احتراما في أعين الناس، ولذا كان الوجهاء يحرصون على أن يظهروا في لباس زاه فضفاض أمام العامة (1) .

وكان كل الناس يرتدون أحسن ألبستهم في أيام الأعياد . وكانت النسوة يتزين بودع يلصقنه في رؤوسهن وصدورهن وبأقرطة عريضة يضعنها في الآذان ، وبخلاخيل يضعنها في أرجلهن ، وقد يتحلين بأشياء أخرى خفيفة مستديرة أو مربعة في صدورهن غالبا ما تكون من زجاج أو من نحاس . كما كانت عادة وضع حلقة في طرف أحد المنخرين عادة شائعة بين الحرائر من النساء (2) .

وكان الملك وأفراد الحاشية وكبار الموظفين يتزينون بأساور ذهبية ، وسلاسل من ذهب أو نحاس في أيديهم وعلى صدورهم (3) .

ويقضي الرجال غالبا أوقاتهم خلال النهار في العمل فالذي له زراعة يظل في حقله طول النهار ، ومن له تجارة أو حرفة يظل في دكانه (4) ، وهكذا .

وهناك قسم هام من أفراد المجتمع كانوا يعيشون متنقلين وراء قطعان الماشية وغالبيتهم كانت من الطوارق ومن أعراب البرابيش .

وكانت المرأة تقضي أوقاتها غالبا في المنزل ، تطبخ الطعام وتطحن الدقيق

---

(1) السعدي وكعت – ص 33 – 81 .
(2) السعدي ص 13 – 18 – 131 .
(3) دولافوس – أعلى السنغال والنيجر – ص 117 . والظاهر أن ذلك كان عادة موروثة منذ القديم لدى سلاطين الغرب الإفريقي ، كما تثبت ذلك كتابات الرحالة العرب من أيام غانا ومالي .
(4) انظر السعدي أثناء الحديث عن (جني) بصورة خاصة .

وتحيك القطن أو الصوف ، وتستخرج الماء من البئر أو تجلبه من النبع ، كما كان يقع عليها واجب تهيئة الوقود ، ما عدا في المدن الكبيرة ، فإنه كان يشترى الحطب من السوق (1) .

وكان هناك قسم من الناس يعيشون من صيد الأسماك على النيجر ، فيبيعون قسما منها ، ويشترون به حاجاتهم من السوق (2) .

وفي ليلة العيد يقضي الناس جزءا من ليلهم في سمر ويطيلون السهر وقد يسمع الغناء في بعض البيوت أيضا ، أما في بقية الليالي فإن مجتمع سنغاي كما يفهم من كلام السعدي (3) كان فيما يتعلق بهذه الناحية على قسمين فالذين لهم خدمات رتيبة سهلة مثل كبار الملاكين وبعض التجار والعلماء ، فإنهم يسهرون حتى وقت متأخر من الليل ، وكثيرا ما يجد المار في الشوارع أناسا يسمرون، وقد أخذوا أمكنة جلوسهم على الأرصفة .

أما الذين يقومون بأعمال مجهدة خلال النهار مثل أصناف العاملين في الحقول وفي الأسواق ، فهم ينامون مبكرين في العادة .

ويشبه أيام الأعياد الدينية ، يوم تتويج الملك في غاو ، حيث يبيت معظم الناس بعاصمة سنغاي في ما يشبه العيد ، ويسمع الصخب والغناء ودقات الطبول في مختلف أحياء المدينة .

ويبدو أن الفروق بين الأعياد الدينية وبين عيد التتويج تظهر في كثرة الغناء والموسيقى وضربات الطبول في يوم تتويج الملك أكثر منها في مناسبات الأعياد الأخرى .

وربما لأن هذه الأخيرة كانت مناسبة خشوع ديني في نفس الوقت الذي هي

---

(1) كعت – ص 24 – 52 – 231 .
(2) نفس المصدر – ص 62 .
(3) صفحات : 21 و 30 و 43 .

فيه مناسبة فرح ، ولذا كان لا يتخللها الكثير من الصخب [1] .

وكان الناس يسيرون في جنازة الميت في خشوع كبير ، ويتصدّر الجنازة في الغالب طلبة القرآن ومن يوجد من العلماء ، وكان يكثر الجمهور في الجنازة حسب درجة الميت الاجتماعية .

وفي المنزل تقيم أسرته مأدبة لطلبة القرآن ، حيث يتلون آيات القرآن الكريم بمنزل الميت حتى وقت متأخر من الليل ، وقد يستمرون على ذلك لعدة ليال . وتنتهي أعمالهم في الغالب بتوزيع صدقات عليهم من الألبسة والدخن أو النقود. ولكن النقود لم تكن تعطى لهم إلا في النادر اليسير فقط .

ويدفن الميت في الغالب يوم وفاته أو في الغد ، ولكن أفراد الطبقات العليا في المجتمع مثل السلاطين والولاة . وبعض الموظفين الكبار ، كانوا لا يدفنون إلا بعد أيام من موتهم [2]

وكانت لعائلة الأساقي مقبرة خاصة في غاو [3] ، أما بقية أفراد المجتمع فلهم مقبرة واحدة في كل مدينة وقرية .

وكانت السوق وخاصة في المدن الهامة تحتوي على دكاكين للجزارين وللحدادين وللإسكافيين والنجارين وتجار الأقمشة والحبوب .

أما سوق المواشي وسوق العبيد فقد كانت لكل منهما رحبة خاصة بها .

ويذهب سكان القرى والفلاحون والرعاة إلى الأسواق ممتطين الأحمرة أو راجلين ، وقليل منهم كان يمتطي البغال [4] .

(1) انظر أوصاف مناسبات العيد في تمبكتو وغاو ، في كتاب تاريخ السودان للسعدي ، كما يرجع في وصف مناسبات التتويج إلى كتاب تاريخ الفتاش ، للقاضي محمود كعت .

(2) لقد توفر على ذكر هذا كل من السعدي وكعت .

(3) لا يزال بناؤها قائما حتى الآن في غاو (ينظر قداح ، ص 64 . ودولافوس — أعلى السنغال — ص 298) .

(4) الحسن الوزاني ص 76 .

ويبدو من أسئلة الأسقيا محمد الكبير التي كان قد وجهها إلى الإمام المغيلي ، وطلب منه أن يفتيه في موضوعاتها ، أنّ التعامل في السوق لا يجري بدون غشّ في كثير من الأحيان [1] .

والتطفيف كان من ضروب حيل التجار والمتعاملين كما كانت أسواق سنغاي تعرف الغش ، فبعض التجار ينفخون الأتان أو البقرة أو الجمل ليصل إلى الثمن المرتفع في السوق ، وبعضهم يخلط السمن بالعسل ليبيعه على أنه شهد مصفى .

أما الربا والشراء بالتأخير ، ثم إرجاع البضاعة وإجبار صاحبها على قبولها بعد أن يكون المشتري قد استعملها لحاجته إن كانت ألبسة أو حذاء ، فكان من الشائع تعاطيهما أيضا [2] .

وكانت السرقة محرّمة قانونا وشرعا ، وكذا الاعتداء بجميع أنواعه ، ولكن القبائل كانت تقوم بهجومات على بعضها وتقطع الطريق بشكل جماعي لا فردي ، وكانت المصالحة أو انكسار أحد الطرفين وفرض شروطه ، كل واحدة منهما هي وحدها التي تنهي مفعول الاعتداء الجماعي ، وكثيرا ما كان الملوك يتدخلون أيضا ، وخاصة إذا كان الأمر له تأثير في اقتصاد البلاد أو أمنها ، أو أنه يمثل تهديد حياة الناس في مدينة من المدن الهامة ، وذلك كما كان يفعل الأساقي مع الطوارق حين يهجمون بين الآن والآخر على تمبكتو ، أو يقطعون الطريق على التجار الوافدين على بلاد سنغاي [3] .

ويبدو أن المرأة كانت لها حرية واسعة في مجتمع سنغاي ، فالفلاحات كن يعملن بالحقل مع أزواجهن ، كما كنّ يقمن بإيصال الغداء للحقل خلال النهار ، مهما كان الحقل بعيدا عن المنزل .

(1) مخطوط المكتبة الوطنية ، ج 37 ورقة 9 .

(2) إذا أخذنا ما اتفقت على ذكره كتب الرحالة والتجار المغاربة والمشارقة على السواء في تلك الفترة من أن المجتمع في بلاد سنغاي كان يميل إلى العدل ، ولا يغش ولا يعتدي ، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن مثل هذه العادات ربما جلبت من الخارج ، خاصة وأن الأسواق كان يرتادها كثير من الأجانب .

(3) انظر كعت ص 112 — 239 — 264 .

وبعض النساء كن يتاجرن بالسوق ، ويبعن خاصة الأغذية والألبسة والمجوهرات . (1)

أما علاقات النساء بالرجال فلا يبدو أنها تأثرت كثيراً لدى العامة بالإسلام. ولذا كانت معاشرة غير الحرائم منتشرة بكثرة في المجتمع ، وكان لكثير من الرجال خليلات يتسرون بهن ، كما كان لكثير من النساء أخلاء كذلك (2) .

وكان القاضي هو الذي يتولى الفصل في معظم الخلافات التي تجد بين الناس ، كما كان يعهد إليه برعاية أموال اليتامى والغائبين (3) .

وختاما ، فلعل ما يمكن أن يصل إليه الباحث من النتائج حول هذا الموضوع هو أن الحياة العامة في مظهرها الرتيب كانت تطغي عليها التقاليد التي تستمد أصولها من عناصر إسلامية وأخرى سابقة للإسلام ، كما كانت لآثار الطبقة السائدة في المجتمع آنذاك ، معالم واضحة أيضا ولكنها في المساكن والألبسة أكثر وضوحا ، كما سيتبين ذلك ، فيما يلي من الصفحات .

2 — المساكن

كان الفلاحون في الأرياف يبنون مساكنهم في حقولهم ، أو أنهم يتجمعون في قرى صغيرة قرب عدة آبار أو ينبوع ، أو على حافة النيجر أو أحد روافده .

ويبدو أن المحلة التي داني سكانها الألف كانت تعتبر مدينة (4) .

(1) انظر كعت أثناء الإشارة إلى (الزناجيات) اللائي يبعن الأمتعة في الأسواق . كما أنه في مواضيع كثيرة من كتابه يشير إلى وجود نسوة يعملن في التسوق بشكل متواتر .

(2) يذكر السعدي ، ص 109 ، ومحمود كعت ، ص 97 ، أن أفراد العائلة المالكة لم يكونوا يتحررون كثيرا في نكاح من تروق لهم من بين أخواتهم وقريباتهم ، وخاصة في عهودهم المتأخرة ، حيث أصبحت عادة اللواط منتشرة بشكل مروع وخاصة بين أفراد الحاشية وكبار الموظفين .

(3) يذكر السعدي حالات عدم وجود قاض بتمبكتو ، لسبب من الأسباب، فيلح على تعطيل مصالح الناس بذلك ، ويشير إلى القلق الذي يظهرونه في تلك الأوقات .

(4) انظر دولافوس — أعلى السنغال ج 2 ص 209 .

وكانت مواد البناء الأساسية هي : الأخصاص . الجير الطبيعي أو الاصطناعي (الطين والطوب) وكانت أبنيتهم في الغالب على شكل دائري ينتهي بقبة حادة الوسط ومرتفعة . (1)

وحين يبنون بالجير ، فإنهم يبنون مقدار ذراع دائري أو ذراعين ثم يتوقفون حتى يجف ، ثم يبنون أقل منه ، ويتوقفون أيضا حتى يجف ، فإذا ما وصلوا الى الارتفاع المرغوب ، عند ذلك يسقفون ، وكذا كان الأمر لديهم يتم بالنسبة للطين .

أما حينما يبنون بالطوب فإنهم يبنون حتى النهاية ثم يسقفون (2) .

وكان الغالب بين أبنية القرى والمدن هو أكواخ بيوت الفقراء المبنية من الأخصاص أو المسقوفة به . وقد كانت تشكل نسبة وجودها في تمبكتو سنة 1510 أكثر من نصف المدينة . (3)

وكان الذين يبنون بالجير الاصطناعي أو بالطوب هم الموسرون وحدهم تقريبا . أما غيرهم فأغلب بناياتهم أكواخ ، وقد يعتنون بها ، فيبنونها بالطين أحيانا . وكان يغلب على السقوف الأخصاص ، ولكن الموسرين يغلفون من الداخل بالجير أو الجلود . (4)

وكانت قصور الملوك والمساجد تمتاز باتساعها وباحتوائها على عدة مداخل ونوافذ ، كما كانت توجد بها الأقواس .

وكانت الأبنية بالحجارة قليلة جدا ، لدرجة أنه لم يتناه إلينا وجودها إلا في بيوت الخاصة وبعض المساجد

(1) ليون الإفريقي — ص 81 .

(2) موني — الكشف — ص 312 .

(3) الحسن الوزاني (ليون الإفريقي) — ص 22 .

(4) دولافوس — ج 2 — ص 91 .

وقد كان قسم كبير من سكان الصحراء الشمالية في سنغاي متنقلين ، ولذا كانت مساكنهم هي الخيام .

ويذكر الحسن الوزاني [1] أن قسما من أصحاب القوارب البجعية ، كانوا لا يملكون مساكن ، ولذا فإنهم كانوا يخرجونها في الغالب خلال الليل من النيل (النيجر) ثم يبيتون فيها أو حولها .

3 — الألبسة

كان الأطفال الصغار من أبناء العامة لا تقع العين عليهم إلاّ عراة [2] . أما الكبار فقد كانوا كلّهم قد اجتازوا مرحلة العري منذ القرن الحادي عشر تقريبا ، بفضل الإسلام .

ولذا فقد كان الناس كلهم على أيام الأساقي في سنغاي يقتنون الألبسة ولكن كلاّ منهم كان يلبس حسب قدرته .

فالأسقيا الحاج الكبير حين خلع من الحكم كان له حوالي عشرين كيسا من الألبسة ، في حين كان يظهر القضاة والعلماء والرؤساء في حلل فضفاضة زاهية الألوان ، ويلبسون في أرجلهم صنادل ملونة كذلك [3] .

أما العامة فكثيرا ما كان يوجد من بينهم لابس القميص الممزق ، وفي الغالب كانوا يكتفون بلباس جبّة واحدة وبرنوس .

وكانت السراويل منتشرة ، ولكن استعمالها من طرف الطوارق كان أكثر من غيرهم . أما الملوك والموسرون فقد كانوا يلبسون أكثر من جلباب واحد ، ويتفننون في زركشتها وتبديلها .

وكان على أيام الأسقيين في سنغاي لا يزال لباس الجلود منتشرا بين العامة وخاصة خلال فصل الشتاء وفي مناطق الصحراء في الشمال الشرقي من البلاد [4] .

---

(1) ص 7 .
(2) حتى سنة 1502 كانت الأمة تسير عارية حتى يبنى بها (انظر أسئلة الأسقيا س 7) .
(3) كمت ، ص 170 – 181 .
(4) ريشي ، ص 240 .

الفصل الرابع

المعارف

بدأ انتشار المعارف الصحيحة عن الكون في سنغاي بواسطة الإسلام ، ولذا فقد كانت معارف تلك البلاد إسلامية في اتّساعها ومحتواها ، وقد تعمّقت هذه المعارف بتمكّن الإسلام التدريجي في المنطقة [1] . وكان اوّل أثر لتصحيح المعارف من قبل الإسلام هو أنه قلّل من أثر المفاهيم السحرية الّتي كانت تسيطر على عقول الناس وجوّ حياتهم ، في المنطقة قبله [2] وأنه اعتماداً على هذا الواقع ، كتب أحد المؤرخين الإفريقيين يصف أثر الإسلام في إصلاح المعارف الإنسانية على أيام سنغاي وتكييفه لها فقال : « إنّ الإسلام ، لم يأت — في هذا المجال — إلاّ بكلّ جيّد وطريف ، وبذلك فقد طوّر الحياة الحضارية وطبع بطابع عميق التاريخ الإفريقي منذ ذلك الحين » . [3]

وقد ذكر كل من ابن عبد الحكم في « فتوح مصر » ، والبكري في «المسالك والممالك » : أن الإسلام دخل في وقت متقدم لهذه المنطقة ، ويذهبان إلى أن

---

(1) انظر مونتاي — العالم الإسلامي — جنيف ، 1963 ، ص 67 .
(2) القلقشندي ، ص 291 .
(3) أسوى أديكو ، ص 36 .

عقبة بن نافع الفهري غزا إفريقيا في سنة 676 للميلاد ووصل إلى مكان يسمى (ماء الفرس) ، وقد زار هذا المكان الرحالة بارت سنة 1857 وحدّد وجوده بين حدود ليبيا الحالية والنيجر في جبال طومو ، واعتماداً على هذا ، حدّد الأستاذ برونشويك في دراسة له عن الموضوع أن فزّان فقط يمكن أن تكون قد أسلمت في أيام عقبة في نفس التاريخ الذي ذكره كل من ابن عبد الحكم والبكري [1] .

وبهذا نستطيع أن نجزم بأن الإسلام وصل إلى حدود هذه المنطقة في وقت متقدم ، وأن وجوده في مثل هذا التاريخ على حدودها ، واعتناق أناس له ، عرفوا باختلاطهم الواسع مع السكان في سنغاي ، هناك ، كان له أثر في إصلاح المعارف منذ بداية القرن الثامن ، ولكن هذا التأثير كان في البداية ضعيفاً بدون شك ، فقد كتب القلقشندي في القرن الثامن عن سنغاي : (وأهل هذه المملكة كثير فيهم السحر ، ولهم عناية به حتى أنهم في بلاد الكفار منهم يصيدون الفيلة بالسحر حقيقة لا مجازاً ، وفي كل وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ، ويقول أحدهم : إنّ فلانا قتل أخي أو ولدي بالسحر ، والسلطان يحكم على القاتل بالقصاص وقتل الساحر) [2] . وعبارة « بلاد الكفّار منهم » تفيد أن هناك أقساماً أسلمت ، ولذا كان لمفعول الأفكار السحرية فيها مظهر أقلّ وطأة من غيرها .

لقد أسلمت سنغاي في القرن العاشر للميلاد ، وبقيت جزءاً من مملكة مالي حتى نهاية القرن الرابع عشر ، ونعرف أن الإسلام قد انتشر بشكل واسع وكيّف

---

(1) برونشويك – مجلة حوليات معهد الدراسات الشرقية – العدد الخامس لسنة 1647 ، (الجزائر) ، ص 96 .

(2) القلقشندي ، ج 5 ، ص 291 .

المفاهيم والحياة فيها ، خلال هذه الفترة ، ولما استقلت سنغاي عن مالي في سنة 1400 ظهرت من أول وهلة دولة إسلامية في معارفها وعقيدتها [1] . غير أن كثيراً من المعارف القديمة الوثنية المستمدة من السحر بقي لها وجود حتى بداية عهد الأسيقيين في سنة 1492 .

وقد أجهد نفسه مؤسس الدولة الأسيقية الأول الحاج محمد توري الكبير ، في القضاء على كل المعارف السحرية القديمة لأنه اعتبرها أوهاماً لا تليق بدولة إسلامية متفتحة على العالم ، ويتبين ذلك من الأسئلة التي استفتى فيها الإمام المغيلي ، واستنصحه بواسطتها ، فقد جاء في السؤال الثاني : « إن أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون ومدينتهم بالجامع والجمعة والأذان للصلوات الخميس ، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام ، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم ، فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم ... وسكنوها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطاناً قبل سني علي [2] وكان أبو سني علي سلطان أهلها وهم كفار وكان سني علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبّع بطباعهم ... ثم بعد موت أبيه قام على سنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، ومن صفاته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة إنما يقول ذلك بلسانه ... ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدّق الكهّان ويستعين بالسحرة ونحوهم»[3] .ومن هذا تبين أن الاتجاه

---

(1) أسوى وكليرسي ، ص 45 .

(2) آخر سلاطين سنغاي قبل تأسيس العائلة الأسيقية .

(3) أسئلة الأسقيا محمد وأجوبة الإمام المغيلي عليها – مخطوط بالمكتبة الوطنية ، تحت رقم ج 37 (ج) .

نحو إصلاح المعارف ثم إتخاذها الشكل الإسلامي الذي عرفت به في مملكة سنغاي إنما بدأ بصورة واضحة مع بداية عهد الأسيقيين [1] .

وقد كانت المعارف في سنغاي عبارة عن صورة طبق الأصل لما كان في بلدان المغرب ، وهذا ما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأنّ هناك ما يشبه الاستعمار الفكري المغربي في قضية المعارف التي كيّفت مفاهيم الناس في بلاد التكرور [2] . غير أن هذا قد يفسر بتحسن العلاقات واستمرار الاتصال التجاري والسياسي المثمر لفترة طويلة بين بلدان المغرب ومملكة الأسيقيين ، ولا أثر للاستعمار فيه .

وقد اتهم الحسن الوزاني الفاسي [3] المؤرخين المسلمين الذين سبقوه في الحديث عن بلاد التكرور مثل ابن بطوطة والمسعودي ، بأنهم لا يعرفون منها إلاّ الخطّ الممتد بين النيجر وبحيرة تشاد ، وقد زار هو فعلا المنطقة مرّتين وتجول في كل البلاد الواقعة تحت نفوذ الأسيقيين منها ، وكتب عنها « يوجد بها كثير من دكاكين الأطباء ، ومكاتب للقضاة ، ومنازل للفقهاء وكثير من المتعلمين»[4] . وإن المعارف التي كان يعالج بها أولئك الأطباء ، والأحكام التي كان يصدرها أولئك القضاة . والمعلومات التي كان يتدارسها الفقهاء ويشيعونها بين الملأ في سنغاي ، والمفاهيم التي كانت تملأ عقول المتعلمين ، كانت كلها هي نفس المعارف والمعلومات والمفاهيم التي عرفها العالم الإسلامي حتّى ذلك الحين ، سواء في الديانة أو في الرياضيات أو في المعارف العامة ،أما المعلومات الدينية فقد عرفتها

(1) تحسن الملاحظة هنا ، لما أبداه الملك من استنكار ما لا يتلاءم مع الإسلام وتأكيده على وجود ذلك خلال الفترة السابقة لحكمه مباشرة .
(2) غوبيي – الإسلام في إفريقيا الغربية الفرنسية – باريس ، 1952 ، ص 30 .
(3) بوفيل ، ص 56 .
(4) نفس المصدر ، ص 148 .

سنغاي على المذهب المالكي ، وأما بقية المعارف الأخرى ، فقد كانت قدراً مشاعاً يشمل كلّ ما حقّقه المسلمون في الإدراك العلمي حتّى ذلك الحين [1] .

عرفت سنغاي على أيام الأسيقيين كل المعارف التي توّصل إليها العالم الإسلامي ، سواء عن طريق الكتب التي كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة ، أو عن طريق الفقهاء التجار الذين كانوا يذهبون للتجارة ، وفي نفس الوقت يدرّسون ويعلّمون ، أو عن طريق الطلاّب السودانيين الذين عرفت عنهم في هذا العهد حركة دائبة باتجاه شمال إفريقيا ومصر ، للدراسة ، وكانوا يعودون بعد إنهاء دراستهم فيشيعون ما تلّقوه من معارف في البلدان التي كانوا قد قصدوها للدراسة والتعلم [2] . كما أنه أنجز الكثير في هذا الميدان عن طريق العلماء الذين كان ملوك الأسيقيين يعملون على جلبهم من مناطق العالم الإسلامي المختلفة للتدريس ، ويبذلون لهم من ضروب المساعدة ما يحملهم في كثير من الأحيان على الإقامة لمدة طويلة ، كما فعلوا مع المغيلي والجلال السيوطي ومع عدد آخر من علماء فاس ومراكش . وكل هذا نجد له صدى واسعاً في كتابات السعدي ومحمود كعت وأحمد بابا وابن مريم [3] وغيرهم من مؤرخي هذه الفترة .

ويبدو أن سنغاي على عهد الأسيقيين مرّت بطور الأخذ في ميدان المعارف المدة الأولى فقط . التي استمرت طيلة عهد الأسقيا محمد الأول (1493 — 1528) وعهد ابنه الأسقيا موسى (1528 — 1531) ، ثم دخلت في طور الإنتاج

(1) غوبيي ، ص 53 .
(2) يذكر السعدي عدداً من أسماء العلماء الذين جاءوا من المغرب للتدريس كما يذكر أحمد بابا جملة من العلماء الذين تغربوا في السودان لطلب العام في المغرب أو في مصر .
(3) ابن مريم – البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان – الجزائر 1908 ، ص 71 . وأحمد بابا – نيل الا بتهاج بتطريز الديباج – فاس ، 1898 ، ص 230 .

والتبادل الذي بدأ منذ سنة 1530 وبلغ أوجه خلال الفترة الممتدة بين عهد الأسقيا إسماعيل (1537 – 1539) حتى نهاية أيام الأسقيا داود في سنة (1582) [1] ، واستمر حتى بعد بداية العهد المغربي سنة 1591. ففي خلال هذه الفترة ألفت عدة شروح في الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ ألفها علماء سودانيون [2] . كما دعي بعض العلماء السودانيين للتدريس في جامعة الأزهر ، كان من أشهرهم الفقيه المفسّر (ابن عبد الرحيم) [3] .

وفي هذه الفترة ألف الفقيه أحمد بابا التمبكتي كتابه المشهور : (نيل الابتهاج في تطريز الديباج) ، ثم ألحقه بمؤلف آخر في نفس الموضوع هو (كفاية المحتاج بتطريز الديباج) ، وقد أصبح الكتابان من أهمّ المراجع في موضوعهما في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ولا يزالان حتى اليوم . وكان من العلماء السودانيين الذين عرفوا خارج بلادهم ، وأصبحوا حجة سواء بتضلعهم أو بمؤلفاتهم العديدة في كثير من معارف المسلمين حتى ذلك العصر محمد بن أحمد الونكري بغيع ، ومحمد بن محمود أقيت ومحمد بن عمر بن محمد أقيت ومخلوف البلبالي . [4]

وفي آخر هذه الفترة حصلت لآل أقيت فترة النفي التي قادهم المنصور الذهبي خلالها إلى مراكش ، حيث أنهم (كانوا ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا ، بحيث تعدّد فيهم الأئمة والعلماء والقضاة ، وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة ... ولما فتح جيش المنصور

(1) برنود فيلار ، ص 59 .

(2) انظر أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 7 فما بعد .

(3) غوبيي ، ص 62 .

(4) أحمد بابا التمبكتي – نيل الا بتهاج – ص 370 / 377 .

بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم ، إلى أن كانت سنة اثنتين وألف ، فكان أهل السودان قد سئموا ملك المغاربة ، وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول ، وكانت آذانهم مع ذلك صاغية لآل أقيت ، فتخوّف المنصور منهم ، وربما وشي بهم إليه ، فقبض على جماعة كبيرة منهم ، كان فيها الفقيه العلاّمة أبو العباس أحمد بن ثلاثة أحامد بن عمر بن محمد أقيت المدعو أبا العباس بابا صاحب تطريز الديباج وغيره من التأليف ... وانتهبت ذخائرهم وكتبهم ... قال في بذل المناصحة : (سمعت الشيخ أبا العباس يقول : أنا أقلّ عشيرتي كتباً وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد ... ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدّر لنشر العلم وأهرع الناس للأخذ عنه ، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور ، لأنه ما سرّحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ... ولما خرج من مراكش قاصداً بلده ، شيّعه أعيان طلبتها ..) [1] .

ومن هنا يبدو لنا هذا العالم السوداني المثال الحي لتضلع علماء التكرور ودورهم الإنتاجي ، أثناء عهد الأخذ والعطاء ، على أيام الأسقيين .

وقد كانت جميع أنواع المعارف تدرّس وتستوعب وتناقش بواسطة اللغة العربية ، وكانت هذه اللغة هي لغة الكتابة الرسمية والثقافية على السواء ، غير أن التدريس للعامة في المساجد كانت تستعمل فيه اللهجات المحلية بعد صلاة الجمعة ، حيث يعقب المترجم الذي كان في الغالب أحد مساعدي الإمام ، فيلخص للعامة محتوى خطبة الإمام ، وكذا كان الأمر في الأعياد . أما دروس الوعظ فكان القائم بها يتلو آيات أو أحاديث ثم يفسرها للناس بلهجاتهم ليفهموها [2] .

(1) السلاوي – الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى – الدار البيضاء ، 1955 ، ج 5 ، ص 129 / 130 .

(2) السعدي ، ص 170 . ودولافوس (أعلى السنغال) ج 2 ص 351 .

وهكذا ، فإنه لأول مرّة في تاريخ الممالك السودانية في غربي إفريقيا ، يتمكن الناس خلال عهد الأساقي من أن يعيشوا مع عصرهم في مجال المعرفة ، وقد تأتي ذلك بواسطة الإسلام واللغة العربية ، وتظافر جهود الملوك الأسيقين في إشاعة المعرفة في بلادهم ما أمكن ، وقد واتت ظروف التجارة وإمكانيات البلاد في جلب عدد كبير من المثقفين من المغرب ومصر ، كما كان لهمّة الطلبة السودانيين وتجلدهم في سبيل العلم دور هامّ في تحصيل هذه المعارف من مراكزها الأصلية ، وإن قضت دولة سنغاي خلال عهد الأسيقيين الفترة الأولى في الاستيعاب والأخذ ، فإنها ما لبثت أن شاركت بدور واضح بعد ذلك في ميدان الإنتاج والتبادل ، داخل نطاق الحضارة الإسلامية .

الفصل الخامس

التعليم

كانت مملكة سنغاي إلى حين سقوطها أكثر الممالك الإسلامية الكبرى في الغرب الإفريقي تطبعاً بمفاهيم الإسلام ، ولذا فقد سجل لها المؤرخون ، اهتماماً كبيراً بنشر العلم وتشجيع رجال التعليم وجموع الطلاّب . وكان ذلك مستمداً بالدرجة الأولى من توجيهات الإسلام [1] .

وقد سجل كل من الحسن الوزاني وكعت وأحمد بابا [2] أن مراكز الثقافة والتعليم التي يكثر بها المعلمون والطلاب في مملكة سنغاي ، كان يعهد بالإشراف عليها للقضاة وحدهم ، وذلك احتراماً لها ، ولا يدخلها السلاطين . ورجال الحكم إلاّ في المناسبات الدينية فقط . ولا يفهم من هذا أنه لم يكن لها ولاة ، ولكن شؤون الأهالي فيها كان القضاة يضطلعون منها بأكبر نصيب ؛ ممّا يؤكد الأهمية والعناية اللتين كانت توليهما المملكة للحركة العلمية بالبلاد .

وكان المعلمون في جميع جهات المملكة الأسيقية – على اختلاف طبقاتهم – يحظون باحترام كبير ، سواء من طرف الأهالي أو السلطة [3] . وهم يتفرعون إلى

---

(1) نعيم قداح ، ص 133 .
(2) وصف إفريقيا ، ص 28 – تاريخ السودان ، ص 101 – ونيل الابتهاج ، ص 230 .
(3) نعيم قداح ، ص 143 .

قسمين : طائفة المعلمين وطائفة المؤدّبين (الأساتذة) . وكانت طائفة الأساتذة تتقاضى الأجور من سلاطين الأسيقيين (1) ، وغالباً ما تصلهم هذه الأجور عن طريق القاضي ، لأن القاضي ، كان هو الذي يتولى الإشراف على الحركة التعليمية في منطقته ، وبالتالي فقد كانت توكل إليه مسألة العناية بإيواء الطلاب وتوزيع الجرايات والهدايا عليهم وعلى معلميهم (2) .

وكانت مراحل التعليم في مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين . تقسم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي والعالي .

ويتولى التدريس في المرحلة الابتدائية معلمو الكتاتيب ، وكانت منتشرة بكثرة في جميع المدن والقرى ، وفي هذه الأخيرة كثيراً ما يتخذ المعلمون لطلابهم مجالس في العراء أو تحت ظلال الأشجار إلاّ أن الغالب أن تكون لهم دور خاصة قرب المساجد (3) .

وكان معلمو الكتاتيب يتولون أعمالهم بشكل حرّفي البداية ، ولكنه لم يكن يتصدى لهذه المهنة إلاّ من يأنسون في أنفسهم الكفاءة اللازمة لمهنتهم ، مثل حفظ القرآن والإلمام بمبادىء في اللغة والفرائض وإتقان الخطّ ، وكانت هذه هي المواد الأساسية في مناهج الكتّاب ، ومن هنا فقد كان عمل الكتّاب هو تهيئة الطالب للدخول في المرحلة الثانية من التعليم بعد أن يكون له إلمام كاف بالخط وشيء من اللغة يمكنانه من فهم الدروس والمناقشة في حلقة الأستاذ ، وتسجيل ما يلزم له تسجيله (4) .

وكان الأطفال يدخلون الكتّاب في السن الخامسة غالباً، ويمضون فيه مرحلة الصبا بتمامها ، ولا يدخلون المرحلة اللاحقة إلاّ بعد ذلك ، ولذا فقد كانت

(1) ليون الإفريقي ، ص 21 .
(2) كعت ، ص 183 وما يليها.
(3) نعيم قداح ، ص 145 .
(4) نفس المصدر، ص 144 .

مرحلة الكتّاب ضرورية لكل طالب ، لأنه بدونها لا يتأهل لمزاولة الدراسة في بقية المراحل (1) ، وقد كان عدد الكتاتيب مرتفعاً في مملكة سنغاي (2) ، وكان معظمها يشتمل على عدد كبير من التلاميذ أيضاً (ذكر الشيخ محمد بن أحمد أنه حضر مكتب المعلّم علي تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر (3) ، وجعل صبيانه يأتونه بخمس ودعات وبعضهم عشر ودعات على عادتّهم المسماة الأربع حتى تحصّل قدّامه ألف وسبعمائة وعشرون ودعاً ، قال الراوي المذكور أسرحت نظري إلى ألواح الصبيان المتخذة في عرصة داره وعددت منها مائة وثلاثة وعشرين لوحاً ، وظننت أن تكون جملة القرآن محصلة في تلكم الألواح) (4) . وهذا ممّا يعطينا فكرة واضحة عن مدى العدد الكبير من التلاميذ الذين كانوا يرتادون كل كتّاب . وقد بلغ من تقدير الرسميين لحركة مدرسي الكتاتيب أن والي كياك يأتي في شهر رمضان (من كل عام ... بصدقاته وهداياته ، ويفرقها عليهم ، وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام ، ثم يجعل المطبوخ في المائدة ، ويحملها فوق رأسه وينادي قرّاء القرآن وصبيان المكتب ، ويأكلونها والقدح على رأسه ، يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم) (5) .

وكان طلبة القرآن ومعلموهم على أيام الأسيقيين ، لهم مشاركة اجتماعية واسعة أثناء الحفلات التأبينية والولائم ، حيث جرت العادة أن يستدعوا أثناء الولائم العامة والأفراح للمنازل ، فيرتلون جماعياً (عشرينيات الفزاري وتخميسها لابن وهب) ، وتوزع عليهم الهدايا السنية إثر ذلك (6) . أمّا حينما تحدث

(1) نفس المصدر ، ص 145 .
(2) بوفيل نقلا (عن ليون الإفريقي) ، ص 148 .
(3) في تنبكت .
(4) محمود كعت ، ص 180 .
(5) نفس المصدر ، ص 180 .
(6) نفس المصدر ص 124 .

الوفيات فإنهم كانوا يرتلون القرآن حتى وقت متأخر من الليل ، وقد يستمرون على ذلك لعدة ليال ، وتوزع عليهم الهدايا والصدقات على قدر ممتلكات الشخص المتوفى ومكانة عائلته ، فعند موت أحد الأساقي مثلا (تصدق عليه بقراءة القرآن وذبح بقرات كثيرة ، وأعطي الطلبة القراء عشرة عبيد ومائة ودع)[1] .

إذن ، فعلى هذا النحو ، كان للكتّاب ومعلميه وطلبته من الأهمية والانتشار على عهد الأسيقيين في سنغاي . أما التعليم الثانوي والعالي ، فلم تكن الفوارق بينهما واضحة ، وإنما كان في كل المدن الكبيرة مساجد بعضها صغير والبعض الآخر كبير ، وكانت المواد الأكثر وضوحاً وبساطة تدرس في المساجد الصغيرة ، مثل النحو والفرائض والبلاغة ، كما كانت الكتب التي تدرّس يبدأ منها بتلك التي لا تحتوي الكثير من التفصيلات ، وتدرس في المساجد الصغيرة . ففي تنبكت مثلاً ، كان التدريس في مسجد الونكريين من النوع الثانوي . الذي ينتقل إليه الطالب مباشرة بعد أن يكون قد أنهى تعلمه بالكتاب ، أما في جامع السنكري ، فقد كان التعليم من النوع العالي ، حيث تدرّس المواد في شكل اختصاص ، وتتناول بتفصيلات واسعة ، وتناقش المسائل فيها على مستوى أمّهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون حتى ذلك العهد[2] . وكان لا يجلس للتعليم من هذا النوع الا أساتذة متضلعون قد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها ، وكان بينهم كثير من المغاربة ، ومما يدل على تضلعهم . أولا : إن أمهات الكتب التي كانت تدرس في المشرق والمغرب العربيين . كانت تدرس في السودان خلال هذه الفترة أيضاً[3] وثانياً : إن الفقيه عبد الرحمن التميمي ورد من المغرب على السودان قبل هذه الفترة وجلس في الجامع للتدريس ، ولكنه ما لبث أن أدرك أن المدرسين حواليه أكثر تضلعاً منه ، فرجع إلى فاس

(1) نفس المصدر ، ص 130 .
(2) أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 285 و370 .
(3) انظر أحمد بابا والسعدي والفتاش ، فكلهم يتفقون على أن المدرسين في زمانهم كانوا على مستوى عال من التحصيل والاطلاع على أمهات الكتب في العالم الإسلامي آنذاك .

ليزداد تخصصاً ، حتى يمكن له أن يتصدر للتدريس بالسودان[1] .

ويذكر الحسن الوزاني أن العلماء المتضلعين في مختلف الفروع العلمية المعروفة حتى ذلك الحين ، كانوا كثيرين في مملكة الأساقي ، ولهم نشاط في التدريس كبير ، وإقبال على التأليف واقتناء الكتب بأثمان عالية حيث يجمعونها في مكتباتهم التي كانت تشبه في ضخامتها حوانيت التجار الكبار[2] ، أما محمود كعت فقد حدد ميادين اختصاصاتهم الهامة في مواد النحو والمنطق والفقه والأدب واللغة والتفسير والحديث والفلك[3] . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن سعة اطلاع هؤلاء العلماء السودانيين في هذه الفترة من كثرة الكتب التي كانوا يتداولونها في مختلف الفروع ، وفي هذا الصدد نقل السلاوي عن أحمد بابا حديثاً فيما يخص عدد الكتب التي ضاعت منه حين نفي إلى مراكش ، قال أحمد بابا : (أنا أقل عشيرتي كتبا وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد)[4] .

هكذا كان تضلع علماء السودان خلال عهد الأساقي ، وهكذا كانت سعة اطلاعهم ، وبهذا التضلّع وهذه الفسحة في المعرفة ، كانوا يباشرون مهنة التعليم طول النهار وسط العدد الضخم من طلاب العلم[5] ، وقد تحدث أحمد بابا عن عمل أحدهم اليومي ، وهو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري فقال : (يقرىء من صلاة الصبح أول وقته ، إلى الضحى الكبيرة ... ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى ... ثم يقرىء في بيته وقت الزوال ، ثم يصلي الظهر ... ويدرس إلى العصر ، ثم يصليها ويذهب إلى موضع أخر يدرس فيه إلى الاصفرار أو قربه ، وإذا صلّى المغرب درس في الجامع إلى العشاء ثم رجع لبيته ... وكان مع ذلك

(1) نعيم قداح ، ص 145 . (نقلا عن جبريل نيان) .
(2) ليون الإفريقي ، ص 12 .
(3) نعيم قداح ، ص 145 .
(4) السلاوي ج 5 ، ص 130 .
نعيم قداح ص 145 .
(5) أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 172 .

محققاً داركاً ذكياً فطناً غواصاً على اللطائف حاضر الجواب سريع الإدراك وجودة الفهم ، معروفاً بذلك) [1] .

أمّا الطلاّب فقد كان لهم إقبال على العلم دفعهم في كثير من الأحيان إلى عدم الاكتفاء بالدراسة في السودان ، وقد كان الكثيرون منهم يقومون برحلات واسعة إلى بلدان المغرب وإلى مصر ، وقد بلغ من كثرة ورودهم على مصر أن أسّس لهم في هذه الفترة رواق خاص بالأزهر عرف برواق التكرور [2] ، وكانت العادة في مزاولة التعليم العالي لدى المسلمين هي أن الطلاب كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر ، كلما سمعوا بأستاذ متضلع في مادة يريدون التمكن منها [3] ، وهذه الطريقة كان قد اتّبعها الطلاب على عهد الأسيقيين بالسودان الغربي ، بنفس الأسلوب ، ومن ذلك ما أثبته أحمد بابا عن الكيفية التي طلب بها العلم أحد أساتذته فقال : (أخذ العربية والفقه على أبيه الفقيه القاضي الصالح محمود وعلى خاله الفقيه الصالح ، ثم رحل لتنبكت مع أخيه الفقيه الصالح أحمد ، فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر ، ثم حجّا مع خالهما ، فلقوا بمصر الناصر اللقّاني والتاجوري والزين البحري والشريف يوسف والبرهمتوشي الحنفي والشيخ الإمام ولي الله محمد البكري وغيرهم ، فحصّلا هناك ما حصلا ، ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج وموت خالهما ، فاستوطنا تنبكت ، فأخذا أيضاً عن ابن سعيد الفقه والحديث ، قرآ عليه المدوّنة والموطأ والمختصر وغيرها ولازماه ، وعن السيّد الوالد أحمد بن أحمد الأصول والبيان والمنطق ، فقرآ عليه أصول السبكي والتلخيص) [4] . وقد كان الطالب كلما تمكّن من مادة جاز له أن يدرّسها ، ولكنه يبقى في بقية المواد التي لا يزال لم يبلغ فيها المستوى المطلوب تلميذاً ، فأثناء حديث أحمد بابا عن أستاذه المذكور أثبت لنا أنه كان أثناء

(1) أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 172 .
(2) عبد الرحمن زكي (د.) – في مقال له ب (المجلة) عدد فيفري 1961 ، ص 40 .
(3) عبد الرحمن شلبي (د.) – تاريخ التربية الإسلامية – دار الكشاف ، بيروت ، ص 271 .
(4) أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 373 .

طلبه للعلم في بعض المواد ، يدرّس في مواد أخرى ، كان قد وصل فيها إلى غايته ، وبقي على هذه الطريقة (حتّى صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون ، لا نظير له) [1] .

وكان نظام الشهادات معروفاً في السودان على عهد الأسقيين ، إذ كان الأستاذ كلما أنس من أحد طلبته تمكناً كافياً في مادة من المواد التي درسها الطالب على يده ، أعطاه إجازة بخطّ يده ، ففي حديث أحمد بابا عن طلبة العلم على يد أحد الأساتذة الشهيرين على أيامه قال : (لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتهما عليه ... وحضرت عليه التوضيح كذلك ، لم يفتني منه إلاّ يسيراً من الوديعة إلى الأقضية ، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم ، وحضرته كثيراً في المنتقى والمدوّنة ... وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها ... وختمت عليه تلخيص المفتاح .. بمختصر السعدي وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرة وحضرت عليه الكبرى وشرحها وقرأت عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف ... وكثيراً من تحفة الحكّام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها ، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلم كله ... ودولا من مدخل ابن الحاج ، ... ودرسنا من الرسالة والألفية وغيرهما وجامع معيار الونشريسي كاملا ... وباحثته كثيراً في المشكلات ، وراجعته طويلا في المهمات ... وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لي بخطه في ذلك) [2] . ومن هذا القبيل تحدث السعدي عن عدد من أشياخه الذين درس عليهم ، ونجده بعد حديثه عن كل منهم يذكر المادة التي درسها عليه والكيفية التي أخذ بها والمدة التي استغرقها في الملازمة ، ينهي حديثه بهذه العبارة : (إنه أجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه [3]) وهكذا ،

(1) المصدر نفسه .
(2) نفس المصدر والصفحة .
(3) عبد الرحمن السعدي ، ص 46 .

كان نظام الشهادات بهذه الكيفية معروفاً ومعمولا به في مملكة سنغاي على أيام الأسقيين .

وفي هذا العهد سجلت تنقّلات واسعة للمدرسين بين مملكة سنغاي وبين المشرق والمغرب العربيين على السواء ، فالفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي المتوفى في سنة 940 هـ قرأ في السودان ثم ارتحل إلى المغرب ، وقد درّس في تنبكتو ثم في مراكش ، والمغيلي التلمساني درّس في تكدة وفي غاو والفقيه محمد ابن أحمد التازختي قرأ في بلاده بالسودان ودرّس بها ، ثم انتقل إلى المشرق فحضر دروس القلقشندي والسناطي ، وأجازه في مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي ، وغيرهم [1] ، ولكن هذا النوع من التبادل كان بين المغرب والسودان أكثر منه بين السودان والمشرق ، ولذا فإن هناك مؤلفات مغربية كانت قد عرفت وتداولها المثقفون في السودان ، ولم تعرف في المشرق على ذلك العهد ، مثل مؤلفات المغيلي وجامع المعيار ، للونشريسي [2] .

وقد كانت الطريقة المتبعة من طرف مشاهير الأساتذة في سنغاي على عهد الأسقيين ، هي الشرح بأسلوب مُبَسّط لتقريب الفهم وتسهيل الاستيعاب . ولكنهم لم يكونوا في نفس الوقت يغفلون قضية التعمّق في دروسهم ما أمكنهم ذلك ، وفي سبيل هذه الغاية كانوا يقضون الأوقات الطويلة في التحضير ، وكانوا يصبرون على المناقشة في المسائل المختلفة مع طلابهم ، حتى يتمكن هؤلاء من بلوغ أهدافهم من التحصيل ، وهذا ما نقل لنا صورة عنهم فيه الشيخ يحيى التادلسي في رثائه لأحد العلماء المدرّسين في زمانه ، وهو محمد سميدع ، فقال :

(1) المصدر نفسه ، ص 39 / 40.
(2) المصدر نفسه ، ص 46 .

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي
يثير هموم القلب من كلّ وافد ؟
يثير هموم القلب فقد سميدع
فقيه حليم حامل للفرائد
محسن تعليم مقرّب فهمه
وفتّاق تهذيب بحسن القواعد
محمد الأستاذ مؤدب ذي النهى
رباطاً صباراً أمره في التزايد
فيا عجبا هل بعده من مبيّن
ويا عربا هل بعده من مجالد [1]

وقد عرف هؤلاء المدرسون بتواضعهم على ذلك العهد ، فبعد أن تحدث السعدي عن كثرة الطلاب الذين كانوا يتوافدون على الجوامع في بلاد سنغاي على أيام الأسقيين [2] استطرد إلى الحديث عن أخلاق العلماء المدرسين الذين كان يتهافت عليهم الطلاب ، فقال عن أحدهم مثلا ، وهو الشيخ الفقيه أبو عبدالله محمد ابن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس: (وليس له بوّاب ، كل من جاء يدخل بلا استئذان يزوره الناس من كل فج ، في كل ساعة [3]) .

وتحدث أحمد بابا عن بعض أشياخه فوصف تواضع أحدهم بقوله : (وأوقفته على بعض تواليفي وتقاييدي، فكتب لي بخطه الثناء والموافقة، بل كتب عني أشياء من أبحاثي لحسن نيته وسمعته ينقل في دروسه بعضها لإنصافه وتواضعه ، وقبوله الحق حيث تعيّن) [4] ، وإن هذا العالم الذي يقبل أن يأخذ من الأفكار التي توصل إليها أحد طلاّبه اللامعين ، ويعتبرها حجّة ، هو نفسه الذي كانت له (تعاليق وطرر نبّه فيها على هفوات لشرّاح خليل وغيره ، وتتبع شرح التتائي

(1) المصدر نفسه ، ص 49 .
(2) نفس المصدر ، ص 48 .
(3) نفس المصدر ، ص 52 .
(4) أحمد بابا – نيل الابتهاج – ص 373 .

الكبير من أوله إلى آخره فبين ما فيه من السهو نقلا وتقريراً في غاية الإفادة) (1) . ومن هنا فإن الأمر لم يكن إلاّ تواضعاً واندفاعاً وراء الحقيقة حيث كانت ، وهذه هي إحدى الخصائل التي يقرّ علماء التربية على أيامنا وجوب التحلّي بها ، أما الصفة الأخرى فهي الصبر الذي تقتضيه مهمّة المدرس حيثما كان ، وقد توافرت أيضاً لدى علماء المملكة الأسيقية ، فقد تحدث أحمد بابا نفسه عن أحد أساتذته الذين كان لهم الأثر الأقوى في حياته ، فقال عنه (وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به) (2) ، ثم قال عنه في موضع آخر : (وكان له صبر عظيم على التعليم آناء الليل والنهار ، وحصل على إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا كسل ، حتى يضجر حاضروه وهو لا يكترث ، فنفع الله به كثيراً) (3) ، وبنفس الصفات تحدث السعدي عن أشياخه ، فقال عن أحدهم : (واقفته على بعض تواليفي فسرّ به وقرظ عليه لي بخطه ، بل كتب عني أشياء من أبحاثي ، وسمعته ينقل بعضها في دروسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعيّن (4) ، وتحدث عن آخر فأسهب في وصف المواد التي درسها عليه ، والمدة التي لازمه ، ثم قال : (وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه) (5) .

وهكذا يمكننا أن ننتهي إلى القول بأن الحركة التعليمية في السودان الغربي على أيام الأسقيين ، كانت على درجة عالية من الازدهار بمقاييس ذلك العصر وأنها كانت تشبه في جميع جوانبها ما كان موجوداً في البلاد الإسلامية الأخرى ، من تضلع الأساتذة في أنواع المعارف الموجودة حتى ذلك الحين ، وحدبهم على التدريس وإقبال جموع الطلبة على الأخذ عنهم وأخيراً نظام الإجازات والتزام الصبر والتواضع وأسلوب التبسيط للأفهام ، مع عدم الإخلال بالقدر الكافي من التعمق .

(1) نفس المصدر والصفحة .
(2) نفس المصدر والصفحة .
(3) نفس المصدر ، ص 372 .
(4) السعدي ، ص 46 . (ويلاحظ هنا تقارب العبارة بين السعدي وأحمد بابا).
(5) نفس المصدر والصفحة .

الفصل السادس

حركة الفكر والفنون والعمارة

1 — نظرة عامة

يرى دولافوس (1) أنه إذا كانت هناك علامات التقاء تجمع بين جميع شعوب إفريقيا السوداء (2) في الميدان الحضاري فهي الفنون بدون شك .

وإننا لنميل لاستصواب هذا الرأي ، لأن الدارس يجد هناك اختلافات عديدة بين القبائل في إفريقيا الغربية ، وخاصة بعد دخول الإسلام منذ القرن التاسع كما أسلفنا ، فالذين دخلوا منهم في الإسلام ، يبدو أنّهم قد تطّعمت أساليب تفكيرهم بمعطيات جديدة ، جاءت بالدرجة الأولى من اعتناقهم الإسلام ، واحتكاكهم بالمسلمين . أما الذين بقوا على الوثنية فقد حافظوا على أساليبهم القديمة في فنونهم وآدابهم .

وقد خضعت الشعوب في إفريقيا الغربية والوسطى حتى أواخر القرن التاسع عشر لعديد من الهجرات ، فرضها عليها النزاع القبليّ ، وتكوين ممالك كبيرة في السودان الغربي بعد دخول الإسلام ، فكانت عدة قبائل تغير أماكنها بين

(1) حضارات إفريقيا السوداء ، باريس 1925 ، ص 120 .
(2) يقصد بهذه التسمية إفريقيا الغربية .

فترة وأخرى ، وبهذا الشكل انتشر شعب الفلان مثلا في كل نواحي إفريقيا الغربية ، وانتشر السراكوليون حتّى مشارف بحيرة تشاد .

أمّا السنغائيون فقد امتدوا على طول نهر النيجر الأوسط والأعلى ، وكانوا قبل ذلك محصورين في منطقة صغيرة على النيجر الأوسط .

وكانت هذه القبائل الثلاث في القرن العاشر ، كلٌّ منها يسكن أماكن محدودة خاصّة بها . (1)

فالفلان كانوا في منطقة التكرور وحدها (2) . والسراكوليون ، كانوا يقطنون منطقة الحوض قرب السنغال الأعلى (3) . أمّا قبيلة سنغاي فقد أسلفنا بأنها كانت تعيش في منطقة صغيرة على النيجر الأوسط .

وكانت كل قبيلة تنتقل من مكان إلى آخر ، تأخذ في المكان الجديد عدداً من تقاليد القبائل الموجودة به ، وتحافظ في نفس الوقت على جملة من تقاليدها في موطنها الأصلي ، ومن ضمن ذلك : الفنون والأفكار .

هذا ، وإن القبائل التي دخلت في الإسلام ، قد أخذت العربية كلغة دينية وإدارية وثقافية ، ومن ثم فإنها تذوّقت قسماً هامّاً من الثقافة العربية وأنتجت فيها . (4)

غير أن الطابع القديم كان يبقى مع ذلك موجوداً وشديد الظهور في كثير من الحالات ، وعلى هذا الأساس ، فإننّا يمكن أن نتتبع وضعية الفنون وتطور الإنتاج الفكري خلال عهد الأسقيين في سنغاي ، وقد اقتنعنا مسبقاً ، بإن التمازج بين القديم والحديث سيظل هو الطابع المميز للفنون في البلاد ، أما

(1) انظر بولم – الحضارات الإفريقية – ص 19 .

(2) السنغال الشرقي حالياً ، على الأكثر .

(3) الجنوب الموريطاني حالياً .

(4) انظر أحمد بابا – معراج الصعود – مخطط المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5291 الورقة 3 .

الإنتاج الفكري فقد طغت عليه الصبغة الإسلامية ، وما ذلك إلاّ لأن الذين كانوا ينتجون في هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التي تمكنت من الدين الإسلامي بواسطة اللغة العربية . ومن هنا فإنّ النظرة العامة للفنون وحركة الفكر في سنغاي ، تفضي بالباحث إلى الميل بإن ميدان الفنون كان عامّاً ، في حين كان ميدان تطور الحركة الفكرية ضيقاً ومحدوداً .

والفارق الواضح يتجسّم أمامنا في أن حركة الفكر قد اصطبغت بصبغة جديدة ، هي التي كان يمثلها الانسجام الكليّ مع الإسلام ، في حين أن ميدان الفنون بقي يتجاذبه القديم أكثر ، وما ذلك إلاّ لأن العامة لم يكن ممكناً أمامها — على ما يظهر — إلا التلاصق مع القديم لمدة طويلة ، فهي لا تستطيع أن تتخلى عنه أو تقطع صلتها به إلاّ ببطء ، وهذا بخلاف المجموعات الصغيرة المتمثلة في طبقة المتعلمين ، فإن تعلمها قد مكنها في فترة قصيرة من الانجذاب إلى الجديد والأخذ به وحده .

لقد اختلفت إذن ميادين كل من الفكر والفنون في مجتمع سنغاي ، كما اختلفت طبيعة كل منهما ، بالرغم من شيوع النظرية القائلة بوحدتهما على أيامنا (1) ، ولذا فإننّا لا يمكن لنا فيما يلي إلاّ أن نخص كلا منهما بالحديث على حدة .

2 — الحركة الفكرية

لقد ظهرت الحركة الفكرية وتطوّرت — حسبما يتبينها الباحث من مختلف الوثائق الموجودة — في ثلاثة ميادين ، هي : الآداب — التاريخ — الشرعيات وعلوم اللغة — ووفق هذا التصنيف ، يمكن لنا أن نتتبع تطورها فيما يلي :

(1) من ذلك مثلا ما يراه « جونهاينز ، ص 26 » من أن الثقافة الإفريقية في مظهرها الحالي على الأقل ، هي من المعارف العامة عن الكون ، ومن الفنون ومن صبغة السلوك العامة المتكيفة بكل من المعارف والفنون ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة قائمة بذاتها ، لا يمكن فصل جانب منها عن الآخر .

أ ــ الآداب وأساليب الكتابة

لم يكن للإفريقيين في غرب إفريقيا قبل مجيء الإسلام من الآداب [1] سوى حكايات يتناقلونها بالمشافهة ، أصاغر عن أكابر ، وهي تروي بطولات الأجداد وأصول القبائل وحروب الملوك والرؤساء وكذا العراك مع الطبيعة [2] ، فهي آداب غير مكتوبة ، ولكن كان لها أثرها في حياة الناس ، وبالتالي فإنها تجسّم أمامنا فكرة عامة لكلّ جماعة من حيث طابعها المميز ، ومعتقداتها في الحياة ، وأهدافها في العمل .

ولما جاء الإسلام اعتنقه الإفريقيون ، في غرب إفريقيا ، على مستويات مختلفة ، فهناك جماعات الرؤساء والعلماء والعائلات الكبيرة التي تمكنت من استيعاب مفاهيم الإسلام ، بفضل احتكاكها بالعرب من التجار والفقهاء ، الذين كان تواردهم على البلاد لا يفتأ يزداد باستمرار كما رأينا [3] .

أما العامة فقد بقيت متأصلة فيها أكثر تقاليدها القديمة وطرقها في الفكر والحياة ، واعتنقت الإسلام في أغلب الأحيان دون تحول كبير عن نظام حياتها الأول ، في هذه الناحية .

وهذه الصورة هي عينها التي كانت عليها الشعوب التي تكونت منها مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين .

فنحن نجد في المدن الكبيرة التي كانت ترتكز حولها ميادين النشاط الإنتاجي والتعامل التجاري ، مثل تمبكتو ، غاو ، جني ، والاتا وسواها ، علماء ومفكرين وقضاة ، قد تمكنوا من دراسة العربية والإسلام ، حتى أصبحوا ينتجون في ميادينهما ، مختلف مؤلفاتهم ، بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية ، على النمط الذي كان عند العرب ، في المشرق والمغرب على السواء .

(1) نعني بالآداب هنا ، مختلف المواضيع التي أنتج فيها السودانيون آنذاك في غير الشرعيات والتاريخ .

(2) انظر : إكيلباك – الحكاية الأهلية – باريس ، 1913 ، ص 2 وما يليها . وكذلك ديشمب إفريقيا قبل الاستعمار – ص 11 .

(3) انظر فصل العلاقات الخارجية ، وكذلك الفصل المتعلق بالتجارة من هذا الكتاب .

ولكن هذه الفئة من المجتمع السنغاني ، لم تكن لتزيد نسبتها عن نسبة الأقلية الضئيلة بين سكان الإمبراطورية آنذاك .

أمّا النسبة الكبيرة الباقية من شعوب الإمبراطورية ، فقد بقيت على الأسلوب الإفريقي الأول في التطارح الأدبي عن طريق الحكايات الشعبية والتغنّي بأمجاد الأسلاف ، وأبطال المجتمع في صراعهم مع مظاهر الطبيعة المتنوعة .

وبما أن هذا النوع من الآداب ، كما يمكن لنا أن نسمّيه ، لم يكن قد سجّل ، فإنه من غير الممكن معالجة موضوعه وقواعده هنا .

أمّا النوع الآخر منه ، وهو الذي ناله التسجيل ، فبالرغم من أنّه لا يمثّل إلاّ الأقلية من أفراد المجتمع ، إلا أنّه هو الذي يمكن لنا أن نتناوله وحده بالدرس لأن قسماً هاماً من مصادره الأساسية موجود .

وإذا كان هذا الصنف من الآداب لا يمثل إلا الأقلية كما رأينا ، فإن ذلك لا يمكن أن ينقص من قيمته في نظرنا ، لأن تلك الأقلية ، بالرغم من كونها أقلية ، فإنها كانت تمثّل النخبة الرائدة ، التي كانت تقود المجتمع وتمثل وسطه العنصر الذي يسعى للدخول به إلى ميادين التقدم ، وعليها وحدها إذن ، كان يقع عبء استهداف الأفضل في حياة المجتمع ، وعلى ضوء إرشادها وتوجيهاتها ، كان يمكن للمجتمع في الغرب الإفريقي على أيام سنغاي السير نحو التطور .

ومن هنا تصبح تقييماتنا لهذا القسم من الأدب، وحسب الإمكان ، مفيدة وضرورية .

لم نعثر لكتاب السودان في أيام الأسيقيين على أشعار ، ولكنهم كانوا كثيراً ما يستشهدون بأشعار وكتابات لشعراء العرب وكتابهم فعبد الرحمن السعدي يقول عن تمبكتو بأنها تشبه في روعتها وجمالها ، ما كان قد شبّه به الهمذاني البصرة في مقاماته [1] .

(1) انظر : (عبد الرحمن السعدي) ص 18 .

أمّا أحمد بابا ، فهو يستشهد على صواب نظريته في أنّ السّواد في لون البشرة لدى الإنسان ، إنّما مردّه إلى العوامل المناخية والطبيعية ، برأي ابن خلدون ، ويورد رجز أبي علي بن سينا الذي لخصّ فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله :

حرّ غيّر الأجسـادا حتّى كسا جلودهـا سوادا
والصلغب اكتسبه بياضـا حتّى غدت جلودها فضاضا

وهذا يدل على اطلاّع السودانيين الكافي على الأشعار العربية والكتابات المنمّقة لدى الهمذاني والحريري وغيرهما .

ولكني لم أعثر على أشعار من إنتاج سوداني في تلك الفترة . (1)

أمّا الأسلوب الذي كانوا يكتبون به ، فإنّنا إذا أخذنا أحمد بابا كمثال ، لأنه عاش في نفس الفترة وكتب خلالها أيضاً ، فإن أسلوبه شيق وجزل ومتين .

شيق من حيث أن الموضوعات التي طرقها موضوعات طريفة في حد ذاتها فقد ألّف في تراجم علماء المالكية ، وكتب رسالة حول حكم الإسلام في امتلاك المسلم للمسلم كعبد ، ضمّنها رأيه الخاص أيضاً (2) .

وقد عالج أحمد بابا ذلك الموضوع بأسلوب علمي موضوعي ، ويظهر من عباراته أنه كتبه كإبداء رأي في إحدى مشاكل مجتمعه في عصره .

وأمّا جزالة أسلوب أحمد بابا فإنها تتمثّل أمامنا في تمكنّه من الألفاظ

---

(1) أورد الألوري (تاريخ نيجيريا) عدة أبيات في طاب العلم والتزهد نسبها لشعراء سودانيين ، ولم يبين أصحابها ولا تاريخها ، ويرجح أنها لكتاب من العهود المتأخرة . (الألوري ، ص 49) .

(2) سمى أحمد بابا هذه الرسالة (الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان) ، ثم قال : (وإن شئت فسمه معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود) (ورقات 19 — 23) من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 1893 ، وتوجد من هذه الرسالة ثماني نسخ في مكتبة الرباط (انظر الكتاني في مجلة هسبريس رقم 9 لسنة 1968 ، ص 53 وما يليها) .

التي يستعملها وفي المفردات التي تتركب منها جمله ، فهي كلّها متناسقة ، مما جعل جمله قصيرة أيضاً ، شأن المتمكن من اللغة .

وأمّا المتانة في أسلوب أحمد بابا فإننا لنلمسها في أنّ الرجل ، ألفاظه بقدر معانيه ، أما عباراته فهي شديدة الدلالة على ما يقصد .

وعلى العكس من أحمد بابا ، نجد كلا من أسلوب السعدي ومحمود كعت بعيدين عن المتانة والجزالة ، وكثيراً ما يتخللهما الحشو ، وأحياناً نجد لديهما تعابير غامضة استعملت فيها مفردات أخذاها من الدارجة في تمبكتو على أيامهما .

وربما يعود الفرق في أسلوبهما عن أحمد بابا ، إلى أنّ هذا الأخير عاش وكتب في أيّام ازدهار الثقافة العربية بالسودان الغربي على أيامه ، في حين كتب السعدي وكعت بعد تلك الفترة ، حينما بدأت تضعف مكانة اللغة العربية بالبلاد (1) .

ونجد كتابة سودانية أيضاً باللغة العربية من فترة الأسقيين في الأسئلة السبعة التي كان قد بعث بها الحاج محمد الأول إلى الإمام المغيلي حوالي سنة 1502 ، فكل سؤال من بينها يحتوي على أكثر من سطرين أمّا عباراتها فشديدة القوة والتماسك ، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن كاتبها سوداني ، لأن الأخبار تواترت إلينا عن وجود كتاب مغاربة في بلاط الأسقيا في ذلك الوقت ، ولذا فغير مؤكد لدينا نسبة صياغة تلك الأسئلة لكاتب سوداني (2) .

والنتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها في موضوع الكتابة الأدبية في سنغاي

---

(1) القرنان 16 و 17 . هذا ويذهب العلامة هوداس أثناء تعليقه على تاريخ الفتاش وتاريخ السودان إلى أنهما أكملا من طرف أحفاد المؤلفين ، وليست كل النسختين من كتابة وأسلوب مؤلفيهما الأصليين . انظر تاريخ السودان وتاريخ الفتاش نشر ميزوناف ، باريس ، 1964) ، في المقدمة .

(2) من المعروف في تاريخ الحضارة الإسلامية أن كتاب الملوك كانوا يسمون بـ (كتاب الإنشاء) أو (كتاب الرسائل) ، وكانوا يختارون من بين أبرع الكتاب واللغويين ، ولذا فإن الذي كتب رسالة الأسقيا إلى المغيلي ، لا شك أنه كان من نوع الكتاب البارعين .

على أيام الأسيقيين ، أن معظم الكتابات التي وصلت إلينا من ذلك الوقت هي كتابات قليلة من حيث الكمية ، وكلها مكتوبة باللغة العربية .

ومن الاطلاع عليها يستطيع الدارس أن ينتهي إلى القول بأن الكتابة باللغة العربية قد بلغت مستوى متوسطاً لدى كتّاب ذلك الوقت من السودانيين فقد كتب أولئك السودانيون في مواضيع اجتماعية عديدة أثناء تصدّيهم للكتابة في التاريخ والفقه ، ولكن لم تؤثر لنا عنهم أشعار تستحق الذكر سوى ضروب من الرجز الذي كانوا يستعملونه أحياناً لضبط معلوماتهم في الفقه والفرائض والمنطق [1] ولذا فإن تحليل ميادين وطبيعة إنتاجهم فيما يأتي سيمكننا أكثر من أخذ فكرة إجمالية عن تطور الحركة الفكرية في ذلك الوقت .

ب — الشرعيات وعلوم اللغة

تحدث السعدي [2] طويلاً عن العلماء والفقهاء الذين تولوا مناصب قضائية في بلاد سنغاي طيلة عهد الأسيقيين ، كما أتى بقوائم طويلة للأئمة والمدرسين

(1) نستثني هنا ما ذكره اليفراني في نزهة الهادي بأخبار ملوك القرن الحادي (مخطوط مدرسة اللغات الشرقية تحت رقم (HD IV13) ، فقد نسب لأحمد بابا ثمانية أبيات نظمها في التعبير عن الحنين إلى وطنه حينما كان في مراكش منفياً ، ولم يكن أحمد بابا شاعراً كما هو معروف ، ولذا كان نظم تلك الأبيات غير سليم . وهذه الأبيات هي :

أيا قاصدا كاغو فعج نحو بلدتي ... وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيراً من غريب وشائق ... إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي
وعندي أقارب هناك أعزة ... علي ، السادة الأُلى دفنت بغربتي
أبي زيدهم شيخ الفضائل والهدى ... وصنو أبي عمي وأقرب أسرتي
وسيفي فسيف البين سل لفقدهم ... علي ، وهدّ الموت ركني وعمدتي
ولا ننسى عبد الله ذا المجد والندى ... فقد مد حزني فقد قوتي وعشرتي
وشبان بيتي سارعوا عن أخيرهم ... إلى ملك الأملاك في وقت غربتي
فوا أسفا منهم وحزني عليهم ... فيا رب فارحمهم بواسع رحمتي

(2) صفحات 8 — 63 .

وقد زاد عدد من ذكرهم على المائتين ، وأثنى على كل واحد منهم لتمكّنه من العلوم وبذله الجهود العظيمة في تحصيلها وإشاعتها .

وفي جميع القوائم [1] التي ذكرها ، لم نعثر إلا على رجلين فقط ، قال عنهما إنهما كانا بالإضافة إلى تمكنهما من الفقه والتفسير لهما اطلاع على الأدب العربي ، أمّا الذين اتقنوا النحو والصرف بالإضافة إلى الفرائض والتفسير فهم ثلاثة ، وهناك واحد من بينهم فقط قال عنه انه يحسن المنطق . وبهذا يتضح أن مادة الفكر الأساسية كانت الشرعيات وعلوم اللغة .

وحينما نتتبع عباراته ، نجد أن جميع أولئك العلماء كانوا أولياء الله ، وقد ثبتَ لكل واحد منهم — بناء على رأي السعدي — معجزات وخوارق ، شهد له بها الناس في زمانه وقدّروه لأجلها ، وكانوا يتبركون به .

وهذا ربما يدلنا على أن الشعوذة كانت تختلط بأفكار الناس ، ولم يكن أولئك الفقهاء والمفسرون يختلفون في ذلك عن غيرهم ، ويفسر هذا بإن الكثيرين من أولئك العلماء لم تمكنهم ثقافتهم من فهم أغراض الشريعة الفهم اللائق ، فهم وإن أتقنوا الكثير من أحكام الفرائض وحفظوا الأحاديث ، إلا أن فهمهم لعميق أغراض الشريعة ظل سطحياً .

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة أن الأسقيا محمد الكبير قد أظهر في أسئلته التي استفتى فيها المغيلي ، تألمه الشديد من كون علماء بلاده لا يفقهون من الدين الإسلامي إلا بعض الأحكام البسيطة ، وفهمهم في الغالب لها سقيم ، ومع ذلك فهم يتباهون على الناس بغزير علمهم ويجدون من بين العامة من يتبعهم ويصدق كل ما يقولون [2] .

(1) لقد ذكر السعدي كل من عرفهم ومن حكي له عنهم، ثم نقل كل ما كتبه أحمد بابا في الديباج عن تراجم علماء السودان، ولذا فإن حديثه عن علماء السودان أثناء عهد الأسيقيين يعتبر أكمل ما تحتويه جميع المصادر المتوافرة حتى الآن .

(2) انظر أسئلة الأسقيا — مخطوط الجزائر ، ح 37 (ج) ورقة 4 .

ولهذا لم نعثر في جميع المصادر على أي مؤلف قائم بذاته لعلماء السودان في عهد الأسيقيين في مجالات الفقه والتفسير واللغة ، وكل ما كتبوه في ذلك على كثرته لا يعدو أن يكون حاشية لشرح ، أو شرحاً لتصنيف ، أو نظماً في قالب رجز لمصنف من المصنفات التي كتبها المشارقة أو المغاربة ، أو تفسيراً لجزء من القرآن ، يعتمد فيه صاحبه على شرح لعالم آخر من خارج السودان .

ولهذا فلنا أن نقول عن اقتناع بأن جُلَّ المواضيع التي أنتج فيها السودانيون إنتاجاً مستقلا في تلك الأثناء ، لم يكن في الأدب ولا في الشريعة واللغة ، وإنما كان في ميدان التاريخ.

ج ــ التاريخ

إذا تجاوزنا ما كتبه أحمد بابا في تراجم الفقهاء والمفسرين (لان موضوعه كان أميل إلى الفقه) فإن هناك رجلين بارزين قد انتجا في ميدان التاريخ إنتاجاً سودانياً قائماً بذاته ، وهما : عبد الرحمن السعدي ابن الحاج المتوكل ، والقاضي محمود كعت . وقد عاش محمود كعت في أيام الأسقيا الحاج محمد الكبير ، وألف كتابه (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) خلال القرن السادس عشر ، وحسب تاريخ السودان للسعدي أنه ولد سنة 1468 وابتدأ كتابة مؤلفه وهو في سن الخمسين (1) وتوفي حوالي سنة 1593 الموافق لسنة 1002 للهجرة ، وعلى هذا الاعتبار يكون كعت قد حضر احتلال المغاربة للسودان . ولكنّ الحوادث التي احتواها الكتاب تجتاز عمره بستّ سنوات ، ممّا يبعث على الظن بأن الكتاب قد أتمّه بعض أحفاده بعد وفاته . ورغم اتساع عنوان الكتاب فإنه لم يشتمل على تسجيل الحوادث الهامة كلها عن دولة سنغاي ، ولكن لغته

(1) انظر تقريض هودارس لتاريخ الفتاش ، طبعة 1913 ، ص 16 .

أسلم من لغة تاريخ السودان للسعدي ، كما أنه أكثر منه اشتمالا على مظاهر الحياة الاجتماعية .

وقد بدأ كعت مؤلفه بالحديث عن بداية عهد الأسقيا محمد فأثنى عليه كثيراً ووصفه بالعدل والصلاح في حين أنحى باللائمة على سلفه سني علي ووصفه بالمروق على الدين والمجون السافل ، وختمه بالحديث عن تمبكتو حين غزاها المغاربة وكيف ساء حالها بعد صلاح . وأرجع كعت مجيء محلة المغاربة وأسباب النكبات التي حلت بسنغاي إلى فساد أخلاق السكان في الأخير واستهتار المتأخرين من ملوك الأساقي ويظهر أنه اشتد به التأثر بعد أن أمر مولاي أحمد المنصور بإجلاء العلماء المثقفين عن تمبكتو وحملهم إلى مراكش ، وأصبحت تلك المدينة بدون مثقفين فكان مما قاله : « ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تمبكتو جسماً بلا روح وانعكس (1) أمورها وتغير حالها وتبدل (1) عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أرذالها على عظمائها » (2) .

وأما عبد الرحمن السعدي فقد ألف هو الآخر كتاباً في تاريخ عهد الأسيقيين بسنغاي والفترة المغربية بالسودان الغربي وسماه (تاريخ السودان) ، وقد ولد السعدي حوالي سنة 1596 أي بعد وفاة محمود كعت بثلاث سنوات ، ولذا فقد كتب في العهد المغربي ، وجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة .

وفي المقدمة ذكر السعدي الأسباب التي حدت به للتأليف في هذا الموضوع فقال : (ولما رأيت انقراض ذلك العلم (3) ودروسه ، وذهاب ديناره وفلوسه ،

(1) هكذا في الأصل .
(2) كعت ، ص 175 .
(3) أي علم التاريخ .

وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد ، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وتواريخهم ووفياتهم ، فاستعنت بالله سبحانه في كتب [1] ما رويت من ذكر ملوك السودان ، أهل سغي [1] وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكرَ تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية ، سلطان مدينة الحمراء مراكش) [2] .

وقد بدأ المؤلف بعد ذلك بالحديث عن العلماء والمصلحين في سنغاي ، كما ذكر في البداية أن البلاد أصبحت في ذلك الوقت إلى ضعف وقد أرجع ذلك كما فعل كعت من قبله إلى سوء الأخلاق وفساد سيرة الحكّام بين الرعية .

أما أسلوبه فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالباً ، مما يدلّ على أن حركة الفكر في البلاد قد آلت هي الأخرى إلى ضعف في آخر أيام الأساقي .

والقسم الأكبر من تاريخ السودان هو الذي خصصه السعدي للحديث عن حكم الباشوات المغاربة في سنغاي ، ولذا يعتبر مؤلفه من أوفر المصادر عن بلاد السودان في تلك الفترة .

والنتيجة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث حول تطوّر الحركة الفكرية بالسودان الغربي على أيام الأسيقيين هي : أنّ الأبحاث كانت نشيطة في علوم الشرع واللغة ولكنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى مرحلة الإنتاج المستقل ، أما في الأدب فلم يكن لها إلا وجود ضعيف جداً ، ولكن الحركة الفكرية رأت نشاطاً ملحوظاً في ميدان التاريخ ، وقد كان ولا يزال مؤلف كل

---

(1) كذا في الأصل .

(2) السعدي ، ص 2 .

من عبد الرحمن السعدي ومحمود كعت أبرز الأمثلة على استقلالها وأصالتها في هذا المجال ولا يبدو كل من الرجلين أكثر علماً من أحمد بابا ولا أكثر إنتاجاً منه [1] ، ولكنهما ألفا في موضوعات مستقلة مما جعل عملهما بمثابة عنوان على الإنتاج السوداني الصرف في تلك الفترة .

3 — الفنون (*)

الموسيقى والرقص والغناء والنقش والنحت هي الأقسام التي بلغ فيها الإفريقيون درجة معتبرة في الحذق والمهارة بغرب إفريقيا .

وقد لاحظ لنا الكتّاب والجغرافيون العرب في أيام مالي وسنغاي ولع الإفريقيين وبراعتهم في الرقص والموسيقى والغناء بصورة خاصة في المناطق التي وصلوا إليها وعرفوها .

فقد كتب لنا القلقشندي [2] أن السكان في غرب إفريقيا بارعون في الغناء والرقص والموسيقى ، ولهم ولع كبير بتلك الفنون .

---

(1) ترك أحمد بابا اكثر من 700 مجلد بعضها موجود وبعضها مفقود وقد توفي سنة 943هـ عن عمر ناهز الثمانين سنة ، ولكن مؤلفاته لم تخرج عن نطاق التصنيف والشرح والإفتاء في موضوعات فقهية على الأكثر ، وقليل منها كان في النحو . انظر تعليقات هوداس عن تاريخ السودان ،

(*) الفنون التشكيلية (باستثناء ما اتصل منها بفن العمارة) لم يكن لها وجود يستحق الذكر بسنغاي على ايام الأسيقيين ، حيث أنه لم يعثر في خرائب مساكنهم سوى على بعض الدمى البسيطة كلعب للأطفال ، أما النصوص فلم تأت بشيء في هذا الموضوع ، ويظهر أن ذلك كان بتأثير من الإسلام ؛ لأن الحفريات قد أثبتت الازدهار الذي عرفه فن النحت خلال نفس الفترة في المناطق الوثنية المجاورة لسنغاي من ناحية الجنوب والجنوب الغربي .

(2) ج 3 ، ص 224 (وقد ألفه في القرن 15) .

أما الحسن الوزاني فقد ذهب إلى القول بأنه شاهد بنفسه في بلاد سنغاي أن سكان الأحياء المختلفة يبيتون في غناء ورقص حتّى مطلع الفجر ، وتزداد تلك الظاهرة انتشاراً وقوة لديهم خلال الأعياد والمناسبات [1] .

وقد أطنب كل من السعدي وكعت في الحديث عن الطنابير الملكية التي كانت لا تفتأ تدق في كل مناسبة يخرج فيها الملك للقيام بجولة في المدينة أو للسفر ، أما أثناء خروج الجيش فإنّ ضربات الطبول كانت لا تتوقف حتّى وهو في المعركة .

وأثناء الدخول في المعارك يهتف الناس مغنين ومنشدين حتّى يندفعوا للمعركة بشجاعة وليرهبوا أعداءهم . [2]

أما رؤساء الولايات والموظفون الكبار في سنغاي فقد كان لكل منهم فرقة خاصة به تضرب له الطبول وتغني وترقص سواء أثناء مجيئه إلى العاصمة أو أثناء تنقلاته العادية داخل الإقليم الذي يحكمه . [3]

ومن هذا كله يتبين لنا أنّ الولع بالغناء والموسيقى والرقص وتعاطيهما كان رسمياً وشعبياً في آن واحد .

أما آلات الطرب فإننا نعرف مما كان موجوداً منها لدى الناس في سنغاي على أيام الأسيقيين ، الطبول ، وكانت أنواعاً ، منها الكبيرة التي يستعملها الحرس الملكي بالجيش ، ومنها الصغيرة التي يستعملها الناس العاديون . [4]

---

(1) ليون الإفريقي ص . 101 .

(2) أنظر كعت ص 29 — 31 — 86 — والسعدي 19 — 23 — 69 .

(3) هذا ما يستنتجه الباحث من أخبار الولاة كما يتحدث عنها السعدي .

(4) يفرق السعدي وكعت معاً ، بين الطبول الملكية وغيرها . ومن عباراتهما في ذلك (ضربوا له طبل السلطنة) ، (والزناجيات الضاربات على الطبل) . مما يفيد المعرفة الواسعة بأنواع الدفوف .

كما كانت معروفة لديهم أيضم الأبواق ، وقد كانوا يتخذونها غالباً من قرون الأبقار وأنياب الفيلة . ولكن استعمال الأبواق كان رسمياً أكثر منه شعبياً وعاماً . [1]

كما كانوا يعرفون ويستعملون أيضاً قصبات اليراع كمزامير . وكانوا حين الغناء في الغالب يبدأ شخص واحد ثم يشاركه الحاضرون إثر ذلك ، غير أنه في المواكب الرسمية كانت لا تغني سوى المجموعة المخصصة لذلك . [2]

أما الرقص فإنهم كانوا يشتركون فيه أيضاً بشكل جماعي ، ويسيرون على ضربات الطبول ، ولكن في غير انتظام إيقاعي دقيق ، لأن الرقص ، كان يثير فيهم نوعاً من الهوس ، كما يفهم من عبارات المؤرخين في هذا الشأن ، ولذا فإنهم كانوا يندفعون فيه أكثر كلما استمر ، فيختل النظام وتسود الجلبة والصخب .

4 — العمارة

إنّ الفن المعماري الأصيل لإفريقيا الغربية قبل الإسلام ، هو البناء المستدير المغطاة سطوحه دائماً بالأخصاص والقش في شكل هرمي ، وربما يعود ابتداع ذلك، إلى عامل التكيف مع المناخ ، حيث أن فصل الأمطار بالمنطقة، تحفل السحب فيه بأمطار غزيرة .

أما الحيطان فتبنى بالطوب ، ونادراً ما تتخللها الحجارة . وكان يتميز في الغالب بناء الذّوات والأغنياء عن بناء العامة ، بأن حيطان بيوت الأغنياء تبنى عادة بالآجر (أي الطوب المشوي) ، في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال أيضاً بالطوب المجفف وقد يخلط بالتبن أحياناً حتّى يزداد صلابة . [3]

---

(1) لا نجد لدى الكتاب السودانيين في تلك الفترة ذكرا للبوق ، إلا مقروناً بجيش السلطان وحرسه .

(2) كعت أثناء الحديث عن مناسبات الأفراح في غاو وتمبكت .

(3) انظر : دولا فوس (حضارات إفريقيا الغربية) ، ص 135 .

وقد وجدت لدى سكان إفريقيا الغربية عادة بناء حوش أو زريبة أمام المنزل لإيواء الحيوانات فيه ، أو لستر المنزل ، وخاصة لدى قبائل الفلان .

ومنذ 1325 حمل كنكان موسى معه إلى السودان الغربي حين عودته من الحج المهندس الأندلسي (الساحلي الغرناطي) الشاعر ، وقد بنى هذا الرجل بمجرد وصوله مع مساعديه مساجد في كل من تمبكتو ، غاو ، وينّي [1] .

ومنذ تلك الفترة تولّد شكل آخر من الأشكال المعمارية في السودان .

ولقد بنى الساحلي مساجد وربما بنى دوراً للسلطان ، وعلى كل حال فإن عمله قد مكن لاستمرار طريقته في البناء بعده بالسودان الغربي ، حيث يبدو أن هندسته اعتبرت أرفع الأنواع وقلّدت .

وهكذا نصل إلى سنغاي على أيام الأسيقيين ، فنجد فيها شيوع الأشكال التالية لفن البناء ، وهي :

(أ) الشكل الإفريقي القديم : الحائط مستدير والقاعدة كذلك، وهو مسقوف بالتبن أو القش والأخصاص، وغالباً يكون أمامه حوش في شكل دائري .

(ب) الشكل المربّع المسقوف بالتراب، والمحاطة جوانبه من أعلى بإطار قليل الارتفاع ، وكثيراً ما تتخلّل الإطار ثقب صغيرة ، لئلا تستقرّ المياه على السطح ، وكان هذا خاصاً بدور السادة في البداية ثم عمّ استعماله لدى الجميع .

وهذا النوع من البناء هو الذي كان يستعمل في بلدان المغرب وحتى في الأندلس ، ولذا يمكن أن نسميه الطراز المغربي — الأندلسي ، وفيه تتخلل الفناء بركة اصطناعية يكبر حجمها ويغنى حسب درجات الناس و إمكانياتهم .

---

(1) انظر دولا فوس — حضارات إفريقيا الغربية — ص 135 .

(ج) الشكل الهرمي : وهو يتمثل في بناء المساجد خاصة ببلاد السودان الغربي على عهد الأسيقيين ، وتخطيطه هو أن يبني المسجد في هيئة مربعة ، ثم ترتفع حيطانه وتتخللها الأعمدة التي توصل بينها حين تتقارب من بعضها في الأقسام العليا ، وبعد أن يسقف تبنى الصومعة ، في وسط السطح من أعلى ، ويكون بناؤها على شكل هرمي في الغالب ، وقد يكون مربعاً أحياناً ، أما نهايتها فهي حادة دائماً .

وأطراف السقف العليا حول قاعدة الصومعة ، تحاط بسياج تكون أركانه الأربعة أو الستة مرتفعة عن المستوى في شكل هرمي أيضاً ، أمّا الثقوب ، فإنها تتخلل ذلك السياج بشكل دائم تقريباً .

ولا يزال قائماً من الأبنية التي بقيت من أيام الأسيقيين حتى الآن : قبر الحاج محمد الأول في غاو ، ومسجد جني [1] .

أما بقية المساجد المنتشرة في أنحاء السودان الغربي والتي لها هذا الطابع ، فهي كلها حديثة [2] .

ويبقى أن نشير أخيراً إلى أنّ كلاّ من الشكل المربع والشكل الهرمي دائماً يرتفع في ناحية من نواحيه سلّم ينتهي إلى السطح ، وهذا السلّم في الغالب يزيّن السودانيون جوانبه بعدة ثقوب في الحائط الوقائي على جانبي السلم .

---

(1) انظر دولافوس — حضارات إفريقيا — ص 134

(2) ذهب أنتا ديوب أثناء حديثه عن هذا النوع من العمارة في السودان الغربي ، إلى أنها من أثر بيزنطي ، وهو رأي يبدو أنه خاطىء تماماً ، إذ الواقع يثبت أنها من أثر نوبي ، فقد كان هذا هو شكل بناء بلاد النوبة منذ القديم، وكان لبلاد النوبة أثر واضح على عدة جهات من إفريقيا في هذا الميدان ، وذلك للهجرات التي انتقلت منها ، خلال العصور التي تلت ميلاد المسيح . (انظر دافدسن ، إفريقيا ، ص 17 — 39 ، وكورنوفان ، ص 240).

ولا تزال لحد الآن هذه الأشكال الثلاثة للهندسة المعمارية يلاحظ وجودها في السودان الغربي وحول حوض النيجر ، كما كانت على عهد الأسيقيين في سنغاي .

وهكذا يتبين أنّ فنّ العمارة على أيام الأسيقيين في سنغاي وإن خالطه الكثير من التقليد الخارجي ، فإن وجود الطابع السوداني ظلّ بارزاً وطغى على المستورد فامتزج هذا الأخير به وتكيّف له ، ونشأ من ذلك فن العمارة السوداني المعروف بميزاته الخاصة به حتى الآن .

البَابُ الثَالِثُ

الحَالة الاقتِصَاديَّة

الفصل الأول

الزراعة

أ ـ نظرة عامة

تنوعت المزروعات في بلاد سنغاي على أيام الأسيقيين بشكل ظاهر ، أما الكميات التي كانت تجنى كمحاصيل ، فقد اختلفت من نوع إلى آخر ، ومن وقت إلى آخر كذلك [1] .

ولا توجد لدينا أية وثائق عن نسبة الذين كانوا يشتغلون بالفلاحة كمهنة ، ولكن إذا استثنينا نسبة بسيطة من سكان المدن ، فإن مورد معيشة السكان الأساسي كان من الفلاحة ، ولهذا فإنّ الأغلبية الساحقة من أفراد الشعب كانوا يمتهنون الفلاحة كمهنة أساسية ، وكانوا فلاّحين .

وهناك نسبة ضئيلة من السكان تشمل أفراد العائلة المالكة والموظفين السامين والقضاة وبعض الموسرين ، كان يشتغل في حقولهم العبيد ، أمّا هم فيتلقّون المحصول من أملاكهم دون عناء . وهؤلاء في الغالب كان محصول أملاكهم يزيد عن حاجتهم ، ويعيشون عيشة مرفّهة بمقاييس ذلك العصر ، أمّا السواد الأكبر من أفراد الشعب ، فإنّ محصول أملاكهم كان لا يكاد يفي بحاجياتهم ،

(1) يذهب ديوب ، ص 246 ، إلى أن الكميات كانت متوافرة باستمرار ومن جميع المحاصيل ، وهو رأي فيه الكثير من المبالغة .

ولذا فإنّهم كانوا يجمعون إلى الزراعة تربية بعض المواشي ، كما سنرى فيما بعد .

وقد عرف عن الفلاحين في سنغاي حدبهم واجتهادهم في أعمالهم ، فهم يظلّون طول النهار في حقولهم يعملون ، وكثيراً ما كانوا يتناولون وجبة الغداء وسط الحقل ولا يعودون إلى منازلهم الاّ حينما ينسدل الظلام .

ولم يعرف الفلاحون في سنغاي على أيام الأسيقيين المحراث أو أنهم كانوا لا يستعملونه في كل زراعاتهم ، باستثناء بعض الواحات الشمالية من البلاد مثل ولاتا والحوض ، فقد كانت تستعمل فيها المحاريث التي تجرّها الثيران أو الجمال [1] .

أما في بقية أنحاء بلاد سنغاي ، فقد كان الفلاحون يحفرون الأرض ويقطعون النباتات بواسطة الفؤوس ، ثم يسوّون التربة بالمجارف والمعاول [2] .

وقد كانوا يستعملون الأسمدة التي يتخذونها من فضلات الحيوانات كما كانوا يحسنون الري ، وقد فرّعوا عن النيجر عدة قنوات ، وكذا من روافده والبحيرات الموجودة عند منحناه الأعلى ، أما في بقية المناطق فكانت الينابيع والآبار هي عماد ريّهم ومصدره .

وبالنظر لمناخ البلاد [3] فقد كان ولا يزال موسم البذر يبدأ من ماي حتى نهاية شهر جوان ، أمّا موسم الحصاد وقطف الغلّة فيبدأ في نهاية الخريف ومنتصفه .

ولم يكن وارد الفلاحة مقصوراً على الغذاء بالنسبة للفلاحين وإنّما كان منه كلّ مصاريفهم السنوية وألبستهم . ولهذا اختلفت مستويات معيشتهم باختلاف حقولهم من حيث الاتساع والخصب .

(1) موني (كشف جغرافي لإفريقيا الغربية في العصر الوسيط) ، ص 241 .
(2) المجرفة عبارة عن لوحة من الخشب يجرّونها فوق الأرض بعد أن يكونوا قد نقوها من الشوائب ووضعوا في جوفها البذور ، أما فائدة تلك العملية فهي تسوية التربة وتليينها ، وكذا خلط الأسمدة بها .
(3) الصيف فصل الأمطار أما الشتاء فهو فصل الجفاف .

ب – المزروعات

رغم تنوع المزروعات فإنّ نوعيات قليلة منها فقط ، هي التي يبدو أنّها كانت تسدّ حاجة البلاد ، وهي : الدّخن والرز والسورجو والقطن ، وكذا بعض الفواكه والخضر ، أمّا بقية الأنواع فلم تكن لتفي أبداً بحاجة السكّان ، ولذا فإنه في الأوقات التي يقلّ فيها ورود القوافل التجارية من الخارج لسبب أو لآخر ، تقل كميّاتها في الأسواق ، وترتفع أثمانها بقدر ندرتها .

ويمكننا إتصنيف المزروعات في سنغاي على أيام الأسيقيين إلى الأقسام التالية [1] .

1 – الحبوب :

كانت مزروعات سنغاي من الحبوب على أيام الأسيقيين هي :

– الرّز : وقد كان من الأغذية الرئيسية لمختلف طبقات الشعب ، وهو يزرع بصورة خاصة حول النيجر وروافده لما يتطلبه من سقي وفير ، على أن النوع الذي كان يزرع بالبلاد هو من النوع المعروف بـ (النوبي) ومستواه ليس من الأنواع الجيدة .

(1) اعتمدنا هذا التقسيم تسهيلا للدراسة فقط ، أما وجودها كمزروعات بالبلاد فقد استندنا فيه إلى مختلف النصوص التي وصلت إلينا في تلك الفترة ، كما استرشدنا بدراسات عديدة في الموضوع لمؤرخين حديثين .

- **الدّخن** : كان الدخن يزرع في جميع جهات البلاد في أيام الأسيقيين في سنغاي ، وكان يشكّل الغذاء الأساسي الأول لدى السكان من سواد الشعب[1] أما الطبقة المرفّهة ، فكانت تستعيض عنه بالقمح غالباً .

- **السورجو** : وهو نبات حباته تشبه الحمص ، ولكنها أدق منها ولونها أبيض تتخلّله نقط سوداء . وقد كان ولا يزال مزروعاً سودانياً بحتاً ، وكان في أيام الأسيقيين في سنغاي يأتي في الدرجة الثالثة بالنسبة لغذاء السكان بعد الرز والدخن ، ويزرع حول النيجر ورافده فقط .

- **الشعير** : كان الشعير يزرع في المناطق الشمالية المطلة على الصحراء وفي الواحات ، ويشكل مادة أساسية لغذاء السكان في الواحات ، أمّا في بقية المناطق فأهميته أقل .

- **القمح** : كان القمح يزرع بقلّة في سنغاي على أيام الأسيقيين ، وكانت الكميات التي تنتج منه ضئيلــة ، وأكثر ما يوجــد منه في البلاد كان يرد من الخارج ، وتستهلكه الطبقة الثّرية في البلاد أما بقية السكّان فلا تصل مستوياتهم المعاشية إليه ، ولذا كان حظهم منه ضئيلا جداً .

- **الفوني** : وهو نبات سوداني يشبه الخرطال ، وكان يزرع بقلّة في سنغاي على أيام الأسيقيين ، وتصنع منه بعض المشروبات في شكل حساء ، وكان سويكه يستعمل قبل دخول الإسلام في الأعياد الدينية الوثنية ، وربما قلت زراعته
ابل دخول الإسلام في الأعياد الدينية الوثنية ، وربما قلت زراعته بعد مجيء قلإسلام .

---

(2) كان السلاطين في المناسبات يتصدقون بمقادير منه على الفقراء ، كما كان يشكل هدايا الموسرين إلى الأشراف في كثير من الحالات .

2 - **الفاصوليا** : كانت أهم أنواع الفاصوليا التي تمارس زراعتها في ذلك الوقت هي :

- **الفول** [1] : كان يزرع في جميع مناطق البلاد على أيام الأسيقيين وكان يستهلكه السكان بكثرة ، ونوعيته لم تكن من النوع الدقيق ، وإنما كانت من النوع الخشن الموجود بالمغرب .

- **الحمص** : كان الحمص أيضاً يستهلكه السكان بكثرة ويزرع بعليا ومرويا ، على ان أماكن زراعته كانت في الشمال أكثر من الجنوب .

- **اللوبيا** : كانت تزرع بصورة خاصة في المناطق القريبة من النيجر أما المناطق الشمالية والواحات فكانت تزرع فيها بقلة ، ولكن المحصول منها كان يفي بحاجة البلاد ، لأنها كانت تشكل غذاء ثانوياً فقط .

3 - الخضر والفواكه

تتفق كتابات الرّحالة والمؤرخين مثل الحسن الوزاني وابن بطوطة والقلقشندي[2] على توافر الفواكه والخضر في سنغاي على أيام الأسيقيين وخاصة منها البطيخ والحبحب (الدلاع) والقرع ، وقد كانت تزرع في جميع أنحاء البلاد وتكثر محاصيلها في الأسواق وأثمانها لذلك غاية في الرخص .

---

(2) لم أعثر أثناء أبحاثي على أي ذكر لوجود الفول السوداني (كاكاو) الذي يتكاثر وجوده الآن في مناطق عديدة من السودان الغربي ، ويقبل السكان هناك على زراعته كمحصول مهم .

(2) ابن بطوطة فقط هو الذي كتب رحلته في أيام مالي (القرن الرابع عشر) وكانت إمارة سنغاي موجودة آنذاك ولكنها كانت لا تزال صغيرة وتؤدي الجزية لمالي ، وقد مر بها ابن بطوطة وكتب ملاحظاته بشكل عام ، أما الحسن الوزاني والقلقشندي ، فانهما كتبا في أيام الأسيقيين .

كما تحدث هؤلاء أيضاً عن وجود زراعة البصل والثوم في البلاد ووفرة المحاصيل منها ورخص أثمانها كذلك .

4 — المزروعات الصناعية

إنّ المزروعات الصناعية التي يجدها الباحث في كتابات المؤرخين عن بلاد سنغاي على أيام الأسيقيين هي :

— **القطن** : وكان يزرع في المناطق المحيطة بالنيجر ، ولذا فإن زراعته في المناطق الشمالية من بلاد سنغاي كادت تكون معدومة ، ويعتني الفلاحون بزراعته عناية كبيرة ومحصول البلاد منه وفير .

— **الكتّان** : كان نبات الكتان يصنع منه السنغائيون حبالا على ما يستفاد من كتابات الحسن الوزاني بصورة خاصة [1] . والكميات التي تنتجها البلاد منه كانت كبيرة نسبياً .

— **قصب السكر** : لقد كان قصب السكر يزرع بكثرة في بلاد سنغاي وتتركز زراعته في المناطق الوسطى والجنوبية ، ومحصولها منه وفير . ولا ندري مدى توفر السكان على صناعة السكر ، ولكن السكر كان من واردات البلاد الأساسية على كل حال ، مما يدل على أن صناعة السكر بالبلاد كانت ضعيفة .

— **الحناء (البرنّاء)** : كانت الحناء تزرع بصورة خاصة في شمال البلاد وفي مناطق الواحات ، أمّا الكميات التي كانت تجنى منها فكبيرة بحيث تكفي حاجة البلاد ، رغم كثرة استعمالها من طرف السكان ، للتزين وللعلاج .

(1) انظر موني ، ص 254 .

5 — الأشجار المثمرة :

من أهم ما يجده الباحث في النصوص أنّه كان يوجد من الأشجار المثمرة في سنغاي على أيام الأسيقيين :

— **النخيل** : وكانت مناطقه الأساسية الواحات الشمالية ، ولم يكن المحصول من تموره يفي بحاجة السكان ، ولذا كانت تستورد منه كميات هامة من الخارج ، وخاصة من ورقلة وبسكرة والواحات الشرقية من الجزائر الحالية . ويظهر ممّا كتبه محمود كعت ، أن تمر ورقلة كان لدى السكّان ولع به ، لجودته ، ولذلك ، فإنه كان يباع في الأسواق ، وخاصة حينما يقل ورود القوافل بالحبّات . [1]

— **الكروم والتين** : كانت الكروم والتين توجد كميات لا بأس بها من أشجارهما في بلاد سنغاي ، وفي حين كانت الكروم تتركز في المناطق القريبة من النيجر في وسط البلاد وشمالها ، فإنّ التين كان يتركز في الشمال أكثر ، ولم تكن المحاصيل منهما لتفي بحاجة البلاد ، ولذا فقد كان كل من الزبيب والتين المجفف من مستوردات سنغاي الخارجية ، وكانت أثمانهما مرتفعة ارتفاع أثمان القمح ، كما سيمر بنا فيما بعد [2] .

— **الحمضيات** : تتفق النصوص التي بين أيدينا على وجود أشجار البرتقال والليمون بكثرة في سنغاي ، سواء في الواحات الشمالية أو في المناطق الوسطى والجنوبية حول النيجر ، وتشير تلك النصوص إلى اعتناء الفلاحين عناية كبيرة بزراعتها والمحافظة عليها ، ولا شك فإن هذا يدل على أن السكان كانوا يقبلون على شراء المحصول منها ، وكانت له قيمة في نظرهم .

(1) انظر كعت ، ص 29 .
(2) الفصل المتعلق بالأسعار ومستوى المعيشة .

وهكذا ، يتبيّن من هذا الاستعراض للمزروعات في مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين ، أن تلك المزروعات كانت متنوعة وكان يعيش من الزراعة أكثرية السكان . وإذا كانت المصادر لم تسعفنا على استكناه موقف الحكومة من تطوير الزراعة ومساعدة المزارعين ، فإنّها أفادتنا الكثير فيما يتعلق بالثروة الحيوانية في البلاد ، واهتمام السكّان بتربيتها والاستفادة منها في حياتهم ، كما سيلي تفصيله .

الفصل الثاني

الثروة الحيوانية

لن نتكلم بصورة أساسية الآن على الحيوانات الداجنة (1) والمواشي التي كان يستخدمها السكان في أعمالهم ، فيستفيدون من أصواف قسم منها في لباسهم أو مساكنهم ، كما يتخذون من جلود بعضها ألبسة أو فرشاً ، بعد أن يدبغوها أو يصبغوها في أغلب الأحيان ، وقد يصدّرون قسماً منها للخارج أيضاً .

وذلك لأننا نتحدث عن الحيوانات هنا بقدر اتصالها بالإنسان فقط .

ولكن الحديث عن بعض الحيوانات غير الداجنة ، والتي كان يستفيد منها الإنسان في معيشته أو في تجارته أو يستخدمها لفائدته بأي شكل مباشر كان ، يبدو من الضرورة بمكان أيضاً . ولذا فإننّا سنفرد هذا القسم من الحيوانات غير الداجنة بالحديث أولا ، ثم نتحدث عن الحيوانات الداجنة بعد ذلك .

أ ـ الحيوانات غير الداجنة

من بين الحيوانات غير الداجنة في غرب إفريقيا على أيام الأسيقيين كانت

(1) لإلقاء نظرة واسعة على الحيوانات والطيور غير الداجنة في إفريقيا الغربية في تلك الفترة ، يراجع (موني ، كشف جغرافي) و (دوكيسر ، حيوانات إفريقيا ، باريس ، 1955) بصورة خاصة .

الفيلة ، وكان وجودها يتكاثر كلما توغلنا جنوباً ، أمّا في منطقة الحشائش (الأستيب) التي تمتد فيها بلاد سنغاي فقد كانت الفيلة بها موجودة ، ولكن وجودها كان أقل منه في منطقة الغابات العليا ، خارج حدود سنغاي .

ورغم ذلك فقد كان السكان في سنغاي يستفيدون من الفيلة في تجارتهم فائدة جمّة ، فيصطادون منها ممّا هو موجود بالبلاد ، أما في خارجها فإنّ التجّار المحليين يصطادونها ويبيعون أنيابها لتجار بلاد سنغاي . (1)

وقد كانت أنياب الفيلة من البضائع التي يقبل على شرائها بكثرة التجار الأجانب الذين كانوا يتوافدون على البلاد ، وكانت لذلك تعتبر من بين صادرات سنغاي الهامّة . (2)

أمّا أهميتها فقد جاءت بالدرجة الأولى من أنها كانت المادّة الأولية والأساسية لصناعة العاج في جميع أنحاء العالم آنذاك ، وكان العاج يعتبر من المواد الغالية الثمن ، ولذا كان قسم من التجار في العالم يكسب ثروته ومعيشته من الاتجار بأنياب الفيلة ، ونقلها من مكان إلى آخر .

وقد أكد لنا كل من ابن بطوطة والحسن الوزاني وجود الفيلة في المناطق المطلة على النيجر والممتدة بينه وبين بحيرة تشاد ، وأنّ السكان يجهدون أنفسهم في اصطيادها ليبيعوا أنيابها للتجار المغاربة والمصريين ، أمّا لحومها فتؤكل .

وقد انفرد ليون الإفريقي (الحسن الوزاني) بالحديث عن طريقة اصطياد السكان في سنغاي للفيلة ، فقال إنهم يتلقونها بالستائر والشباك ويقبضون عليها .

وكانت حمر الوحش تعيش قطعانا حول النيجر ، وكان السكان يصطادونها ، فيتخذون من جلودها ألبسة ، ويعتبر لحمها شهياً لديهم .

كما كان الزراف يحظى بنفس المعاملة والأهمية في المناطق الغربية من البلاد

(1) أنظر أسوي أديكو – ص 41 .
(2) نفس المصدر .

(الماسينا) ، وتستعمل جلوده للزينة كذلك . (1)

ومن ناحية أخرى فقد كان الزراف من بين الحيوانات التي كان يهديها ملوك مالي قبل سنغاي إلى ملوك المغرب كما ذكر العلامة ابن خلدون (2) ، ورغم أننا لم نجد في النصوص التي بين أيدينا شيئاً حولها على أيام سنغاي في هذا المجال ، فإننا لا نعتقد أنّ اعتبارها في مثل تلك المناسبات قد فقد قيمته ، وذلك لجمال هذا الحيوان وبديع خلقته ، وهو غير موجود في بلدان المغرب العربي منذ ما قبل التاريخ .

وكانت الذئاب والثعالب واليرابيع والغزلان موجودة بكثرة وخاصة في مناطق الصحراء الجنوبية ، ولذا كانت قبائل الطوارق ومسوفة تصطاد منها وتتغذى بلحومها .

أما النعام والضربان ، فقد ثبت وجودها بمناطق الصحراء أيضاً ولكنها كانت قليلة ، وكان السكان في سنغاي يصطادونها لشحومها وريشها أكثر مما يصطادونها للتغذي بلحومها ، حيث أنّ ريشها كان يصدّر للخارج ويجد رواجاً في الأسواق ، كما أنّ شحومها كانت من مواد الأدوية في ذلك العهد . (3)

وكانت التماسيح توجد بكثرة في نهر النيجر وفي روافده والبحيرات التي تواكب شواطئه ، وكان السكان يمارسون صيدها جماعات جماعات ، فيستفيدون من لحومها ، ويبيعون جلودها في الأسواق بأثمان مرتفعة ، ويضيف لنا الحسن الوزّاني (4) على هذا أن الملوك في سنغاي كانوا يقتنون أذنابها ، فيزينون بها مساكنهم وقصورهم ، وكذا كان يفعل أغنياء المجتمع .

وكان سكان سنغاي يمارسون في ذلك العهد صيد الأسماك النهرية بكثرة ،

(1) انظر موني – ص 323
(2) التاريخ : ج 6 .
(3) السعدي ص 213 .
(4) وصف إفريقيا – ص 25 .

وكانت تستهلك لديهم طرية ، كما كانوا يجففون قسماً منها ويملحونه للادخار ، وكانت تعيش على صيدها نسبة هامة من السكان (1) .

أما طريقة الصيد فكانت بدائية ، حيث أنّ الصيادين كانت لهم قوارب بجعية من النوع السوداني (2) ، وكان الاصطياد يتم عن طريق استعمال الشباك والحبال على الأغلب .

وكان أغلى أنواع السمك في سنغاي وأكثره قيمة في الأسواق، هو سمك العنبر ، لأنّ هذا السمك الأسود الكبير الحجم (3) كانت تستخرج من رأسه الصلب مادة أولية لصنع العنبر ، ولذا كان التجار يتهافتون على شرائه ، وكانت بلاد سنغاي من المواطن التي كان يستورد منها إلى بلدان المغرب ومصر ، فيباع في أسواقها بأثمان مرتفعة .

هذا ، وإننا لم نعثر على أية نصوص أو إشارات تعطينا فكرة عن الطيور التي كان لها اعتبار تجاري أو غذائي لدى السكان ، مما يدلّ على أنّها كانت قليلة القيمة في هذا المجال .

ب – الحيوانات الداجنة :

أهم الحيوانات الداجنة التي كان لها انتشار وأهمية على حياة السكان في سنغاي خلال العهد الأسيقي ، كانت ما يصطلح على تسميته الآن بـ (المواشي) ، أي الحيوانات الداجنة التي تألف الإنسان وتحتاج إلى رعاية خاصة لكي تعيش ، كالرعي ومتطلباته . ومن بين أهمّ ما تقع عليه عين الباحث منها في ذلك الوقت الأبقار .

(1) كمت ص 32 – 41 – 58 .

(2) هي عبارة عن قوارب كانت تصنع محلياً ، فيأخذون جذع شجرة ، ويحفرون جانباً منه ، ثم ينجر أسفله ليؤول إلى الشكل الحاد .

(3) يذهب البكري ، ص 51 ، إلى أن الصيادين في بلاد غانا كانوا يجدونه ميتاً على الشاطىء ، ولا ندري مدى صحة هذا القول .

وقد كانت كثيرة الانتشار في ذلك العهد حتّى على حافات الصحراء ، وكان امتلاكها شائعاً بين مختلف طبقات الشعب ، وكانت تقدم كهدايا ، كما تذبح للأكل ، وأكثر اللحوم التي توجد في حوانيت الجزارين في تلك الأيام كانت من لحوم الأبقار ، كما كان السكان يقتاتون بحليبها ومشتقاته . (1)

أما جلودها فكانت تتّخذ منها الصناديل والسروج أحياناً ، وتتخذ منها كذلك أسبات للنشاشيب، وقد تتخذ منها درّاقات للمحاربين ، أمّا الدلي فكانت كلّها من جلود الأبقار . كما كانت تصنع منها أكياس ومخال (2) .

وكانت قطعان الأبقار كبيرة جداً في بلاد سنغاي ، غير أنّ أحجامها كانت تختلف حسب حظ الشخص من الثروة . وكانت قطعان السادة يتولى رعيها العبيد . (3)

وأبقار السودان على ذلك الوقت كانت في أغلبها من النوع الصغير الحجم ، أما قرونها فهي كبيرة ، وقد تلتوي في شكل حلزوني فوق رأس الثور ، مما جلب انتباه الرحالة والكتّاب (4) .

وقد كانت الأبقار في سنغاي تتخذ للحمل ، كما كانت تتخذ من جلودها بعض الخيام ، وتبطّن بها سقوف بعض الدكاكين والحجرات ، كما تسقف بها بعض الأكواخ . (5)

وإذا أضفنا إلى هذا كله رخص أثمانها في ذلك العهد ، تأكدت لدينا كثرة وجودها في البلاد آنذاك ، ولكننا لا نملك أية إحصاءات ولو تقريبية في هذا المقام .

(1) كمت ص 20 – 58 – 91 – 136 .

(2) نفس المصدر ص 100 – 213

(3) نفس المصدر ص 118 .

(4) الحسن الوزاني ، ابن بطوطة ، وكادا موستو ، بصورة خاصة .

(5) الحسن الوزاني ص 48 .

وكانت الأغنام تأتي في الدرجة الثانية في سنغاي من حيث الكثرة ، ومن حيث الأثر في حياة السكان .

وإنّ الأنواع الموجودة منها آنذاك هي القارعة القامة ، والتي تتدلى أصوافها الطويلة في هيئة الشعر [1] .

أما النوع الذي له أصواف ذات لبدة كالمعتاد لدينا اليوم ، فكانت قليلة جداً ، وربما لأنها لا تتحمل فصل الحر الشديد :

وكان السكّان يستفيدون من الغنم فوائد عديدة ، فيأكلون لحومها ويتخذون من جلودها فرشاً ، كما ينسجون من أصوافها خياماً وألبسة وزرابي . [2] وكان وجود المعز في سنغاي يأتي في الدرجة الثالثة سواء من حيث الأثر على حياة السكان أو العدد .

غير أن المعز كانت تربّى في مناطق الشمال أكثر من مناطق الوسط والجنوب من بلاد سنغاي ، ولا تعطينا النصوص الموجودة أي سند لتقدير قد نتخيله عن كميّاتها في هذا الموضوع .

وقد كانت البغال قليلة في سنغاي على أيام الأسيقيين ، أما الأحمرة فقد كانت موجودة بكثرة ، وكانت هي عماد السكان داخل البلاد في الحمل .

أما البغال فقد كانت تتخذ للركوب أكثر ، وكان اقتناؤها وركوبها يأتيان في الدرجة الثانية لدى السكان من حيث الاعتبار ، بعد الخيول .

ولذا فإنها تكاد تكون وقفاً على الطبقات الموسرة فقط ، أمّا بقية أفراد الشعب . فكان كسبهم . لها قليلاً ، في حين كسبهم للأحمرة واستعمالها شائعاً وواسعاً .

---

(1) أطلق عليها ليون الإفريقي اسم (أدومانين) ، ولا تزال لحد الآن تشكل القسم الأكبر من قطعان المقار في الجنوب الجزائري ، وفي موريطانيا والنيجر ومالي والسنغال و بلاد الحوصا .

(2) هنا ما يستفاد من كتابات السعدي وكعت أثناء إشاراتهما المقتضبة إلى أعمال النساء وأصحاب الحرف من الرجال .

وكانت الخيول أغلى الممتلكات الحيوانية في بلاد سنغاي على أيام الأسيقيين وكان لا يكسبها إلا الملوك والنبلاء ، وذلك لارتفاع أثمانها ، فقد بيعت خيول مقابل عشرين عبداً للرأس الواحد ، وبيعت أخرى مقابل ألف وقية من الذهب للرأس الواحد . [1]

أما أثمانها العادية ، فقد تراوحت من عشرين إلى أربعين أوقية من الذهب .

وهذا ما جعلها مقصورة على ركوب النبلاء وحدهم ، وكان ركوبها يعتبر علامة على عظيم القدر وجلال المكانة للشخص الذي يمتطيها ، وكانت قوة الجيوش في ذلك الحين تقدر بكثرة ما يتوافر على جنودها من الخيول ، لأنها سريعة الحركة في الهجوم وفي الفرار .

وكان سبب ندرتها وارتفاع قيمتها في بلاد سنغاي يعود إلى أنّ شدة الحر لا تمكن من اكتسابها دون قدرة على وسائل العناية الفائقة بها ، حتى تعيش وهذه القدرة لم تكن في متناول الجميع ، ومن هنا قلت أعدادها وارتفعت أثمانها .

وكانت الخيول الموجودة في بلاد سنغاي نوعين :

(أ) النوع الإفريقي القصير القامة (بوني)، وهو الذي كان موجوداً أكثر من غيره في البلاد .

(ب) النوع العربي (بارب) ، وهذه هي أغلى الأنواع وأقلها وجوداً في البلاد ، وكانت تجلب في معظمها من الخارج ، ويجد التجار فيها أرباحاً كبيرة حينما يبيعونها في أسواق سنغاي [2] .

وكان للجمال عظيم المكانة في كل بلاد سنغاي ، غير أنّ أمكنة تربيتها الأولى كانت في الشمال والوسط ، أما في الجنوب فكانت تربيتها قليلة .

---

(1) لإلقاء نظرة واسعة عن البغال والحمير والخيول ، يراجع بوفيل ، وكذا الحسن الوزاني ، كما أن أبحاث موني التي تضمنها كتاب (الكشف) ذات أهمية في هذا المجال ، بالرغم من حداثتها .

(2) عقد الحسن الوزاني فصلا كاملا للحديث عل الخيول ، وقد زودنا بتفاصيل مهمة عنها في ذلك الوقت .

وكان يعتمد على الجمال في كل المسافات الطويلة ، كما أنّ لحومها كانت تشكل غذاء هاماً لسكان الصحراء والواحات الشمالية وتباع في الأسواق أيضاً .

أما جلودها فكانت تتخذ منها الصنادل والأكياس والقرب ، والفرش ، وأما وبرها فمنه معظم لباس سكان الصحراء وخيامهم . (1)

وقد كانت الكلاب والقطط والدجاج تمثل جزءاً لا يتجزأ من المنازل في سنغاي على أيام الأسيقيين ، وكان بيض الدجاج ولحومها يمثل غذاء الطرفة بين الناس في ذلك العهد . (2)

وفي حين كانت أهمية القطط لا تتجاوز داخل المنزل فإن الكلاب كانت تتخذ للصيد وللحراسة ، كما كانت في بعض جهات البلاد تؤكل وتباع لحومها لدى بعض الجزارين (3) .

وكانت تربية النحل تمارس على نطاق واسع في السودان الغربي على أيام الأسيقيين ، وتصنع لها مخابىء في ظلال الأشجار .

كما كانوا يجنون العسل من خلايا النحل البري التي كانت تساعد الأشجار والحشائش التي يغص بها الإقليم على وجودها بكثرة . (4)

وقد كان العسل يدخل في تغذية الكثيرين كعنصر هام ، كما كانوا يستخرجون من شهده الشمع بكثرة ويصدّرونه للخارج . (5)

يتبين من كل هذا أن الثروة الحيوانية ببلاد سنغاي ، كانت تشكل المصدر الثاني لحياة السكان بعد الزراعة ، وهي بذلك تشكل الميدان الثاني لنشاطهم أيضاً . أما الصناعة فكان دورها أقل من ذلك بكثير ، كما سيأتي معنا تفصيله .

---

(1) بو فيل ص 180 .

(2) كعت ص 51 .

(3) موني ، (أكل الحيوانات في إفريقيا الغربية) ، باريس ، 1954 ، ص 78 . وقد أخذنا برأيه لأن ابن بطوطة ذكر وجود ذلك في القرن الرابع عشر .

(4) الحسن الوزاني — ص 29 .

(5) بوفيل ص 261 — كعت صفحات 15 — 103 — 201 .

الفصل الثالث

الإنتاج الصناعي

كانت الصناعة في سنغاي بسيطة ، يتعاطاها أصحاب الحرف في دكاكين صغيرة ، ولم نجد في جميع مراجعنا حديثاً عن التنظيم المهني ، كما كان لدى دولة الفاطميين ، ودولة العباسيين مثلاً ، مما يدلّ على أن الصناعة لم تكن لها قوانين ، بحيث تلزم أصحابها بالتكاتف ومراعاة شروط المهنة .

ويذكر الحسن الوزاني (1) أنّ دكاكين أصحاب الحرف كانت منتشرة بكثرة في المدن وحتى في القرى الصغيرة ببلاد سنغاي ، مما يدل على أن أصحاب الحرف كانوا كثيرين ، وبالتالي كان إنتاجهم وفيراً في البلاد .

وقد تنوعت الصناعة في سنغاي بتنوع ما توافر من المواد الأولية ، ولذا فإننا سنلقي نظرة على مختلف المواد الأولية الموجودة آنذاك ، ثم نتصدى للحديث عن المواد المصنوعة ، وأهمية كل منها ، ومدى الإتقان والإقبال اللذين رأتهما .

أ — المواد الأولية والمعادن

كان قد توافر من المواد الخامّ التي استعملت في الصناعة على أيام الأسيقيين

---

(1) وصف إفريقيا ، ص 246 .

في سنغاي ، أنواع متعددة ، كان من بينها : الجلود التي كانت قد توافرت بكثرة ، ولذا قام على أساسها عدد من المصنوعات ، فقد وجدت الجلود الخشنة الكبيرة الحجم ، مثل جلود الجمال وجلود الأبقار ، كما كانت قد وجدت الجلود المتوسطة الحجم والرقيقة القابلة للتليين مثل جلود الأغنام .

ووجدت الأتربة بأنواعها في البلاد ، سواء منها تلك التي انحدرت من تحلل الصخور الكلسية أو التي نتجت عن تحلل الصخور المتحولة والبلورية ، أو التي نتجت عن تحلل الصخور النارية بأنواعها ، وذلك لأن جزءاً كبيراً من مساحة البلاد في الشمال يرجع تكون تربته – كجزء من الصحراء – إلى الحقب الأول من العصر الجيولوجي الأول ، وقد أثرت فيه عوامل التعرية لقدمه ، وأحالت صخوره إلى تراب صالح لاتخاذ كل أنواع الخزف منه والطوب . وكذا كان الأمر بالنسبة لما يحمله النيجر من الأتربة أثناء فيضانه ويلقي بها على الجوانب .[1]

وكان الذهب متوافراً بكثرة في أسواق سنغاي على أيام الأسيقيين[2] وكانت مناطق استخراجه هي مناجم كل من بوري عند حافة النيجر العليا (مكان تكونه) . وباميوك عند حافة السنغال العليا أيضاً (مكان تكوّن مجراه[3]) .

وعندما يمرّ نهر النيجر بصورة خاصة بمكان وجود الفلزات ، فإنه يجرف معه قسماً هاماً منها ، وعلى مقربة من غاو وتمبكتو حيث يتسع مجراه ويرتفع سيره ، فإنه يفيض على الجوانب خلال فصل الأمطار ، وعندما ينتهي موسم فيضانه ، تبقى تلك الفلزات لامعة في العراء ، بعد أن تكون قد صفيت من معظم الأتربة العالقة بها في الأصل ، وذلك بفعل احتكاكها بالصخور ، وبقائها وسط المياه أثناء وجودها في مجرى النهر ، فيلتقطها الأهالي .

---

(1) انظر ل . غالوا – جغرافية العالم – كولان – باريس 1939 ج 2 – صفحتي 11 – 76 .

(2) انظر (البيت الإفريقي ، بصورة خاصة) .

(3) انظر بصورة خاصة خريطة موني (كشف جغرافي ، لإفريقيا الغربية حتى أواخر العصر الوسيط) ، ص 295 . ودراسته معها عن مناجم الذهب في تلك الحقبة .

وهذا في نظرنا ما حمل كثيراً من الرحالة والجغرافيين العرب على القول بأن نهر النيجر (نيل السودان) ، يزرع الذهب على شواطئه ، ويذهب الأهالي ليقتطفوه ، فينال كل منهم ما قدر له[1] .

وكان معظم ما يستخرج من تلك المعادن يستولي عليه الأمراء ، ويذهب البكري إلى أن عادة الملوك في أيام غانا ، هي أنهم لا يتركون لغيرهم من العامة سوى التبر أمّا السبائك فيستأثرون بها لكي يبقى لذلك المعدن الإقبال عليه .[2]

والواقع أنّ الذهب هو الذي جعل السودان الغربي مقصداً لجموع التجار الأجانب ، منذ ما قبل القرن الخامس الميلادي ، حيث وصلتنا أول الأخبار عن تعامل القرطاجنيين على الشواطىء الغربية لإفريقيا مع الأهالي معاملة صامتة للحصول على الذهب[3] .

أما خلال العصر الوسيط ، فقد كان للذهب دور كبير في ربط السودان بالمغرب ومصر ، وبالتالي جعله جزءاً من حضارة العالم الإسلامي ، بفعل احتكاك المسلمين به لفترة طويلة من الزمن ، وقد بقي كذلك حتى بداية القرن العشرين[4] .

وقد كان ذهب السودان الغربي يغذي من حاجة عالم البحر الأبيض المتوسط من الذهب بما يقدر بالنصف[5] ، وكان يصدر قسم كبير منه إمّا تبراً أو مصنوعاً في شكل خيوط دقيقة ، لأنّ الذهب كما هو معروف من خصائصه الفيزيائية ، هو أكثر المعادن قابلية للسحب والطرق .

---

(1) ابن سعيد – العمري – القزاري ، وغيرهم .

(2) ص 84 .

(3) هيرودوتس ، ج 2 ، باريس 1870 ، ص 280 .

(4) احتل الفرنسيون بلاد سنغاي القديمة في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنهم لم ينظموها تنظيماً يدخلها تحت توجيهاتهم الجديدة إلا في بداية القرن العشرين . أما قبل ذلك ، فقد بقيت تلك البلاد تعيش حسب تقاليد الحضارة الإسلامية ، كما كانت في السابق .

(5) موني ، كشف جغرافي ، ص 306 .

وفي هذه الناحية كان أصحاب الحرف من الأهالي هم الذين يتولون عمليات سحبه وطرقه .

وبالإضافة إلى ذلك كان الذهب يتخذ أيضاً كحلي وزينة وزركشة لدى الملوك والأمراء وكبار الموظفين والموسرين ، وكان للصاغة وللحرفيّين دورهم الهام في ذلك أيضاً . (1)

وكان النحاس قليلاً جداً في بلاد سنغاي على أيام الأساقي وكانت أقرب نقطة يستغل منها تقع في (أكجوجت) إلى الجنوب الغربي من موريطانيا الحالية . وفي منجم أزوليك ببلاد الأير . (2) .

أما وروده إلى بلاد سنغاي فقد كان عن طريق التجار من مغاربة ومصريين ، ولهذه الندرة لوجود النحاس ببلاد سنغاي ، فقد ارتفع ثمنه ، وكثر الإقبال عليه ، فكان يستبدل في أغلب الأحيان بالذهب (3) .

وكان الأهالي يتخذون منه أدوات للزينة وكذا السلاطين وحاشيتهم ، ومن هنا كان من المواد التي كان لها محترفون في بلاد سنغاي ، ولكنهم كانوا قليلين ، لندرة وجود هذا المعدن بالبلاد .

وكان الحديد موجودة مناجمه بكثرة في سنغاي على أيام الأسقيين ، وفي جميع الجهات من البلاد تقريباً ، ولذا قامت له صناعات وتكاثر محترفوها ، كما سنرى فيما بعد .

وقد عرف استعمال القصدير والرصاص ، وكانا موجودين بالبلاد ، ولكن كان محترفوهما قليلين ، وفي الغالب كان الذين يتولون صناعات الحديد هم الذين يتولون صناعة الرصاص والقصدير أيضاً ، إلاّ أن استعمال هذين المعدنين بالبلاد كان قليلاً . (4)

(1) كعت صفحات 19 – 31 – 87 – 112

(2) موني – الكشف ص 404 .

(3) الحسن الوزاني ص 18 .

(4) موني المصدر السابق ذكره – ص 205 .

وقد كانت ممالح تغازة تابعة للأساقي ، ولكن لم تقم حول الملح صناعات ، لأنه كان يستعمل للاستهلاك فقط ، ولذا فإنه لا يهمنا هنا ، لأنه لم يكن يتخذ للصناعة .

ب – المصنوعات

كانت من أهم المواد التي تصنع في بلاد سنغاي على أيام الأساقي الأقمشة ، التي كانت صناعتها منتشرة بكثرة في مدن بلاد سنغاي على أيام الأسقيين (1) ، ولكنها كانت في شكل حياكة باليد ، وقد عدد ليون الإفريقي في تمبكتو وحدها للخياطين وجود أكثر من ستة وعشرين دكانا ، وفي كل واحد منها كان يوجد بين خمسين ومائة متعلم . وهذا يدل على أنّ صناعة الأقمشة كانت مزدهرة وكمية الإنتاج كانت كبيرة .

ويبدو أنّ صناعة الأقمشة من القطن بدأت أول الأمر في السنغال الحالي حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، ثم عمت بقية أنحاء السودان الغربي بعد ذلك (2) ، ولكنها إنما بلغت أوجها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حيث أصبح الإنتاج في غاو يصدّر قسم هام منه إلى مشارف الصحراء الجنوبية . (3)

أما صناعة الألبسة والزرابي من الصوف والشعر والوبر ، فقد عرفت في السودان قبل ذلك ، وكانت لا تزال موجودة بكثرة في سنغاي على أيام الأساقي (4) ، إلا أنّ صنعها كان في أغلبه للاستهلاك الخاص والمحلي .

وقد توافرت لدينا الأخبار عن وجود حرفة الصباغة في سنغاي خلال العهد

(1) انظر الحسن الوزاني ص 26 .

(2) انظر دولا فوس – أعلى السنغال ، ج 2 ص 163 .

(3) نفس المصدر – ص 163 .

(4) بوفيل – ص 180 .

المغربي [1] ، مما يدل على وجودها خلال عهد الأساقي قبله أيضاً . وكانت الألوان أكثرها حمراء أو زرقاء أو سوداء ، وقليل منها صفراء وخضراء ، وكان الصباغون يستعملون في تجسيمها أوراق النباتات ويضيفون إليها في الغالب الشب والملح . [2]

وكان صانعو الأقمشة في الغالب يجمعون إلى ذلك الصباغة بأنفسهم . ولكن كان يوجد إلى جانبهم بعض الذين تخصصوا في فنّ الصباغة وحده وكانوا قليلين .

وحتى أواخر القرن السادس عشر كان قسم كبير من سكان سنغاي يلبسون خلال فصل الشتاء الجلود المدبوغة . [3]

أما المخالي والأكياس والسجنجلات والسروج والصنادل والدلي والألجمة والأقتاب ، وما إليها ، فقد كانت كلها تتخذ من الجلود ، وكذا كان الأمر بالنسبة لقسم هام من الفرش والأغمدة .

ومن هنا نستطيع أن نلاحظ مقدار تكاثر محترفي صناعة الجلد ، حتى ليمكننا اعتبارهم يمثلون أغلبية بين الصناع في البلاد ، ولا يكاد يدانيهم في الكثرة إلا صانعو الأقمشة . أما ازدهار الصناعات الجلدية آنذاك ، فلا يشك فيه بحال . [4]

وكانت الدباغة منتشرة كحرفة في بلاد سنغاي ، وكان يتخذ لها نباتات محلية عديدة ، وكذا قشور الرمان والأملاح . أما طريقتها فكانت تعتمد على الغلي والنقع ، وفي الغالب كان محترفو الدباغة هم غير محترفي صناعة الجلود .

وكانت صناعة المجوهرات تعتمد على الذهب والنحاس ، وكانوا يصنعون من هذين المعدنين أساور وأغمدة للسيوف والرماح ، كما كانوا يزركشون بها ألبسة الرؤساء .

(1) كعت ص 91 — والسعدي ص 48 .
(2) انظر موني المصدر السابق ذكره — ص 102 .
(3) نفس المصدر ص 231 .
(4) انظر بوفيل ص 121 — وأديكو ص 41 .

ويرى موني [1] أنّ هذه الحرفة هي وحدها التي كان لها صنّاع لا يباشرها غيرهم في البلاد [2] .

وقد كانت مناجم الحديد كثيرة الوجود والانتشار في جميع أنحاء بلاد سنغاي كما أسلفنا ، وكان رخيص الثمن ، وتستخرج منه كميات كبيرة ، ولذا تكاثرت الصناعات المعتمدة على مادته ، وأهمها كانت صناعات الخناجر والسيوف وبعض الدروع والخوذات والرماح والفؤوس وحدائد الخيل والمطارق وكذا المسال والإبر [3] .

وكان محترفوه في دكاكينهم ، تسمع لهم جلبة بالسوق ، من جراء الطرق الذي يباشرونه على حديدهم ، بعد أن يشبعوه تسخيناً حتى الاحمرار .

وقد كانت صناعة الخشب قد تكاثر محترفوها أيضاً ، وكانت في أغلبها موجهة لصناعة الأبواب والنوافذ والأعمدة ولولبات الدلي [4] .

وكانت صناعة الفخار مزدهرة ازدهاراً كبيراً في سنغاي على أيام الأسقيين ، وقد أوصلت الحفريات الحديثة إلى العثور على عينات كثيرة منها . وأهم ما كان يصنع من الفخار : الجرار وأوان للشرب والأكل وبعض اللعب للأطفال . وكانوا ينقشونها ويزوقونها بالألوان أحياناً كثيرة . وكانت صناعتها تتم باليد ، ثم يشوى الإناء بعد صنعه وتجفيفه ليزداد صلابة . [5]

وإلى جانب ذلك كانت صناعة الطوب مزدهرة ، وكانوا يختارون لها الأتربة

(1) موني ، كشف جغرافي ، ص 294 .
(2) تثبت النصوص الموجودة لدينا حتى اليوم أن التخصص كان قليل الوجود في سنغاي ، وإذا وجد فإنه غير مكفول له الاستمرار ، وأن أي تنظيم نقابي كما كان في أيام الفاطميين بمصر مثلا ، لم يكن له وجود في سنغاي ، ولذا فإننا لا ندري كيف استقى موني رأيه ، هذا ، ونظن بأنه إنما اعتمد فيه على ما أثر عن توافر عوامل الاحترام لصانعي الحلي من النحاس والذهب ، أكثر من غيرهم .
(3) انظر بوفيل ص 16 .
(4) نفس المصدر ص 153 .
(5) انظر موني — الكشف ص — 224 .

الصلبة ثم يشوونها بالنار لتجف. ولا يزال قائماً لحدّ الآن بعضُ الآثار المبنية به من ذلك العهد، في غاو وجني وتمبكتو[1]. وقد استفيد منها على أنّ إتقانهم لصنع الطوب أو (الآجر) ، كان لا يقل عما كان مثيله في البلاد الإسلامية آنذاك بالمغرب والمشرق .

من هذا العرض لوضعية الإنتاج الصناعي في سنغاي على أيام الأسيقيين ، نستطيع أن ننتهي إلى القول بأن الحرف الصناعية كان قد اختص بها سكان المدن ، ورغم ما يبدو لنا من تنوع المنتوجات الصناعية ، فإنها كانت لا تكاد تزيد عن سدّ الحاجة المحلية الاّ في النادر اليسير ، ومعظم المنتوجات الصناعية إنما كان يستفيد منها ويستعملها الأغنياء دون سواهم .

(1) نفس المصدر ص 189

الفصل الرّابع

التجارة الدّاخليّة ومتعلّقاتها

(1) الأسواق والنقل

أ ـ الأسواق :

كانت الأسواق في بلاد سنغاي تعقد وتوجد حيثما توجد المدن ويتكاثر السكان المساكن في جهة ما ، ويمكن للباحث أن يتبين وجود ثلاثة أنواع من الأسواق في البلاد ، هي :

الأسواق المحلية : وهي التي كان يرتادها سكان القرية التي توجد فيها السوق والمحلة القريبة منها ، وفي الغالب كان يوجد فيها بعض الدكاكين البسيطة ، أما معظم البضائع فكانت تعرض في العراء ، كما يتبادل فيها بعض البضائع الرخيصة الأثمان فقط ، ويعقد سوقها أسبوعياً فيكثر فيه الناس بعض الشيء عن الأيام الأخرى ، وكذلك تتضاعف كميات البضائع [1] .

الأسواق الجهوية : وكانت توجد حيث توجد المراكز الحكومية في الأقاليم ، وكانت تصلها جماعات التجار من خارج المنطقة الموجودة بها ، كما كانت

(1) تجول مونغوبارك في تلك البلاد خلال عام 1799 فقال إنه في هذه الأسواق لا تزيد أثمان كل ما فيها من البضائع عن 20 فرنكا ذهبياً . أما في اليوم الأسبوعي فقد تصل أثمان كل ما يعرض بالسوق الواحد من البضائع إلى ما يعادل 300 فرنك ذهبي لا غير . وقد كان ذلك التاريخ فترة تدهور اقتصادي واجتماعي بالسودان الغربي كله .

توجد فيها بضائع أكثر كمية وتنوعاً منها في الأسواق المحلية ، كما يمارس فيها التبادل بين المنتجات الجهوية والمحلية والخارجية ، [1]

الأسواق الكبرى : وأغلبها كان يقع في شمال البلاد ، وكانت تجري عن طريقها حركة الاستيراد والتصدير مع الخارج ، وفيها يحصل عقد الصفقات الكبيرة بين التجار الموسرين ، ويقصد هذه الأسواق التجار من جميع الجهات ، وكانت أهمها في سنغاي على أيام الأساقي تلك التي توجد في كل من تمبكتو – جني – والاتا – غاو وكوكيا .

ب – النقل :

كانت وسيلة النقل الأولى داخل بلاد سنغاي هي الحيوانات والقوارب .

أما منها وإليها فالحيوانات وحدها على الأغلب [2] . كما استعمل تجار الجنوب العبيد في النقل الخفيف . [3]

وفيما يتعلق بالنقل بين بلاد سنغاي والمغرب ومصر على الخصوص فقد كانت تستعمل الجمال ، لأنّ اتصال بلاد سنغاي بالخارج إنما كان مع الشمال والشرق أكثر ، وبين بلاد المغرب ومصر ، توجد الصحراء ، وأكثر الحيوانات ملاءمة لقطعها هي الجمال .

وكانت قوافل التجارة بالجمال تصل إلى بلاد جنيّ وغاو ، وقلّما تتجاوزهما إلى داخل البلاد ، لأنّ التجار الأجانب كانوا يجدون في تمبكتو وجني وغاو ووالاتا التجار المحليين وتجار الجنوب في انتظارهم ، حيث أن أصحاب القوافل كانوا يبعثون قبل وصولهم بمخبر عن يوم دخول قوافلهم للبلد ، فيتهيأ الناس

(1) انظر الحسن الوزاني – ص 24 .
(2) لم تسعفنا المصادر بما يفيد أن هناك نقلا كان يتم عن طريق النيجر بين جنوب سنغاي والبلدان المجاورة لها .
(3) انظر كاداموستو – ص 24 .

لاستقبالها وعقد الصفقات التجارية مع رجالها . وكان التجار المحليون يكونون في هذا الوقت قد جمعوا بضائعهم التي يريدون مبادلتها وهناك يقع الاتفاق . [1]

أما في الداخل فكان النقل يتم بإحدى الوسائل التالية :

1) الحمير : وكانت تستعمل في الغالب للنقل القريب (بين القرية) والأخرى أو بين الناحية والأخرى . [2]

2) النقل بالثيران : وكان يستعمل للنقل القريب أيضاً ، كما كان أقلّ انتشاراً من النقل بالحمير لدى الناس .

3) النقل على ظهور العبيد : وكان يمارس على نطاق واسع ، لأنه يضمن للتجار وللمسافرين الحراسة والأمان من قطّاع الطرق ، أما تجار سكان الغابات الذين كانوا يفدون على أسواق سنغاي الجنوبية أكثر من تواردهم على بقية النواحي ، فإنّ النقل بالعبيد كان وسيلتهم الوحيدة تقريباً .

4) النقل بالقوارب النهرية : وهي عبارة عن قوارب (بجعية) تصنع في الغالب من جذع شجرة واحدة ، وأحياناً تلصق قطعتان ببعضهما . وكان يمارس بواسطة تلك القوارب على أيام الأسيقيين في سنغاي نقل الأشخاص والبضائع على طول نهر النيجر وفي نهر السنغال أيضاً .

ومهما يكن فإن وسائل النقل بمقاييس ذلك العصر كانت متوافرة وهذا ما كان يساعد على وصول البضائع إلى مختلف جهات البلاد .

(1) انظر رحلة ابن بطوطة ص 35 – والحسن الوزاني ص 21 .
(2) السعدي ص 181 .

(2) المكاييل والمقاييس والموازين

إن ما يعثر عليه الباحث في هذا الموضوع يؤدي به إلى الاعتقاد بأنّ المكاييل والمقاييس والموازين التي كانت مستعملة في مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين ، لا تختلف عن تلك التي كانت موجودة في بقية أنحاء البلاد الإسلامية أو هي مأخوذة عنها .

ورغم شحّ المصادر التي بين أيدينا حتى الآن في إعطاء الدّارس تفصيلات كافية عن المقاييس والموازين والمكاييل لدى السنغائيّين ، فإنّ الدراسة الجادّة تسعفنا على أخذ صورة عامة لا بأس بها .

أ ــ المقاييس :

كانت المقاييس التي تعارف عليها الناس في سنغاي وتعاملوا على أساسها هي :

1) الشبر : ويساوي الامتداد بين الخنصر والإبهام حين تكون الكف مفتوحة ، وقد قدّره موني [1] بـ 21,5 سم تقريباً .

2) الذراع : وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى ويساوي حوالي 50 سم تقريباً [2] .

3) الميل : وهو يستعمل في قياس المسافات بصورة خاصة ، وقد قدره موني أيضاً بـ 1920 متراً بالتقريب .

---

(1) كشف جغرافي لإفريقيا الغربية ، ص 412 .

(2) هذان المقياسان (الشبر والذراع) كانا يستعملان لقياس الأقمشة والحيطان والحقول وما شابههما من القياسات الصغيرة .

4) الفرسخ : كان الفرسخ تقاس به المسافات الطويلة أيضاً وكان يساوي ثلاثة أميال ، أي 1920 × 3 = حوالي 5760 متراً بالتقريب .

5) وقد استعمل البريد أيضاً ولكن بقلة ، وكان يساوي المسافة التي تعادل سير ساعة بالحصان المسرع . [1]

ب ــ المكاييل :

كانت المكاييل في سنغاي حسبما أوصلتنا إليه النصوص التي بين أيدينا ، هي :

1) المدّ : وكان يساوي سعة أربعة ألواح بمجمع اليدين ، وقد قدره موني أيضاً بما يعادل 0,75 س‌ل بالتقريب [2] .

2) الصاع : وهو يساوي أربعة أضعاف المد أي ما يعادل ثلاثة لترات تقريباً .

3) القنطار : وقد قدر في دائرة المعارف الاسلامية بمائة رطل [3] .

4) المودي : وهو يساوي ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد [4] .

جـ ــ الموازين :

كانت الموازين المستعملة ينصرف مدلول استعمالها في الغالب إلى الذهب ، أمّا الأشياء التي لها قيمة تشابهها كالفضة مثلا فقد كانت توزن بموازين الذهب نفسها

---

(1) ذكرت هذه المقاييس كلها في كتابات السعدي وكعت وأحمد بابا ، ولكن دون ذكر لمقاديرها ، وقد تصدى العلامة (موني) لبحثها ، فكانت النتائج التي توصل إليها ، هي التي اعتمدت هنا .

(2) موني ، كشف جغرافي ، ص 412 . ولا يبدو أن هذا التقدير مصيب لأن ثلاثة ألواح بمجمع اليدين أكثر من هذا .

(3) دائرة المعارف الإسلامية ، طبعة 1927 ، ج 2 ، ص 1081 .

(4) كعت ، ص 249 .

وتقدر على أساسها فيقال ثلاثة دراهم من الفضة ، وعشرة دراهم نحاس ، وهكذا ومن هذا يظهر أنه في غير المعادن الثمينة فإن استعمال الأوزان كان قليلاً ، وإنما تستعمل المكاييل عوضاً عنها .

وأهم الموازين التي كان متعارفاً عليها هي :

1) المثقال : وكان يساوي وزن 72 من حبات القمح المتوسطة في الحجم .

2) الدرهم : وهو يساوي سبعة أعشار الدينار .

3) الدينار : وهو يساوي أربعين درهماً .

فيكون الدرهم بهذا الاعتبار يساوي $\frac{7 \times 40}{10} = 2,8$

ويكون الدينار يساوي $2,8 \times 40 = 112$. (1)

4) المثقال : وقد وجدت في غاو قطعة من الزجاج كانت هي وزن المثقال(2) ، وهي في شكل دائري شعاعها يساوي 26 مم . ووزنها حوالي 3 غ . غير أن ما وجد منها يساوي فقط حوالي $\frac{2}{3}$ منها في الأصل ، وهكذا يمكن تقدير الوزن الكامل للمثقال بحوالي أربعة غرامات .

وقد وجد بارت أثناء مروره بالسودان الغربي في القرن التاسع عشر ، أن المثقال لا يزال مستعملاً بكثرة في تمبكتو ، وأنه يساوي وزن 96 حبة قمح ، مما يحمل على الاعتقاد بأن تقدير المثقال كما كان في القرن السادس عشر بوزن أربعة غرامات ، غير بعيد من الصواب (3) .

5) الأوقية : وقد انتهى موني في شأنها بعد دراسة دقيقة حولها إلى أنها تساوي حوالي 27,5 غ . تقريباً .

---

(1) موني – الكشف – ص 430 .
(2) نفس المصدر – ص 424 .
(3) بارت – الرحلة – طبعة باريس (بالفرنسية) 1861 ، ج 2 ، ص 28 .

د – مادة المعايير :

كانت المعايير المستعملة إمّا من النحاس أو الحجر أو الرصاص أو الزجاج ، وقد وجدت عينات منها في غاو (1) ، وأشكالها ليست في حالة صنعة دقيقة ، مما يحمل على الاعتقاد بأنّ المراقبة الحكومية لها ، لم تكن على مستوى مرموق أو أنها لم تكن موجودة أصلاً .

ومما سبق نستطيع أن ننتهي إلى استخلاص أن سنغاي على أيام الأسقيين ، كانت لها مقاييس وموازين ومكاييل ثابتة ومتعارف عليها ، وكان التبادل ومختلف أنواع التعامل التي تتطلب الكيل أو القياس أو الوزن تمّ على أساسها .

---

(1) انظر موني – الكشف – ص 289 .

(3) الأسعار والرواتب والعملة

أ — الأسعار :

كانت الأسعار تختلف من وقت إلى آخر ، ولكن أكثرها تغيراً مع الزمن والمناسبات كانت أسعار العبيد ، وكانت اختلافات أثمانهم حسب ظروف السوق تخضع لنوعية العبد ، (ذكر أو أنثى) — عمره ، حالة العرض والطلب في السوق ، ثم الأعمال التي يستطيع العبد أداءها .

فقد اشترى ابن بطوطة سرية مهذبة (منتصف القرن الرابع عشر) بخمسة وعشرين ديناراً [1] ، وقال بأنه اشتراها بثمن مرتفع جداً .

لكنّ مالفانت ذكر أنه في القرن الخامس عشر كان ثمن العبيد في توات منخفضاً جداً لكثرة تواردهم من السودان ، فهو يساوي في المتوسط أوقيتين للرأس الواحد [2] .

ومن هذا يبدو أن الأسعار كانت منخفضة بعض الشيء في المدن الواقعة على مشارف الصحراء ومنها تمبكتو .

أما في غاو فقد كانت أثمان العبيد أكثر ارتفاعاً ، ربما للإقبال على شرائهم أكثر من طرف السلاطين والنبلاء .

فقد ذكر الحسن الوزاني أنه شاهد بنتا لها خمس عشرة سنة بيعت بست أوقيات من الذهب في غاو ، كما بيع أحد الشبان بنفس القيمة أيضاً ، ثم ذكر

(1) بحساب أن الدينار يساوي حوالي 729 ,4 غ من الذهب .
(2) انظر مالفانت (لا رونسيير) باريس 1925 ، ج1 ، ص 40/439 .

أن العبيد إذا كانوا كبار السن أو أطفالا صغاراً فإنه يمكن الحصول عليهم من السوق بثلاث أوقيات فقط [1] .

وفي أحيان كثيرة كان العبيد يباعون في شكل مجموعات ، ففي القرن السادس عشر يذكر صاحب الفتاش [2] أن بعض العبيد كانوا يساوون من خمسين إلى ثمانين مثقالا لكل واحد منهم ، وهناك بعض التجار يشترون بسعر الجملة بواقع خمسمائة عبد مقابل خمسة آلاف مثقال .

ويبدو للدارس أن العبد المتوسط من غير اختصاص كان ثمنه في السودان الغربي على أيام الأسيقيين يتراوح بين خمس إلى عشر أوقيات ، وضعف هذا الثمن لخصيّ أو امرأة على نسبة حسنة من الجمال ، وقد يرتفع الثمن عن هذا إذا كانت الجارية رائعة الجمال أو أنها حاصلة على مقدار من التهذيب .

وكان الملح يعتبر من بين البضائع الأكثر ارتفاعاً وأهمية في السودان الغربي على أيام الأسيقيين ، وكان ملح تغزة هو الذي ينال إقبالا أكثر لصفائه ، وبالتالي فإنه كان أكثر ارتفاعاً في ثمنه .

ونستطيع أن نأخذ فكرة على أسعار الملح مما ذكره الحسن الوزاني من أن حمل الجمل من الملح كان يساوي حوالي ثمانين أوقية في كل من تمبكتو وغاو على أيام الأسيقيين . وإذا بيع الجمل مع الملح الذي يحمله ، فإن ثمن الاثنين يتراوح بين مائة إلى مائة وعشرين مثقالاً .

وكانت أثمان الخيول أرفع شيء بينها ، وكانت في أحيان كثيرة تبادل بالعبيد في السوق [3] .

(1) في هذا الوقت كانت الأسعار في بلاد المغرب أكثر ارتفاعاً فيما يتعلق بالعبيد (20 ديناراً للذكر ، ١٥ ديناراً للأنثى و 40 ديناراً للخصي) . وفي إسبانيا كان الثمن ارفع 160 مثقالا ثمن الأمة السوداء الصغيرة السن و 28 للذكر .
انظر (الحسن الوزاني ، ص 271 ، وموني ، كشف جغرافي ، ص 422) .
(2) ص 217 — 155
(3) انظر بوفيل — ص 225

وأمّا أثمانها بالذهب فكانت لا تنزل عن أربعين مثقالاً ، وقد تبلغ المائة مثقال أحياناً أو تزيد . (1)

وأما الجمال فقد تراوحت أثمانها بين أربعة إلى سبعة مثاقيـــل ، حسب استعمالها للنحر أو للنقل أو للركوب ، وكانت أعلاها ثمناً هي التي تستعمل للركوب ، وتليها التي تستعمل للنقل (2) ، أما التي تنحر فكانت أدناها أثماناً (3) .

وتراوحت أثمان الأبقار بين مثقالين ونصف إلى ثلاثة مثاقيل ونصف ، وقد انخفضت أثمانها بهذا الشكل لكثرتها بالبلاد .

وكان أهم ما يجلب من الحبوب إلى سنغاي من الخارج على أيام الأسيقيين القمح والزبيب وبعض الفواكه المجففة (4) ، والتمر .

أما التمر فيذكر صاحب تاريخ الفتاش (5) أنه في سنة 1594 كان يباع في تمبكتو كل عشر تمرات من تمر بسكرة بخمس ودعات ، وقد علّق على ذلك بأن هذا يمثل سعراً منخفضاً ، وهذا ما يحملُ على الاعتقاد بأنّ ثمنه في أغلب الأحيان كان أرفع من ذلك .

وقد بيع القمح في تكدّه في أواخر القرن الرابع عشر بأوقية ذهب مقابل عشرين مدّاً ، وكذلك كان سعر كل من الزبيب والفواكه المجففة ، ولم نعثر على ما يثبت أنّ هذا السعر قد ناله التغيير الكبير الاّ في أيام المجاعات التي كان يندر خلالها ورود البضائع من الخارج ، وخاصة في أيام الأساقي الأخيرة بسنغاي . (6)

(1) نفس المصدر ص 164

(2) موني – الكشف – ص 103 .

(3) في الغالب كانت تنحر كبيرة السن أو التي لحقتها عاهة ما .

(4) التين وعين بقرة بصورة خاصة .

(5) محمود كعت ، ص 219 .

(6) نفس المصدر ص 263 .

وذلك أنه في أوقات الفوضى بالبلاد ، كان الأمن يقل في البلاد ، فيقل تبعاً لذلك ورود القوافل ونقل البضائع فترتفع أثمانها بالسوق .

وهذا السعر سابق الذكر للقمح والفواكه المجففة معقول اعتماده لأنه ثبت أنه كان يمثل نسبة الزيادة بمقدار الثلثين عن أسعار بلاد المغرب لهذه المواد في ذلك الوقت (1) .

وكانت الأقمشة يصنع قسم منها فقط ببلاد سنغاي ، أما القسم الآخر فكان يرد على البلاد من بلدان المغرب ومن مصر ومن أوروبا عن طريق المغرب ، حيث انّ التجار الإيطاليين كانوا يردون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على بلاد الشمال الإفريقي فيبيعون عدة بضائع على رأسها الأقمشة ، وكان قسم هام منها يصدر إلى السودان الغربي (2) .

كما كانت الأقمشة ترد على البلاد من كانو وبلدان الحوصا في شمال نيجيريا الحالية . (3)

وكانت أسعار الأقمشة في بداية القرن السادس عشر بسنغاي كما يلي :

أ ـ قطعة من ذراع وستة أشبار (ملونة أو بيضاء) تساوي مثقالا واحداً من الذهب .

ب ـ القطعة من أقمشة فارس والمشرق ، قياسها ثمانية أشبار كان سعرها مثقالا واحداً كذلك . (4)

وقد كان قسم قليل من السيوف فقط هو الذي يصنع داخل بلاد سنغاي أما أغلبها فكان يرد على البلاد من الخارج .

(1) موني ، كشف جغرافي لإفريقيا الغربية في العصر الوسيط ، ص 425 .

(2) صلاح العقاد ، تاريخ المغرب العربي ، القاهرة 1956 ، ص 140 .

(3) بوفيل – ص 48 .

(4) نفس المصدر – ص 64 .

وكان سعر أدناها قيمة ، وأغلبه من وارد أوروبا يباع في أسواق سنغاي بين ثلاث إلى أربع أوقيات . في حين كان ثمنه في بلدان المغرب لا يتجاوز ثلث الأوقية الواحدة [1] .

وبصورة عامة ، فإنّ البضائع التي كانت تأتي من الخارج كانت أكثر ارتفاعاً في أثمانها من البضائع المحلية : وكانت أسعارها تنخفض أو ترتفع ، حسب توارد القوافل على البلاد ، أو انقطاعها . وعلى العكس من ذلك ، فإنّ البضائع التي تصدر إلى الخارج كانت تجد الرواج والثمن المناسب في الأسواق حينما يكثر ورود القوافل على البلاد أما حينما يقل مجيئها ، فإنها تتعرض للكساد بعض الشيء وقد تنخفض أسعارها . [2] وكان ورود القوافل يخضع لتوافر الأمن في الصحراء ، ولعامل الاستقرار في البلدان القادمة منها وإليها . [3]

ب — الرّواتب

لا نملك الكافي من المعلومات حول الرواتب على أيام الأسقيين في سنغاي ، ولكننا نعرف أنها كانت في شكل هبات سنوية ، وأن الحديث عنها هنا تقتضيه رغبتنا في معرفة مصادر القوة الشرائية لدى السكان ، وسيثبت لنا فيما بعد أن أصحاب الرواتب كانوا من بين أكثر الناس استهلاكاً للواردات الخارجية ، وهذا بفعل رواتبهم النقدية .

وإذا كان في أيام مالي كما يذكر العمري يقبض الموظفون من سلطان مالي خمسين ألف مثقال في العام زيادة عن الحصان والألبسة [4] ، فإننا لا نعتقد

(1) موني ، كشف جغرافي ، ص 426 .
(2) انظر بوفيل — ص 63
(3) في أواخر أيام الأساقي يذكر كعت كثيراً من الاضطرابات في بلاد سنغاي ، فقل ورود القوافل وحصلت المجاعات ، أما أهل بورنو فانهم أرسلوا رسالة إلى جماعة توات ، يطلبون منهم العمل على تسهيل مجيء التجار إلى مملكتهم .
(4) ص 53 .

بأنه في أيام الأساقي زادت النسبة على ذلك بكثير ، ولكن من المؤكد أنها ارتفعت بعض الشيء عن السابق ، لأننا حين نقارن ما صرفه كنكان موسى في حجّه سنة 1325 والذي قدر بثلاثين ألف مثقال من الذهب [1] ، بما صرفه محمد الحاج الكبير وهو ثلاثمائة ألف مثقال [2] ، ربما يؤدي بنا ذلك إلى الاعتقاد بأنّ مداخيل الأساقي كانت أكثر من مداخيل مالي .

إذ من المؤكد أنّ دولة الأساقي في أيام عزّها حكمت أوسع مما حكمته مالي قبلها من البلدان [3] ، وإذا كانت واردات الخزينة في ذلك الوقت من الضرائب بالدرجة الأولى ، فلا شك أن ميزانية الأساقي كانت أكثر ، ومن هنا تصبح الرواتب لديهم أكثر على الأغلب .

وهذا مما جعل الهدايا التي قدمها ملوك غاو تبلغ أضعاف حجم الهدايا التي كان يعطيها ملوك مالي ، فكنكان موسى حين جلب معه الساحلي . كان قد أعطاه ألف مثقال ، أما الأسقيا الكبير فإنه حين جلب معه الصقلي في مهمة مشابهة لمهمة الساحلي أعطاه مائة ألف دينار وخمسمائة عبد ومائة جمل . [4]

أما العلماء والمدرسون في أيام سنغاي ، فكانت لكل منهم جراية ثابتة مقدارها ألفا مثقال في العام . [5]

ج — العملة :

ذكر الحسن الوزاني أنه في بلاد سنغاي أثناء مروره بها كان الناس يتعاملون بالذهب دون سكه [6] .

(1) المقريزي — ص 114 .
(2) السعدي ص 85 .
(3) روش ، جون ، ص 48 .
(4) دولا فوس — أعلى السنغال — جـ٢ ص 216 .
(5) نفس المصدر ص 215 .
(6) وصف إفريقيا ص 165 .

وقبله ذكر البكري أنه في أسواق تدمكّة يتعامل الناس بالدراهم الصلع أي غير المكتوب عليها شيء .[1]

غير أنه وجد في حفريات غاو كثير من الدراهم والدنانير الفاطمية والمغربية والملوكية ، مما يدل على أنه بطريق التجارة الخارجية وردت على سنغاي عملات أخرى واستعملت في أسواقها ، ولكن دورها كان ثانوياً بدون شك لقلة الكميات الواردة منها ، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره كادا موستو [2] من عدم وجود الدراهم المسكوكة في السنغال وفي الصحراء خلال القرن الخامس عشر .

وقد استعمل بالإضافة إلى برادة الذهب (التبر) ، النحاس أيضاً ، كما كانوا يتعاملون بالمبادلات العينية على نطاق واسع ، ربما كان أكثر من استعمال النقود على اختلاف أنواعها .

ولكن طريقة التبادل لم تكن لتشمل البضائع جميعها على ما يبدو ، وإنما كانت تشمل البضائع المرتفعة الأثمان وحدها تقريباً ، كما يستفاد ذلك من نصوص المؤلفين في ذلك العهد .

وأهم ما كانت تطبق عليه طريقة التبادل بكثرة ، الملح ، حتى اعتبره المؤلفون العرب نقودا في السودان في ذلك العهد ، وتليه في ذلك الأقمشة والخيول والعبيد .

وقد استعمل إلى جانب ذلك الودع ، وكان سعره في سنة 1510 كما ذكر الحسن الوزاني أربعمائة ودعة مقابل الأوقية الواحدة من الذهب. وهذا ما يجعل الودعة الواحدة يمثل ثمنها بالذهب حوالي 0,35 فرنكا [3] .

غير أنّ هذا السعر يمثل فقط ، أغلى ما وصلت إليه في أيام ندرتها بالسودان ،

---

(1) المسالك ، ص 184 .
(2) موني ، كشف جغرافي ، ص 419
(3) وصف إفريقيا ، ص 120 .

حيث أنه كان ينالها الارتفاع والانخفاض تبعاً لكثرة ورود القوافل ، لأنّ الودع كان يجلب من الهند عن طريق التجار المغاربة والمصريين .[1]

ولذا فإنّه في سنة 1594 حين أصبح البرتغاليون يجلبون الودع مباشرة من الهند ، فقد تكاثر في السودان حتى أصبح المثقال الواحد يساوي ثلاثة آلاف ودعة .[2]

وقد بقي التعامل بالودع قائماً في مختلف مناطق السودان الغربي حتى سنة 1900 وخاصة في حوض النيجر . وكانت قيمته ترتفع أو تنخفض عكسياً حسب كثرة المواد الغذائية أو قلّتها .[3]

وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كان الزجاج والعسل والخيول من بين الأشياء التي يقع بها الدفع وتقوم في التبادل مقام النقود .

وكانت الفضّة يتعامل بها كذلك ، ولكن بدرجة أقلّ من الذهب وكانت قيمتها بالنسبة للذهب ثلاث وزنات مقابل الوزنة الواحدة من الذهب .

استنتاج

من النتائج التي نستطيع أن ننتهي إليها في هذا الموضوع أن التجارة الداخلية كان قسم كبير منها يتم عن طريق التبادل العيني ، الذي كان منتشراً بين الأهالي في المنتوجات المحلية . أما المنتوجات المستوردة فقد كان يغلب على التعامل فيها استعمال النقود ، غير أن النقود كانت لا تتوافر بالكميات الكافية إلاّ لدى الموسرين في المجتمع من التجار وكبار الموظفين الذين كانوا يتقاضون رواتب ضخمة في شكل هبات يمدهم بها البلاط الملكي ، وهؤلاء هم الذين كانوا

---

(1) موني – الكشف . ص 418 .
(2) نفس المصدر ص 425 .
(3) دولا فوس – أعلى السنغال ج 2 ص 264 .

يستأثرون تقريباً باستهلاك البضائع المستوردة التي كانت في أغلبها مرتفعة الأثمان بالنسبة للمنتوجات المحلية .

وقد كان للبلاد مقاييس ومكاييل وموازين ثابتة ومتعارف عليها ، وبواسطتها كان يتم التعامل في الأسواق التي تعددت وانتشرت في مختلف نواحي البلاد ، مما يعطي الباحث صورة حية عن النشاط التجاري داخل المملكة ، ويزيد في تزكيتها ما تؤكده لنا النصوص عن توافر وسائل النقل وتنوعها ووصول البضائع لمختلف الجهات في البلاد . (1)

(1) انظر الحسن الوزاني ص 14 ، 18 ، 23 ، 167 .

الفصل الخامس

التجارة الخارجية

1 — القوافل التجارية وطرقها

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الغربية ما لم يلعبه المحيط الأطلسي ، من الأدوار الحضارية العامة ، فقد كانت مسارب الصحراء إلى غربي إفريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك ، إلى إفريقيا جنوب الصحراء عموماً ، إفريقيا الغربية بصورة أخص . وقد استمر هذا التوارد للحضارة إلى غربي إفريقيا خلال فترة طويلة من العصور الحديثة ، ومن بينها الفترة التي ندرسها هنا . وطوال وهاته الفترة كانت مياه المحيط الأطلسي لا تأتي لغرب إفريقيا بشيء من الحضارة ، أما خلال العصور الحديثة فقد جلبت إليها العديد من النخاسين الذين أحالوا الحياة في وجه السكان على الشواطىء إلى جحيم لا يطاق ، وكانوا طلائع المستعمرين الذين لم يكتفوا بصيد البشر والمتاجرة بهم إلى خارج إفريقيا ، وإنما استولوا بعدهم على المنطقة كلها بما فيها من بشر وحيوانات وأرض ونباتات . واستغلوها أفظع استغلال عرفته في حياتها الطويلة .

والحقيقة أن قبائل السودان الغربي قد اتصلت منذ القديم مع سكان الشمال الإفريقي شمال الصحراء ، ولم تكن الصحراء في يوم من الأيام تشكل عائقاً

دون الاتصال الحضاري المثمر بينهما وكانت الأسس الأولى المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع ، وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع [1] . وكانت التجارة بهذه الصورة تخدم مصالح الطرفين وتشكل عاملاً للتطور مهماً لكل منهما [2] .

كانت التجارة تتم عن طريق القوافل ، ويقدم ابن خلدون في تاريخه أن القوافل التي كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر) بالهقار كان عدد جمالها يبلغ اثني عشر الف جمل في أحيان كثيرة [3] وهذا يعطينا صورة عن كثرة البضائع التي كانت تنقلها هذه القوافل ، وعن مقدار الربح الذي كان يحصل عليه التجار من أسفارهم إلى السودان الغربي ، كما يقرب من أذهاننا الصورة الحقيقية لكثرة التجار العاملين بين السودان الغربي وشمالي إفريقيا .

ويبدو أن هناك مدنا كثيرة نشأت على طريق القوافل بين السودان الغربي وشمالي إفريقيا لخدمة التجار وبأثر من التجارة ، وتذكر منها سجلماسة وورقلة وغدامس وتوات وزاويلة وتادمكة ووالاتا وغيرها ، وكان للتجار في هذه المراكز وكلاء وأدلاء وفنادق تؤوي بضائعهم وحضائر لجمالهم [4] ، وبفعل هذه التجارة نشأت لدى السكان تقاليد في المعاملة ثابتة فهم يستقبلون القوافل بالترحاب وأحياناً بالدفوف فيستفيدون منها ويتعيشون من تجارتها معهم ، [5] أما مراكز التجارة الهامة في السودان فكانت على التوالي ، والاتا — كمبي صالح — تمبكتو — غاو — وأغدس . وكل هذه المراكز كانت عبارة عن عواصم ثقافية أو سياسية في نفس الوقت . ومن هنا ، فإن ازدهار الممالك السودانية في العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة كان قائماً على التجارة إلى حد كبير ، ويتضح لنا ذلك بشكل ملموس

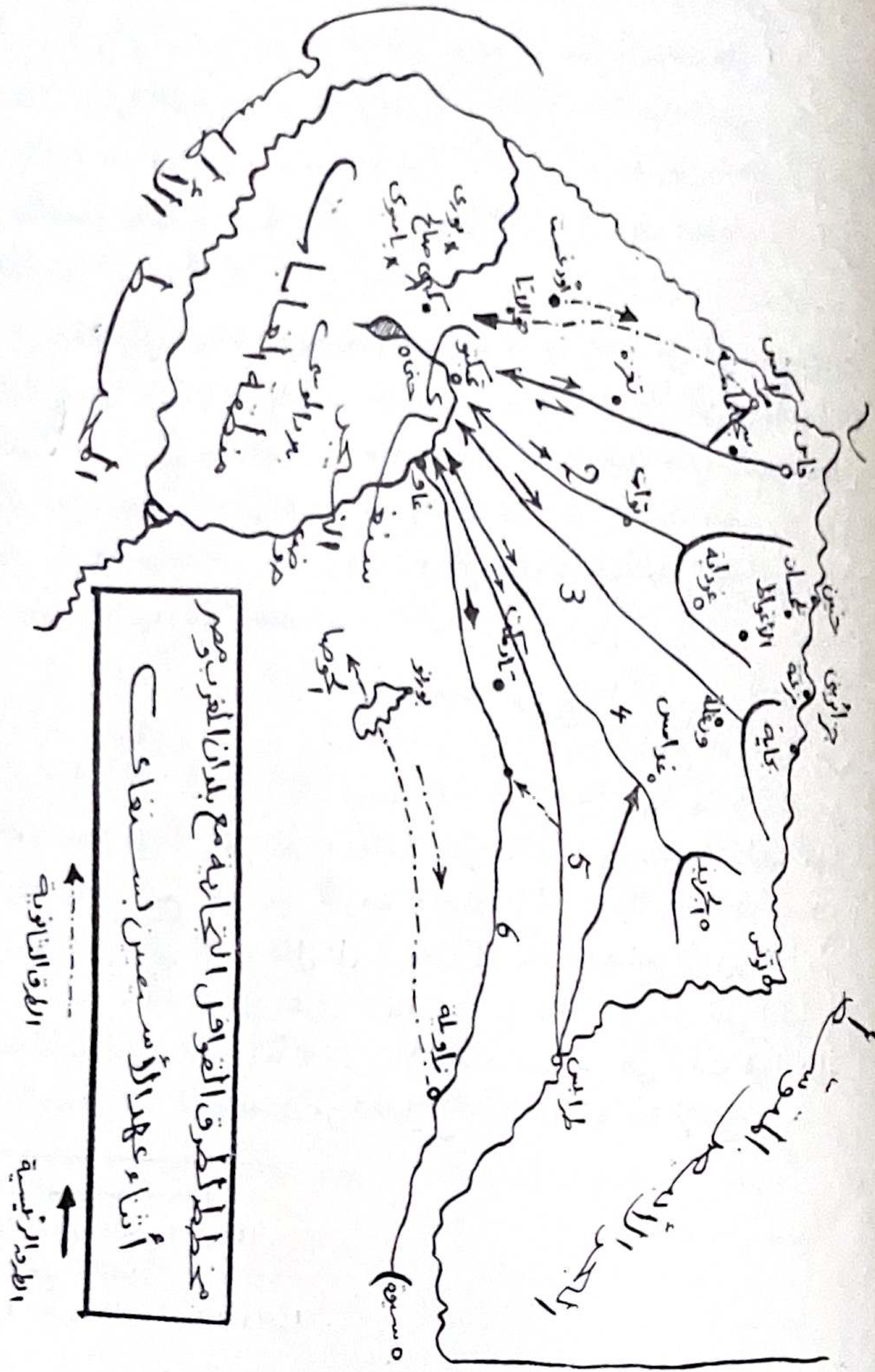
(1) انظر ماتيب ص 46 .
(2) ب.ج. ما رتن — في مجلة التاريخ الإفريقي — لندن 1968 ص 15 .
(3) عبد الرحمان بن خلدون التاريخ ج 6 ص 405 .
(4) انظر رحلة ابن بطوطة ص 43 فما بعد .
(5) بوفيل ص 145 .

من أن سلطان بورنو في سنة 1440 كان قد بعث برسالة إلى علماء توات ، يشتكي لهم فيها من أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كثيرة ، كما كانوا يفعلون في السابق ، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين السودان الغربي وشمالي إفريقيا ، ولكن صادف في هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة في توات ، وهذا ما دفع الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو إلى العمل على عدم السماح للتجارة التي يسيطر عليها اليهود من المرور بأراضيهم ، فقل ورود القوافل إلى بورنو ، فرأت هذه المملكة نقصاً في وجود البضائع القادمة من الشمال ، ورأت أن موارد المملكة قلت من جراء ضعف التجارة بها ، مما دفع السلطان إلى مكاتبة علماء توات ووجهائها في ذلك [1] .

وقد كان الأمراء على أيام سنغاي يستقبلون التجار بحفاوة ويهيئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم وما ذلك إلا للأهمية الاقتصادية والحضارية التي كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة إلى مملكة سنغاي ، وهذا ما دفع الحسن الوزان المعروف بـ (ليون الإفريقي) بعد أن زار سنغاي مرتين إلى الإشادة بحنكة السلاطين ودماثة أخلاقهم ، وبطيبة الشعب وتقديره للغرباء[2] ، وذلك بالرغم من أنه في موضع آخر من مذكراته ، يصف سكان تلك البلاد بالغباوة والطيش وقلة الذوق [3] .

وقد كانت القوافل التجارية إلى السودان الغربي تخترق الصحراء من جميع جوانبها ، أما اتجاهها فشمال إلى جنوب وبالعكس ، وهذا باستثناء الطريق الذي يربط مصر بالمنطقة فإن اتجاهه كان غرباً إلى شرق وبالعكس ، وكانت هذه المسالك الصحراوية عديدة ، غير أن المشهور منها على أيام دولة سنغاي ستة[4] هي :

(1) موني — يهود الغرب الإفريقي ص 360) وقد استقى معلوماته عن (مالفانت) الجنوي الذي قدم إلى توات سنة 1447 وأقام بها حوالي سنتين .
(2) ليون الإفريقي ج1 ص 53 .
(3) جون بولنوا وبوبوحمه ، إمبراطورية غاو ، باريس 1954 (في مقدمة موني للكتاب) .
(4) كليرسي وأسوي ص 34 .



(1) من سجلماسة ، ينطلق طريق إلى والاتا ومنها إلى تمبكتو وجني وغاو .

(2) من تلمسان ، يمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهي إلى تمبكتو .

(3) من تكرت وورقلة ، ينطلق طريق آخر إلى غاو مباشرة ، وهذا المسلك يتصل شمالا ببضائع الموانىء الجزائرية الهامة في الشمال ، مثل جزائر بني مزغنه وبجايه وسكيكدة وغيرها .

(4) من واحة الجريد في جنوب تونس ، ينطلق طريق غالبا ما تمر قوافله بورقلة وسوف أو غدامس .

(5) من طرابلس الغرب على الساحل الليبي ، ينطلق طريق ، يمر بغدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى بورنو وغاو .

(6) وينطلق من مصر طريق يمر بواحة سيوة وبزاويلة وتادمكة وينتهي إلى غاو وتمبكتو [1] .

كانت توجد على طريق هذه القوافل آبار بعضها من النوع الأرتوازي وجدت منذ أيام حكم دولة مالي على معظم مناطق السودان الغربي ، وقد تحدث عن وجودها العلامة ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر فقال ، (وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى ، وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعداً فيفعم البئر ، ثم يجري على وجه الأرض واديا ، ويزعمون أن الماء ربما أعجل سرعة من كل شيء)[2]

وفي موضع آخر يقرر ابن خلدون نفسه أن القوافل التجارية المغربية كانت تنظم إلى السودان من التلول ومن الأمصار ، وإن التجارة مع السودان كانت عامة

---

(1) فج ص 22 .

(2) ابن خلدون التاريخ مجلد 7 ص 119 .

في المغرب على أيامه ، بحيث يشترك فيها سكان البوادي وسكان المدن على السواء (1) .

ويقرر في موضع آخر أنه في آخر عهده أي منذ المدة السابقة لقيام دولة سنغاي مباشرة أصبح الطريق القديم وهو الذي يمتد (من ناحية السوس إلى والاتن (ولاتا) قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها ، فتركوا تلك ، ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت (توات) (2) .

وهكذا يأتي عهد سنغاي ، وقد أصبحت الطريق الهامة هي التي تمر بتوات وتنطلق منها ، وتجهز منها أكبر القوافل التي تقصد السودان من جهة بلدان المغرب العربي وفي هذا العهد أي عهد سنغاي كون التواتيون جالية كبيرة تقطن أهم مدن سنغاي في ذلك العهد ، وقد وجدهم المغيلي لما زار مملكة سنغاي 1502 على أيام الأسقيا الحاج محمد الأول ، في تمبكتو وغاو يشكلون نسبة كبيرة بين التجار الأجانب والأئمة والفقهاء هناك (3) .

أما بقية الطرق والمسالك ، فقد استمرت على عهدها الأول من النشاط ، في أيام الأسقيين ، ويرجح أنها ازدادت ازدهاراً بتوارد البضائع الأوروبية على المغرب أكثر من السابق ، لأنه في هذه الفترة تمكن التجار الجنويون والبنادقة من إقامة فنادق على السواحل المغربية وخاصة تونس كانت بمثابة مستودعات لبضائعهم يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم (4) ، وبهذا انضافت لبضائع بلدان المغرب التي كانت تنقل إلى السودان كميات من البضائع الأوروبية أكثر من السابق ، أما الطريق الشرقي ، فقد ازدادت بضائعه عن ذي قبل أيضاً ، وتعاظمت حركة قوافله تبعاً لذلك ، لأن هذه الفترة هي التي بلغت فيها دولة المماليك في مصر درجة قصوى من التعامل مع السودان وكذا كثرة الإنتاج .

(1) المصدر نفسه ص 120 .
(2) المصدر نفسه ج6 ص 118 .
(3) موني ، اليهودية ، ص 373 .
(4) صلاح العقاد (الدكتور) ص 51 .

ولا نشك في أنه حتى بعد احتلال العثمانيين لمصر سنة 1517 ، وقضائهم على دولة المماليك البرجية ، (1383 — 1517) قد استمرت القوافل في حركتها السابقة بين مصر والسودان الغربي الذي كانت تسيطر على معظم جهاته آنذاك دولة آل أسقيا (1) .

إذن ، فقد بلغت حركة القوافل التجارية أوج قوتها على أيام دولة الأسقيين وحافظت حكومتهم على التقليد السوداني القديم منذ أيام مملكة غانا في توفير الأمن والاحتفاء بالتجار ، ورغم أن بعض مسارب الطريق الغربي قد شاهدت بعض الاضطراب إلا أن ذلك لم يوقف مرور التجار من الغرب ، وإنما جعلهم يغيرون اتجاههم إلى طريق توات ، مما أعطى لهذا الطريق عوامل للازدهار أكثر من السابق . أما بقية الطرق فقد رأت ازدهاراً أكثر في هذا العهد بكل تأكيد ، وذلك لتوافر البضائع وتكاثرها بورود البضائع الأوروبية على أسواق المغرب من جهة، ولازدياد الإنتاج في كل من المغرب ومصر ، عن العهد السابق (2) .

2 — البضائع المتبادلة

كانت أغلب البضائع التي ترد على أسواق إفريقيا الغربية على أيام الأسقيين تأتي من بلدان المغرب العربي ، وهناك قسم يرد عن طريق مصر . وكانت هذه البضائع من الأهمية بحيث ينتج عن ورودها .

(1) تنشيط التجارة الداخلية .

(2) تغذية الجبايات الحكومية .

(3) المساهمة في توفير مجال للتشغيل .

(4) ترقية الذوق في الاستهلاك ، وحين يتوقف الوارد من البضائع إلى

(1) بيج مارتن ، مجلة التاريخ ص 16 .
(2) نفس المصدر .

الأسواق كان قسم من الناس يضطرون إلى الالتجاء لجذور الحشائش للتغذي بها ، وتحصل المجاعات (1) .

(5) المساعدة على إشاعة ظاهرة الأناقة في اللباس ، وخاصة بين الطبقات الموسرة ، لأنه كان من البضائع التي ترد على أسواق سنغاي أنواع المنسوجات من الحرير المعروف بالسوسية وكان القضاة والتجار وغيرهم من الأغنياء يتخذون منه عمائم وَجِيباً للباسهم ، ويكفنون به موتاهم ، وفي الأوقات التي يتوقف فيها ورود البضائع يضطر هؤلاء إلى لباس الأصناف الخشنة من الإنتاج المحلي ، التي يكونون قد تعودوا غيرها قبل ذلك ، بفعل توافرها وقدرة الناس على أثمانها (2) .

وقد كانت البضائع الأجنبية عظيمة الاعتبار لدى الناس ، فكانت زيادة عن كونها بضائع الاستهلاك العادي للموسرين أثناء توافرها في الأسواق ، نفيسة لدرجة أنها تشكل في اعتبار الناس هدايا جليلة القيمة ، ومن ذلك مثلا أن الفقيه محمد سعدي بن عبدالله بن عمر جاء من أرض جني لقادح عينيه عند مجيء الطبيب إبراهيم السوسي لمدينة تنبكتو ، وكان هذا الطبيب مشهوراً بحذقه في معالجة أمراض العين ، وقد سبقته شهرته إلى السودان ، فتوافد عليه المرضى من كل صقع ، وكان من بين من قصدوه الفقيه محمد سعدي ، فلما (تسبب له الطبيب المذكور فرج الله تعالى عنه وأخرجه من ظلمة البصر) ، وهذا ما دفع بالفقيه إلى إعطاء طبيبه مقادير كبيرة من الذهب ، فأهدى إليه الطبيب بدوره (عند رجوعه لوطنه جني أربعين حجرة ملسا وكسوة سوسية فاخرة) (3) .

وقد كانت البضائع الأجنبية إنما يتمتع بالحصول عليها وتداولها سكان المدن والموسرون منهم بشكل أخص، أما سكان الأرياف والبوادي ، فلم يكونوا يعرفون عنها إلا قليلاً ، أو أنهم يشاهدونها بأعينهم ولا يستطيعون التمكن من إحرازها

(1) تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ص 100 .

(2) المصدر نفسه ص 74/73 .

(3) عبد الرحمان السعدي ص 293 .

إلا نادراً وذلك لقلة ما بأيديهم من الأموال ، ثم لأن التجار إنما كانوا يقصدون أسواق المدن ، ويعرضون بها بضائعهم ، وكان سكان البوادي يذهب قليل منهم فقط لتلك الأسواق (1) وهذا باستثناء القرى الواقعة على مشارف السودان ، وهي تقع في الصحراء الجنوبية ، فقد كان سكانها يستقبلون قوافل التجار ويعرضون عليهم خدماتهم كأدلة وكمعاونين ، فيعطيهم هؤلاء شيئاً من مختلف أصناف البضائع التي يحملونها مقابل ذلك ، فعرفوها وولعوا بها . (2)

وقد كانت أهم البضائع الأجنبية التي ترد على أسواق سنغاي هي :

(1) أواني النحاس ، قسم منها كان يستعمل للزينة كالأساور والأقراط ، وقسم آخر كان في شكل جفان وأوان منزلية جيّدة الصنع ، والقسم الثالث كان في شكل لوازم للخيل كاللجام وحلقة القدم من السرج ، وهناك قسم منها كان في شكل أقفال وحلق للأبواب (3) .

(2) مصنوعات حديدية (خردوات) وأغلبها كان مما يستعمل لتجهيز الخيل ، كالأزمة والحدب ، وقسم منها كان مما يستعمل للحصاد والحرث كالمناجل والسكك ، وقسم آخر منها كان حلق الأبواب وقليلا ما كانت تستعمل منها أدوات للزينة . (4)

(3) مصنوعات من الزجاج ، بعضها كان في شكل طنافيس وكؤوس ، والبعض الآخر ، كان في شكل حبات للأسباح أو كرات صغيرة تدرج في عقود للأعناق أو الأيدي ، تتزين بها النساء خاصة ، وبعض الرجال أيضاً ،

(1) المصدر السابق ص 74 .

(2) ابن بطوطة ص 540 .

(3) انظر الحسن الوزاني ص 148 .

(4) عرف الحديد في السودان الغربي منذ وقت مبكر (أيام غانا) ، وتوافر وجوده بالبلاد ، مما أفقده صفة الطرافة على ما يبدو ، ولذلك استعمل قليلا فقط ، للزينة (انظر دافدسن ص 62) ، وخاصة في أيام سنغاي .

الذين بقوا يحافظون على بعض التقاليد الشعبية السابقة للإسلام ، وهذه كانت غالية الثمن .

(4) مقتطعات مرجانية ، تتخذ للزينة بشكل خاص ، وكانت مرتفعة الثمن أيضاً .

(5) الودع ، كان الودع في سنغاي له اعتبار كبير ، ويتخذ في الأسواق كنقود تشبه أوراق البنكنوت عندنا الآن ، حيث يعوض بها عن الذهب في البيع والشراء وتقيم بالذهب أيضاً ، كما أنها تتخذ كحلي شائعة الاستعمال بين جميع طبقات المجتمع ، ولم يكن الودع يستورد من الشمال فقط وإنما يستورد من الجنوب أيضاً حيث يذهب تجار السودان لجلبه من القبائل الساكنة على حدود المملكة الجنوبية وهي تتلقاه بدورها من تجار الساحل الغيني [1] .

(6) العطور كانت بعض موادها الأولية مثل المسك والعنبر تجلب من السودان ، أمّا بقية النباتات التي تصنع منها مثل الخزامى ، فقد كان يجلب أكثرها من المغرب وقسم من الروائح كان يجلب إلى المغرب من إيطاليا ، وتحمل العطور إلى سنغاي بأنواعها ، فيجني التجار من ورائها أرباحاً كبيرة ، ويقبل السكان على شرائها إقبالا كبيراً ، وكانت العطور تستهلك بكثرة في جميع أطراف مملكة سنغاي ، وخاصة بين الطبقات الموسرة والرسمية ، حيث لا يظهر الملوك والرؤساء في مجالسهم إلا والعطور تفوح من أردافهم ، كما أن القضاة والوجهاء كانوا يسيرون في الشوارع أو يقصدون المساجد في روائح قوية ، يكونون قد لمسوا ثيابهم وأجسامهم بالكثير منها قبل خروجهم للأماكن العامة .

(7) التمور ، كانت التمور من الأحمال الكبيرة التي تجلب إلى سنغاي ويأخذها التجار من الواحات الصحراوية العديدة ، وعلى رأسها واحات تقرت وورقلة وتوات . [2]

(1) عسوي وكليرسي ص 34 .
(2) نفس المصدر .

(8) التين ، كان التين المجفف له قيمة استهلاكية في ذلك الوقت أكثر منها الآن ، وقد أشار المؤرخون في مناسبات عديدة إلى أنه كان من البضائع التي تحمل إلى السودان ويجمعه التجار من مختلف أسواق المغرب [1]

(9) المنسوجات القطنية ، كانت بلدان المغرب ومصر في هذه الفترة ، قد ازدهرت بها صناعات النسيج ، وكثرت المحايك والحياكون في مختلف المدن والقرى ، وكان معظم لباس السودان من المنسوجات القطنية التي يحمل التجار الأجانب معظمها إلى أسواق سنغاي ، ومدنها الكبرى ، وقد عرف السودانيون في هذه الفترة صناعة الأنسجة ، وأخذوا طرقها من بلدان المغرب ، ولكن إنتاجهم كان لا يفي بالحاجة المحلية إلا جزئياً ، كما أن صناعاتهم من هذه المادة قد اقتصرت على بعض المدن الكبيرة فقط ، مثل تمبكتو وجني وغاو ووالاتا [2] .

(10) المنسوجات الحريرية ، كانت المنسوجات الحريرية التي ترد على أسواق سنغاي في هذه الفترة لحمتها من الحرير الطبيعي ، أما سداها فمن القطن ، ويعرف هذا النوع بالسوسية ، نسبة إلى سوس بجنوب المغرب الأقصى ، وكان هذا النوع من المنسوجات غالي الثمن ، وخاصة إذا كان مصبوغاً ، أما المنسوجات الحريرية التي كان يجلبها إلى أسواق المغرب التجار الأوروبيون ، ثم يحملها التجار المغاربة والمصريون إلى أسواق سنغاي بعد ذلك ، فقد كانت في معظمها مصبوغة ومتقنة الصنع ، وخيوطها في الغالب من واردات الشام إلى إيطاليا ، ويشير المؤرخون إلى أنها كانت أغلى أصناف المنسوجات الحريرية في أسواق السودان خلال هذا العهد [3] .

(11) القمح ، كان القمح ينتج على النيجر وخاصة في المناطق المحاذية لمستنقعات منحناه الأعلى حول دندي وجني ، وكذا في بعض الضيعات الصغيرة قرب غاو ، وكان يشكل غذاء للطبقات الموسرة فقط ، وقد كان يجلب من

(1) نفس المصدر .
(2) بوفيل ص 149 .
(3) نفس المصدر ص 320 .

المغرب بالدرجة الأولى ، وكان يشكل جزءاً كبيراً من أحمال القوافل المتوجهة من المغرب إلى السودان ، ولم تكن الطبقات الشعبية في سنغاي لتتمكن من الحصول عليه لارتفاع ثمنه غير أن القرى الواقعة عند حافة الصحراء الجنوبية ، وسكانها في الغالب من الطوارق ، كانوا يحصلون على مقادير قليلة منه مقابل خدماتهم التي يقدمونها للتجار أثناء مرورهم بمناطقهم [1] .

(12) الملح ، كان الملح يشكل إحدى المستوردات الرئيسية لمملكة السنغاي ، وكان لا يتوافر في السودان ، وقد ملكت سنغاي ممالح تغازة في الصحراء الموريطانية حالياً ، وكانت هذه المنطقة هي التي تذرع بها المنصور الذهبي في حملته المشهورة على سنغاي، سنة 1591. ويبدو من أقوال بعض المؤرخين أن الملح كان يشكل أكثر من نصف أحمال القوافل الشمالية إلى بلاد السنغاي [2] وكان يشترى في السودان بالذهب ، ويباع بمقادير مرتفعة جداً ، وكل ما يحمله التجار منه كان ينفد بسرعة ، وقد اختص الملح فكان من البضائع التي تتخذ قطعه نقوداً للتعامل في حالات كثيرة . [3]

(13) الكتب ، كانت الكتب من المستوردات الهامة إلى بلاد السنغاي وكانت مناطق استيرادها الأساسية إلى سنغاي هي بلدان المغرب العربي ومصر ، وكانت أثمانها مرتفعة جداً ، تزيد عن أثمانها في المغرب بضعف ونصف الضعف تقريباً ، وبطريق القوافل التجارية عرفت كل الكتب والمؤلفات المغربية والمشرقية في بلاد السنغاي ، وقد نشأت في السودان حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب ومصر ، وألف السودانيون عدة مؤلفات هامة ، ولكن الاستيراد في ميدان الكتاب ظل قائماً على نطاق واسع طيلة عهد الأسيقيين ، وقد بدأ قبلهم واستمر بعدهم أيضاً [4] .

(14) الخيول ، كانت بلدان السنغاي حارة بحيث لا يمكن تربية الخيول

(1) أسوي وكليرسي ص 34 .
(2) القلقشندي ص 291 .
(3) الحسن الوزاني ص 147 .
(4) نفس المصدر ص 148 .

بها بأعداد كبيرة ، ولذا بقيت الخيول يملكها الموسرون فقط ، كما كان الأمر في صحراء جزيرة العرب ، وبقيت الخيول لذلك غالية الثمن ، وعزيزاً الحصول عليها وكان التجار يقودون معهم أعداداً قليلة منها إلى بلاد السودان ، ويفقدون في طريقهم الشاق قسماً هاماً منها ، ولا يصلون إلا بجزء فقط مما أخذوا معهم منها وبالطبع فإنهم كانوا يبيعون ما يصلون به بأثمان يراعون فيها أرباحهم ، وتعويض ما فقد لهم من الرؤوس الأخرى في الطريق مما كان يجعل أثمانها مرتفعة وامتلاكها يقتصر على الخاصة دون سواهم في الغالب . [1]

(15) الجلود المدبوغة ، كانت بلاد السنغاي تصدر الجلود ، ولكنها تقبل على شراء الجلود المدبوغة التي كان يحملها التجار من بلدان المغرب حيث تصنع منها السروج وتغلف بها أغماد السيوف ، كما يصنعون منها كنانات وأجربة يطرزونها بأسلاك الذهب ، ويصنعون منها نعالا للسادة الكبار وللنساء الحرائر [2] .

(16) الأصبغة ، كانت الأصباغ ، وخاصة الأرجوانية والوردية منها غالية الثمن في العالم كله خلال هذا العهد ، وكان التجار يأخذون مقادير ضئيلة منها إلى بلاد السودان ولكنهم يبيعونها بأثمان مرتفعة ، وتقبل الطبقات الغنية في المجتمع السوداني على شرائها بكثرة ، هذا بالرغم من أن الشبّ الذي كان يشكل أحد العناصر الاساسية في صنعها كان يجلب من السودان مقدار هام منه إلى بلدان المغرب [3]

(17) الحلي ، كانت الحلي التي تحمل إلى بلاد السودان في عهد الأساقي تصنع من النحاس أو من الفضة المشوبة بالذهب ، وبعضها الآخر كان يصنع من الذهب الخالص الذي يجلب معظمه من بلاد السودان ، وكل أنواع الحلي التي تستورد إلى بلاد السودان كانت تطعم بالعقيق أو بحبات الزجاج

(1) يذكر كعت في هذا الصدد أن والي تمبكتو كان يصطفي فرساً من أحسن ما يرد على مدينته ، فيختص به (ص 174) .
(2) بونيل ص 1145 .
(3) انظر غوبي ص 62 .

الملون ، وقد اشتهر عن المجتمع السوداني في هذه الفترة ولعه بأصناف الحلي سواء منها القلائد أو الأقراط أو الأساور ، ولذا فقد كان التجار يحرصون على أخذ مقادير هامة منها ، ويجنون من ورائها الربح الكثير [1] .

إذن ، فقد كانت مملكة سنغاي على عهد الأسيقيين ، متصلة اتصالا وثيقاً بكل منتجات حوض البحر الأبيض المتوسط ، التي كانت حتى هذه الفترة ، تحتل مركز الصدارة للبلدان الواقعة على شواطئه ، فيما يخص جودة الإنتاج وكثرته في آن واحد ، ولكن لم تكن سنغاي مستهلكة فقط ، وإنما كانت مصدرة أيضاً [2] وكان أهم صادراتها :

(1) الذهب بالدرجة الأولى ، وكان الذهب يشكل المادة الأساسية ، لهذه الحركة التجارية الواسعة بين العالم الخارجي والسودان الغربي ، وكانت سواء في عهد الأسيقيين أو قبلهم ، وكان التجار يعودون من السودان محملين بالذهب أكياساً أكياساً وهذا ما كان يدفعهم على تحمل المشاق وقطع المراحل الطويلة الشاقة في الصحراء ، فيقطعون مسافة تقدر بشهرين بين المغرب والسودان الغربي .

أما بين المغرب ومصر فقد كانت المدة التي يقضونها في الترحال أكثر من ذلك [3] ، وقد كان الذهب الذي يحمل من السودان يغذي المغرب وجنوب أوروبا في آن واحد من هذه المادة ، حيث أن البضائع التي يوصلها التجار الأوربيون إلى السواحل الإفريقية ، كان يحمل منها قدر غير يسير إلى السودان ، أما التجار الأوروبيون فكانوا في الغالب يأخذون بدلها ذهباً ، وأما التجار المغاربة فقد كانوا يحملون مقابل بضاعتهم ذهباً أيضاً [4] ، ويظهر أن السودانيين كانوا قد انتبهوا منذ القديم إلى أهمية ذهبهم في العالم ، وهذا يظهر من الجواب الذي صرح به السلطان كنكان موسى حين زار مصر في طريقه إلى الحج (خلال القرن

(1) أسوي وكليرسي ص 34 .
(2) ج. مارتن ص 15 .
(3) ابن بطوطة – البكري – الحسن الوزاني وغيرهم .
(4) أسوي وكليرس ص 31 .

الرابع عشر) فقد طلب منه السلطان الغوري أن يسجد أمامه لما استقبله هذا الأخير في القلعة ، وأقام له احتفالا بتلك المناسبة ، فكان جوابه (إننا مالكو الذهب ، ولا نسجد لغير الله لأننا مسلمون) [1] .

(2) العبيد ، كانت أسواق النخاسة في هذه الفترة على غاية من النشاط ، وكانت أسواق السودان عامرة بالعدد الكبير من العبيد ، في مختلف الأعمار ، وكانت أثمانهم منخفضة ، في السودان عنها في العالم الخارجي ، ولذا كان التجار يعودون بأعداد كبيرة منهم ، ويبيعونهم في أسواق المغرب ومصر وعلى السواحل إلى التجار الأوروبيين الذين يحملون أعدادا هامة منهم إلى الجانب الآخر من المتوسط ، وهكذا كان العبيد يشكلون جزءاً كبيراً من صادرات سنغاي على أيام الأسيقيين [2] .

وكان معظم العبيد الذين يباعون في الأسواق السودانية يجلبون من مناطق الغابات الجنوبية الوثنية التي كانت تقطنها قبائل (موسي) [3] ، إلا أن أعداداً كبيرة من بينهم أيضاً كانت من ممتلكات السكان العادية ، وكان التجار يستعملون حيَلاً في بيعهم فيزعمون أنهم غير مسلمين ، ويجبرونهم على الزّعم بكونهم من غير المسلمين ، فيما إذا سألهم من يريد أن يقبل على شرائهم في الأسواق الإسلامية [4] ، ومهما يكن فإن العبيد كانوا يشكلون نسبة هامة من صادرات سنغاي كما كان الشأن قبلهم في أيام مملكة مالي .

(3) ريش النعام ، كان لريش النعام رواج كبير في الأسواق ، وعليه إقبال كبير كذلك ، حيث أنه كانت تحشى به الأرائك والمخاد في البيوتات والقاعات ، كما كانت تتخذ منه الطبقات الموسرة مراوح للتهوية أو للزينة ولذا فقد كان التجار يجلبون منه مقادير هامة أثناء رجوعهم من السودان وكان التجار

(1) مجالس السلطان الغوري – القاهرة 1961 ص 85 .
(2) بو فيل ص 145 .
(3) أسوي وكليرسي – ص 34 .
(4) تاريخ الدولة السعدية – لمؤلف مجهول ص 60 والسلاوي ، الاستقصاء ج 5 ص 97 وأحمد بابا – نيل السعود – ورقة 23 .

المحليون والوكلاء والوسطاء يعملون على تهيئة وجمع ما يتيسر لهم منه ، لكي يبادلوه بالبضائع التي تحملها القوافل من الخارج [1] .

(4) بيض النعام ، كان بيض النعام يتخذ من محه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية ، كما كان يوضع فوق المناضد أو يعلق على حيطان القاعات للزينة ، ولذا كان التجار يجلبون منه ما تيسر لهم ، وكانت أثمانه في الأسواق الخارجية مرتفعة [2] .

(5) التوابل (البهارات) كانت هذه المواد تأتي إلى بلاد سنغاي من مناطق الغابات في الجنوب وكان التجار المحليون يذهبون إلى هناك لجلبها كما كان التجار المحليون في تلك المناطق يحملون قسماً منها إلى بلاد السنغاي ، وكانت أصناف التوابل العديدة لا تزال تشكل في تلك الفترة مادة رفوف الصيدليات في كل أنحاء العالم ، وتتكون منها جميع العقاقير التي تحتويها وصفات الأطباء ومؤلفاتهم ، وكانت أثمانها مرتفعة جداً ، كما كان الإقبال عليها شديداً كذلك ، وكانت مواطنها الأساسية هي جنوب آسيا حيث المناطق المدارية والاستوائية وكذا إفريقيا ، أما أميركا الجنوبية فلا تزال في ذلك العهد في طور الاكتشاف ، وقد كان التجار الذين يقصدون بلاد السنغاي يحملون منها ما استطاعوا ويربحون من ورائها أرباحاً وفيرة [3] .

وهكذا ، كانت سنغاي بواسطة تجارتها الخارجية النشيطة تأخذ من العالم وتعطيه وقد تمكنت من ذلك لأنه كان في التعامل معها من الفوائد ما شجع التجار الأجانب على المجيء إليها بكثرة رغم ما كانوا يتحملونه من المشاق ، أما سنغاي فقد استفادت من ذلك في أن تصريف منتوجاتها كاد لا يعرف الركود ، ولعل أهم من ذلك كله أن ميدان التجارة الخارجية كان يشكل طريق اتصالها بالعالم الخارجي ، وقد جلب إليها ذلك ، في ميدان الازدهار الحضاري ، عظيم الفوائد .

(1) أسوى وكليرسي ص 34
(2) نفس المصدر
(3) نفس المصدر

خاتمة

لقد كانت الحضارة الإسلامية تتطور في أطراف بلاد الإسلام ، في الوقت الذي كانت عناصر الضعف تنتابها من الداخل في موطنها الأول . ويرى (كورنوفان) أن الفترة بين القرن الحادي عشر والسادس عشر في السودان الغربي يمكن أن تعتبر فترة حضارة البحر الأبيض المتوسط [1] ، ولا اعتراض على هذا القول سوى التعميم المفرط ، لأنه في آخر هذه الفترة كانت أكبر دولة في السودان الغربي هي دولة سنغاي وقد امتد نفوذها على معظم قبائل السودان الغربي وإماراته .

ودولة سنغاي كما أسلفنا كانت قبل الأسيقيين تغلب عليها التقاليد الوثنية ، أما خلال عهد الأسيقيين فقد أصبحت دولة إسلامية ، وأصبح بلاط غاو يجسم بالنسبة للممالك السودانية المجاورة المثال الجدير بالتقليد والاحتذاء ، ومن ثم فإن الفترة بين 1493 و 1591 يمكن أن نسميها فترة سنغاي في السودان الغربي .

وقد تعرض للكتابة في تاريخ هذه الدولة عدد من المؤرخين كان من أهمهم دولافوس ، ولكنه كان يهتم بالفترة التي سبقت الاحتلال الأوروبي مباشرة ،

(1) ج 1 ، ص 447 .

وبفترة الاحتلال الفرنسي أكثر من اهتمامه بما قبلهما. كما كتب عنها موني ، ولكنه كان يهتم فيما كتبه بجمع أقوال المؤرخين القدماء أكثر من اهتمامه بتحليل تاريخ البلاد. وانصبت جهوده على فترة العصور الوسطى أكثر من غيرها. وكتب عنها فيلاروبوبوحمه بالاشتراك مع بوتوا ، ولكنّ مؤلفيهما احتويا من الإعجاب بتاريخ البلاد أكثر من احتوائهما على التحليل الموضوعي ، وفي الأخير ظهر مؤرخون محدثون في السودان الغربي كان من أهمّهم : أنتا ديوب وسورات كنال بالاشتراك مع جبريل تسميرنيان ، وقد جاءت أبحاثهم في قالب وطني أكثر من أن تكون في قالب موضوعي أيضاً . ورغم كل ذلك فإنّ هذه الأبحاث وغيرها لها مكانة كبيرة الأهمية لأنها تشكل الأرضية الأولى للباحث في هذا الميدان .

ولم يوجد بحث حسب علمنا خصّص كليا لعهد الأسيقيين في سنغاي ، ولكنّ الباحثين لم يفتهم التأكيد على أنّ هذا العهد قد تميّز بكونه يمثل فترة من النضج الحضاري لم يسبق لها مثيل في تاريخ السودان الغربي كله ، وهذه حقيقة لا تخفى على أحد لأنّ الأسيقيين كانوا أوّل حكام في السودان الغربي نظموا دولة على أساس وطني واستمدوا قوانينها الأساسية من الإسلام ، فقد نبذوا المفهوم القبلي الضيّق الذي ظلّ يفتّ في عضد الدول التي سبقتهم في المنطقة ، ومن ثم فقد مكّنوا للإسلام على أساس أنّه أحسن ما يلائم النظرية الجديدة للدولة ، وفي الوقت نفسه فإنه لا يمثل أيّ تسلط أجنبي ظلوا يحرصون طيلة أيام حكمهم على عدم قبوله ، ولعلّ من أبرز وقائعهم في هذا المقام موقفهم من الاحتلال المغربي ورفضهم لجميع المساعي التي بذلها السعديون قبل سنة 1591 لإعلان وصايتهم على المنطقة كأشراف ، أو فرض نفوذهم عليها كخلفاء .

وبناء على هذا فإنّ الباحث الموضوعي لا يستطيع أن يقبل القول بأنّ الإسلام في أيام الأسيقيين قد فرض على البلاد بحكم السيف وأوقفت زحفه ذبابة تسي – تسي عند حدود المنطقة الاستوائية ، ثم وجد سبيله إلى الانتشار

بعد ذلك تحت ظل السلم الفرنسي [1] ، وذلك لأن هذا القول مردود بأن الأسيقيين حاربوا الإمارات الإسلامية والوثنية عموماً ، وقد علّل ذلك الأسقيا محمد الكبير نفسه بأن حكام تلك الإمارات كانوا يظلمون الناس ويستغلونهم ، [2] وعلى هذا الأساس حارب الأسيقيون مملكة الكبي ومملكة مالي وهما مملكتان إسلاميتان ، ولم يحاربوا لنشر الإسلام الاّ مملكة الموسي في عهد الأسقيا محمد بعد رجوعه من الحج في سنة 1497 ، [3] أما في غير ذلك فإنّ حروبهم الكثيرة لم تكن لنشر الإسلام وإنما كانت للتوسع وفرض النفوذ .

وإذا كان الباحث الموضوعي لا يجد في نظرنا مصداقاً للادعاء بأنّ عهد الأسيقيين كان عهد فرض الإسلام بالسيف في السودان الغربي ، فإنه لا يجد برهانا كذلك لصحة القول بأنّ عهد الأسيقيين بسنغاي كان يمثل مرحلة حضارة البحر الأبيض المتوسط بالسودان الغربي .

ولا مصداقاً للقول بأنّ عهد الأسيقيين كان يُمثل مرحلة التسلط المغربي أو التسلط العربي على بلاد السودان [4] ، لأن مثل هذا الزعم يخالف الحقيقة المتمثّلة في أنّ الأسيقيين كانوا حريصين كل الحرص على استقلالهم السياسي كما أسلفنا ، ثم أن جدّيتهم في استيحاء القانون الإسلامي ، ربما جاءت من لمسهم للفائدة التي يهيئها لهم الإسلام في إقرار الوحدة الوطنية بمملكتهم الشاسعة الأطراف على أساس غير أساس القبلية ، التي كانت لا تساعد على وحدة تلك المملكة الكبيرة بدون شكّ ، ويدلّ على ذلك تقربهم من العلماء من مختلف

---

(1) بونوا وحمه ، وقد أعلنا في مقدمة كتابهما بان عملهما يمثل تجسيم وحدة الفكر بين الزنجية المتنورة والأوربية المتفتحة . ويشاركهم في نظرية انتشار الإسلام بأثر الاستفادة من السلم الفرنسي عدد من المؤرخين الفرنسيين على رأسهم روبير كورنوفان .

(2) انظر الملحق .

(3) يذكر السعدي أن الأسقيا أرسل رسولا لملك الموسي يدعوه للإسلام ، ولما لم يستجب حاربه ، ولم يفعل مثل ذلك في بقية حروبه على كثرتها .

(4) أبرز أصحاب هذا القول أنتا ديوب ، ص 91 .

الجهات والقبائل ، ومحاربتهم لرؤساء قبيلة سنغاي الذين أرادوا أن يبقى نظام المملكة قائماً على الأساس القبلي وحده ، وأن يظل للسنغائيين وحدهم الحكم والامتياز كما كان ذلك في أيام سني علي وقبله [1] . فإذا أضفنا إلى هذا أن الإسلام في حقيقته لا يمثل استعماراً فكرياً لجنس على جنس أدركنا مدى مجانبة الموضوعية التي تبدو في الأسلوب الذي عالج به الباحثون تاريخ السودان الغربي على أيام الأسيقيين . ورغم أنه لم تظهر لحد الآن أبحاث خاصة بعهد الأسيقيين ، إلا أن ما كتب في ذلك ، على قلته ، ظل يتجاذبه بوضوح عنصران : أحدهما يستمد أصوله من النظرية الأوروبية الحديثة ، التي تجسّمها فكرة القومية العرقية كما تمخّضت عنها حركة الشعوب الغربية في القرن التاسع عشر ، والأخرى تستوحي أصولها من الأولى ، وتنبني على أساس المفهوم الخاص لوحدة الحضارة الزنجية (نيقرتود) وتميّزها بخصائص ذاتية عبر العصور .

وإذا أردنا أن نضع إطاراً لموضوعية البحث ، كان علينا أن لا نقتدي برأي مسبّق ، قبل أن نستوعب ما احتوته المصادر الأساسية التي كتبها السودانيون الذين عاصروا المملكة مثل كعت والسعدي وأحمد بابا ، ونقارن ذلك بما كتبه غير السودانيين مثل : ابن بطوطة والقلقشندي والحسن الوزّاني ، وهم جميعاً كتبوا مشاهداتهم كما هي ، وحينئذ يبدو لنا كثير من الوقائع التي انتبه إلى تحليلها المؤرخون المعاصرون ، كما نجد أشياء أخرى أغفلوها [2] . وأول ما نعثر عليه من ذلك بدون شك ، هو عدم وجود قاعدة ولا أساس لكل من فكرتي القومية العرقية أو التسلط سواء لدى السودانيين أو لدى المسلمين من خارج السودان ، الذين اتصلوا بهم وتبادلوا معهم الخبرات والمعارف في أيام الأسيقيين

---

(1) انظر كعت ، ص 123 .

(2) انظر ه . دوشمب – إفريقيا السوداء قبل الاستعمار ص 11 . فقد أخذ على المؤرخين الذين يتصدون للكتابة في التاريخ الإفريقي حديثاً ، ويتأثرون فيما يصلون إليه من النتائج بالواقع الذي يعيشونه ، فيبتعدون بذلك عن الموضوعية الصحيحة . وهو محق في ذلك ، لما عرف عنه من تخصص في التاريخ الإفريقي ، وسعة اطلاع في موضوعاته .

بسنغاي ، ولا يبقى لنا إذن إلا أن ننظر للأشياء كما هي ، وننبذ كل الشعور بوجود شكل ما للاستعمار الفكري أو المادي . أما صورة التأثير والتأثر التي تنشأ عادة عن التبادل والاتصال بين الشعوب ، فقد وجدت مع دخول الإسلام للمنطقة وأفادت السودان كله ، كما أفادت الممالك الإسلامية في المغرب ومصر ، واستفادت منها أوروبا والشرق بصورة غير مباشرة [1] .

وقد كانت أبرز صور الإفادة بالنسبة للسودان هي تكوين دولة فيه على أساس وطني ، وكان ذلك لأول مرة في تاريخه السابق كله ، وهي دولة سنغاي في عهد الأسيقيين ، وقد هيأ له قيامها المثال الذي اجتاز على ضوئه لأول مرة الشكل القبلي ، وقد قلّدتها في ذلك عدة ممالك عاصرتها وأخرى جاءت بعدها . وإن هذه الصورة لعهد الأسيقيين في سنغاي هي التي حاولت أن تتجسم في كل الفصول التي احتوتها هذه الرسالة وذلك على أساس واقع المملكة كما هي ، من حيث النظام الاقتصادي والعرف الاجتماعي والسياسة العامة . أمّا التعامل والمكتسبات المادية فقد بذل العلامة موني مجهودات لم يُدانِه فيها أحد من الباحثين حتى الآن ، وذلك لأنه جمع بين الأبحاث الأثرية ومطابقة النصوص وتحرّيها ، فكشف العديد من الجوانب .

وقد توفر الباحثون – وخاصة بعد الحرب الكونية الثانية – على دراسة تاريخ السودان الغربي في فترة الأسيقيين بسنغاي ، إلا أن قلة الوثائق الأساسية ظلت تجبر المؤرخين على الاعتراف بقلة المعلومات ، وهذا ما جعل الأستاذ دافدسن يتعرض في أبحاثه للوقائع التاريخية بشكل عام ، ولا يكاد يجزم بشيء قد يتفق الكثيرون على ذكره ، وقد شابهه في ذلك كل من كتبوا عن تاريخ المنطقة ككل ، وهم كثيرون .

وإنا لنرى أن الباحث أصبح يستطيع أن يتوفر على استجلاء الواقع التاريخي بالسودان الغربي لمملكة أو لمنطقة أو لفترة ، وذلك لتكاثر الأبحاث العامة في

---

(1) أنظر الفصل المتعلق بالتجارة الخارجية ، فيما سبق .

الفترة الحديثة من جهة ، والتثبت من وجود عدة مصادر أساسية زادتها الأبحاث الأثرية الحديثة بعض الوضوح والغنى من جهة أخرى ، وإنه ليزكي هذا الاعتقاد لدينا أنّ كل الأبحاث في هذا الموضوع لا تزال جديدة ، ومن هنا فإنّ ميدان كل منها تكسوه غشاوة من عدم الارتكاز والتثبت وهما ناتجتان عن أن هناك وقائع ينتبه البعض لها ، ولا ينتبه الآخرون لها ، وذلك شأن كل ميادين الأبحاث الجديدة ، ولكن التوقف عن محاولة استجلاء أي جانب على حدة ، تعني التوقف عن حركة الاجتهاد وعلى العكس من ذلك فإنّ كل جهد للتغلب على الصعاب ستبقى نتائجه مهما كان متواضعاً ، أساسية وجديدة ، وذلك لفترة ربما ستكون طويلة في المستقبل ، وهذا بشرط أن تلتزم حدود الموضوعية ؛ وحينئذ يحصل يسر ، الاتفاق والتثبت ، ويتوافر عامل الارتكاز بالتدريج .

وإذا كانت الحقائق العامة هي وحدها التي ترتبط بالموضوعية فإنّ الموضوعية في تاريخ السودان الغربي قد اعتراها الكثير من الحيف بسبب أنّ الأبحاث في هذا الموضوع انصبّت على العموميات التي كثيراً ما يتقيد الباحثون فيها ببعض المفاهيم الخاصة ، ولو أنها انصرفت إلى الجزئيات لأمكن رؤية الأشياء كما هي أكثر . وإنا لنأمل أن يكون محتوى هذا الكتاب الذي هو جزئي في واقعه ، قد أدى للموضوعية المنشودة في تاريخ السودان الغربي وعلاقته بالعالم الخارجي ، بعض الفائدة . وعلى الله قصد السبيل .

شجرة الملوك الأسيقيين

بين 1492 – 1591

1 – أسقيا محمد الكبير .

الجيل الثاني (الأبناء)

أبناء الأسقيا محمد الكبير :

2 – ابنه الأسقيا موسى (أكبر إخوته)
3 – أسقيا محمد الثاني
4 – أسقيا إسماعيل
5 – أسقيا إسحاق
6 – أسقيا داود

الجيل الثالث (الأحفاد)

أبناء الأسقيا داود :

7 – أسقيا محمد الثالث
8 – أسقيا محمد باني (الطيب)
9 – أسقيا إسحاق الثاني

ثبت بالمراجع الهامة

فهرس المحتويات